السّت مها

الطبعة الأولى
1441 هـ
2020 م

اسم الكتاب: السّت مهـــا
التأليف: عصام عبد الحميد
المراجعة اللغوية: عبد القادر أمين
موضوع الكتاب: رواية
عدد الصفحات: 248 صفحة
عدد الملازم: 15.5 ملزمة
مقاس الكتاب: 14x20
عدد الطبعات: الطبعة الأولى
رقم الإيداع: 2019/ 25371
الترقيم الدولي: 978-977-278-784-5

دار البشير للثقافة والعلوم

elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com
01152806533 - 01012355714

السّت مهـا

رواية

عصام عبد الحميد

دار البشير للثقافة والعلوم

الإهْداء

إلى القرّاء الأعزّاء..

لا تظنّ أنّك خارج إطار الصّورة،

ابحثْ عن نفسِك جيّدًا..

ربّما تجدها.

تتناهى إلى مسامعِه أصواتُ طفلتيْه التّوأميْن الصّباحية، ومشاكستهما وصراخهما المتبادَل، الذي لا يتوقّف لحظةً منذ أنْ فتحتا أعينهما على نور الحياة، وأمّهما تطاردهما في البيت، وتصرخ فيهما ليتناولا طعامَ الإفطار، مع حفنةٍ من التّعليمات المعتادة، والرّاديو يقبع هو الآخر في مكانه يصيحُ بصوت قنديل: يا حلو صبّح، يا حلو طلّ. يتقلّب في فراشه عدّة مرّات بغيظٍ مكتوم، ويضمّ الغطاء فوق رأسِه في محاولةٍ للحصول على بعض الهدوء، يثور بركانٌ بداخله ويحدّث نفسه، كمْ من المرّات رجا زوجتَه أن تخفِضَ الأصوات قليلًا في الصّباح، ولكنْ هيهات، فهي من الأصلِ لا ترى أنّها مرتفعة، ثمّ يحشر رأسَه بين وسادتين بلا فائدة.

فجأةً، دخلت الحجرة، وهي تصدرُ زمزمة لبؤةٍ غاضبة، خرجتْ قليلًا، ثمّ عادتْ كأنّها تبحثُ عن شيء، فعلتْ ذلك عدّة مرّات، كلّ ما تلمسه يُحدث صوتًا، يعضّ على نواجذه كاتمًا غيظه، وهو يتذكّر ليلة أمس، وقبلَ أن تنام وضعَ على خدّها قُبلةً أودعَ فيها كلّ رجائه، وهو يطلبُ منها ألّا تُحدث جلبةً كثيرة هي والبنات في الصّباح؛ لأنّه سيسهرُ قليلًا لإعداد تقريرٍ مهمّ للعمل، ابتسمتْ بودّ، وقالت: مِن عيني يا حبيبي.

هي الآن في الحجرة، تكملُ ذبحَ رجائه بألّا توقظه قبلَ موعده بكلّ اللامبالاة التي تهيم في الكرة الأرضية، همّ بالصّراخ ففوجئ بأنّها تصرخُ على البنات: باص المدرسة أوشكَ على الوصول، ومازلتما تلعبان! ثمّ خفضتْ صوتها قليلًا،

وظلّت تشكو إلى الله تعبَها مع ابنتيها، وتقول: يا ربّي، عن ماذا كنتُ أبحثُ! ثمّ ظلّتْ تدور في الغرفة، تفتحُ الدولاب ثمّ تغلقُه، تفتح الأدراجَ بعُنف، ترفع الأشياء وتضعها بتوتّر، حتّى وقفتْ على رأسه بكلّ جبروت، وبدأت في النّداء عليه:

– مراد...

يتناومُ والغيظُ يأكله، ظلّت تنادي، وظلّ ساكنًا علّها تيأس، فلم تبالِ، ووجّهت له سؤالًا كأنّه مستيقظ:

– هل رأيت بكرةَ الخيطِ الأسْود والإبرة، كنتُ أستعملها بالأمس، ولا أدري أين وضعتها.

ودّ لو كشفَ الغطاء وصفعَها صفعةً مدوّية، ولكنّه واصل الصمت، وواصلت النداءَ بصوتٍ أعلى يقترب من الصّراخ:

– مراد، لا تتركني ككلّ يومٍ أعاني وأنتَ نائم ملء جفنيك.

ثمّ مدّت يدها المتوتّرة، وجذبتِ الغطاء عن وجهه بعنف، صارخة:

– مراااد.

فتحَ عينيه وقد فاضَ به الكيل، صارخًا في وجهها، ليتفاجأ بظلام هائل يحيط به، وصمتٍ يجثُم على البيت كلّه، كأنّه قبر، ورجع صدى صوتِه الصّارخ يعود إليه ليقول إنّ ذلك كان مجرّد حلم.

لبثَ قليلًا يمسح وجهَه ورأسه، ويضغط قليلًا على عينيه، يحاول استعادة وعيِه المتناثر في أرجاء الحلم، ثمّ خرجَ من السّرير وهو يحاول السّيطرةَ على أنفاسه اللاهثة، إلى الصّالة الكبيرة، جال فيها ببصره الحزين، يلقي الضّوء

الخافت ذبالته على الأثاث، راحَ يتأمّل- بعمق- كراسي المعيشة، كأنهنّ نساء متشحات بالسّواد يجلسنَ ساكناتٍ في مأتم، والصمتُ والحزن يخيّم على وجوهِهِن، ثمّ تحركت عيناه إلى كراسي السّفرة المتحلّقة حول المائدة، ازدادتِ الإضاءة فجأة، ثمّ رأى نفسَه يجلس في مقدّمة الطعام، يطالع تقاريرَ جلبها معه مِن العمل، وعن يمينه تجلسُ سكّر غاضبة من نوع الطّعام الذي لا تحبّه، والتي تصرّ أمّها على أنْ تأكله، وعلى يساره لوز التي تسندُ وجهها على يديها، تهزّ ساقيها في حركةٍ رتيبة غير مبالية بشيء مما يدورُ حولها، وزوجته تخرجُ بأطباق الطّعام وتضعُها أمامهم، ولا يتوقّف لسانها عن سيل النّصائح اليومية التي لا تسمعها البنات، وتأمره بترك أوراقه والتفرّغ لهنّ، وأنّ عليه أن ينسى هموم عمله بمجرّد الدخول إلى البيت، ثمّ عادتِ الإضاءة للخُفوت لتتحوّل الكراسي إلى أصنام متحجّرة يخيّم عليها الصّمت والموت الأبدي، جاء أخيرًا، صوتُ المؤذّن لصلاة الفجرِ ليشقّ الحزنَ المتمدّد في قلبه، ويفسح الطّريقَ لتغمره الطّمأنينة والسّكينة.

سنتان مرّتا عليه كأنّهما دهرًا أبديا، منذُ أن توفّيت زوجته فجأة ودونَ مقدّمات، لم تمرضْ أو تشتَكِ من شيء، ولم يقعْ لها حادث ما، ولكنّها سهرتْ ليلة وفاتها مع ابنتيها وزوجيهما وأحفادها الثلاثة، للاحتفال بعيدِ ميلادها، لم تتوقّف عن الضحك أو الحديث والمزاح مع الجميع، وفرحت بالهدايا كطفلةٍ صغيرة، لم يكدّر ليلتها شيء، فكلّ ما دار فيها كان جميلًا، حتّى الطّعام الذي أعدّته كان رائعًا كلّه، فلم يحترقْ منه شيء كالمعتاد، أو يصيب يديْها لسعُ الفرن، أو تنكسر أطباق أو كاساتٌ في الحوض.

وفي السّرير، وضعت رأسَها على ذراعه، وواجهته بابتسامةٍ تعلوها السّكينة، جعلته يتعجّب، فقد تعوّدت قبلَ أن تنام أنْ تجمع كلّ ما أتعبها طولَ النهار في جوالِ الشّكوى، ثمّ تعيد سرْدَه عليه، مع بعض التأوّهات والأنين.

بدأتْ تلك الطريقة بعد إنجابها لابنتيها التوأمتان، فكانت رعاية رضيعتيْن عمليّةً شاقّة، تأخذ منها مجهودًا عظيمًا.

في البداية كان يرقّ لها، ويساعدها قدرَ المستطاع، فيستيقظ معها في اللّيل مع صراخ البنتين، فيحمل عنها واحدةً بينما تُرْضع الأخرى، ثمّ تأخذُ في بثّه وجَعَها وتعَبَها في غيابه للعمل، وهو يهوّن عليها، ويلمسها بحنان، وينثر عليها غيمةً من القُبُلات، مع الدّعاء لها بالصّحة، ويمازحها قائلًا: تشكين من اثنتين، ماذا لو أصبحوا عشرة؟! فتصرخ: لا.. تُبت إلى الله وأنبتُ من الإنجابِ مرّة أخرى.. فيضحك منها، وأصبحت عادةً ليليّة، حتّى أنّه اشتهاها يومًا فأمسك بيديها، وقبّلهما، ثمّ زحف بقبلاته على جبينها وخدّيها، وشفتاها لا تتوقّفان عن استكمال ما بدأت من الشّكوى، فقبّل شفتيها قبلةً طويلة، فاستجابتْ له، ثمّ عادتْ لإكمال كلماتها بمجرّد أن انتقل بشفتيه إلى مكان آخر.

اعْتادت أذناه على ذلك، ولم يعدْ يسمع منه شيء، ولكنّه لم يتوقّف عن ترضيتها، واستمرّ ذلك طوال حياتهما معًا، وحتّى زواج البنتين.

هذه الليلة حدّثته بعذوبة، كالأحاديثِ التي كان يسمعها في بداية زواجهما، عن باقي أحلامها في الحياة، والتي تتمنّى أن تحقّقها، تجاوب معها، وقد علا وجهه بعضُ الاندهاش، وأصغتْ أذناه لحديثها المختلف، وامتلأ كيانُه به،

ودعا لها بطولِ العمر ووافر الصّحة، ثمّ فاجأته وقد اقتربتْ منه وقبّلته في خدّه وجبينه قُبلاتٍ متتالية، ثمّ اقتربت من شفتيه حتّى اختلطت أنفاسهما، وهي تقول: سامحني يا حبيبي.. ثمّ ضمّته بقوّة، وهمست: ألا تريدني اللّيلة؟ أشتهي قربَك ووصالك.. نظر إليها وقد بلغ الاندهاشُ ذروته، فابتسمتْ وقالت: هيّا لا تضيّع الوقت، لم يعدْ في العمر الكثير لنُهْدره في التعجّب.. ثمّ جذبته إلى دفئها بنزقٍ مجنون، حتّى هدأت أنفاسُها، فأغمضت عينيها، ونامت كالملاك، لأوّل مرّة منذ تزوّجها تفعل ذلك، تبادره، وتجذبه للعلاقةِ الحميمة، كانت أشهى مرّة الْتقيا فيها.

وفي الصّباح، استيقظ على سكينةٍ كثيفة تحيط بهما، التفت ناحيتها فوجدها مازالت نائمةً على غير عادتها، التي تجعلها تستيقظ قبلَه دائماً. أوّل مرّةٍ منذ زواجهما يستيقظ قبلَها، شيء ما جذبه ناحيتها بقلقٍ جازع، وأخذ ينادي عليها، ولكنها لم ترد، فقد نامت للأبد.

كانت صدمةُ موتها المفاجئ مُفْجعة، جعلتْه عاجزًا عن إستيعاب الموقف، لدرجة أنّه حتّى لم يستطع البكاء، بينما انْهارت ابنتاه من هوْل المفاجأة، غير مصدّقتيْن ما حدث.

مراد وابنتاه التوأمتان خارج السّياق الزمني المعتاد للحياة، تحرّك بعضُ الأقارب والمعارف بسرعة لإنهاء إجراءات الدّفن وفتح المقبرة، وفي وقتٍ وجيز من الضّحى، وحتّى صلاة الجنازة في الظّهيرة، كانت الحياة تجري على عجلٍ لا تأبه لأحد، تجرفُ في طريقها الحنينَ والمشاعر والذكرياتِ إلى وادي النسيان.

يجد مراد نفسَه واقفًا وسط جنازة مَهيبة، يشاهد جثمانَ زوجته وهو يتدلّى إلى القبر.

على الرّغم من أنّه يرى ذلك بعينِ اليقين، إلّا أنّه كان يرتّب الأحداث التي عاشها منذُ الصباح، حتّى يعودَ للبيت ويحكي لزوجته عن عجائبِ ذلك اليوم.

ثمّ يتردّد عقله بين الحقيقة، وما يرتّب له، فيتمنّى لو كان كلّ ما يراه كابوسًا، يودّ لو استيقظ منه ليحكيه لها وهُما يتناولان الفطور، لتقول له مقطبةً جبينها مُعاتبة: قلت لكَ كثيرًا لا تحكِ الأحلامَ السّيئة. ثمّ تهزّ رأسَها مستسلمة، وتردّد: اللّهم اجعله خيرًا.

البيتُ مزدحم بالمعزّين، يجلس شاحبًا صامتًا، يدور بعينيه في أرجاء البيت، يبحث عنها، ستخرج الآن من الغرفة، ولكنّ بابها مغلقٌ كباب زنزانةٍ محكوم على ساكنها بالمؤبّد، ربما تعدّ مشروبات ساخنة للضّيوف في المطبخ، وستُناديه ليساعدها في حمْل واجبِ الضّيافة، ولكنّ صوتها لم يتناهَ إليه بعد، يفكّر في التحرّك للمطبخ، ولكنّه يخشى ألّا يجدها.

أحاطَ بمراد أخلص أصدقائه، محمّد هجرس ومحمّد عفيفي ومحمّد الديب، حتّى صديقهم الخامس محمّد أشرف، المهاجر منذ سنواتٍ طويلة اتّصل به لمرّاتٍ كثيرةٍ ليواسيه.

سارَ بينهم في الجنازة كالميّت يتسند إليهم، يحيطُ بقلبه الذّهول والحزن والخوف، حتّى وصل إلى البيت، الذي امتلأ بالناس، ثمّ خلا إلّا منهم،

فقدْ سهروا معه لوقتٍ متأخّر، في محاولةٍ للتّخفيف عنه، فيبتسم تارة، ويصمتُ أخرى، وقد بدأ الخوفُ يتسلّل إلى قلبه مِن هبوب عاصفةٍ من الفراغ بدأت في الإحاطة به.

بعدَ أسبوع من رحيل زوجته، أصرّ على عودة ابنتيْه إلى حياتهما، على الرّغم من دفء وجودهما، وضجيج أحفاده المحبّب، وزيارة الأصدقاء الثّلاثة اليومية، إلّا أنّه لم يجدْ معهم أيّ سلوى أو تعويض عن غيابِ زوجته.

ثمّ خلا البيت، إلّا منه والصمت الذي أطبقَ على الأرجاء مبتسماً بأريحيّة، كأنّه كان تائهًا ويبحث عن مأوًى حتّى وجده.

اتّفق التوأمتان على استمرار الزيارة الأسبوعية المعتادة، والتي تجتمع فيها العائلة؛ لتعيدا تنظيفَ البيت وترتيبه، وإعداد الطّعام الأسبوعي، على أنّه كان يزورهما خلال الأسبوع بعض الزيارات الخاطفة.

يحاول مراد أنْ يتعايش مع واقع الوحدة الذي فرضَه القَدَر، يمارس عملَه المعتاد بديوان عام المحافظة، يمتلئ بوجود النّاس، وإنجاز مهامّه، ولكن يظلّ إحساس مؤلم يراود مشاعرَه من عودته إلى البيت الخالي.

يعود في الرابعة عصرًا ليستريح حتّى السّابعة، ثمّ يُهْرع إلى أصدقائه في مقهى عتيق بأحد الشوارع الهادئة بمصر الجديدة، فيسهرُ معهم، يتجاذبون أطرافَ الحديث، وهو يودّ لو امتدّت بهم السّهرة لأطول فترة ممكنة.

مسامرات رجال تجاوزوا الخمسين، لا تخلوا من الأحاديث عن النّساء بالتأكيد، ولكنّ معظمها يدور حول مشكلات الحياة وصعوبتها،

وتبدّل الأيام والأحوال، والحنين إلى الأزمان الجميلة التي عاشوها، والتّنهدات التي تريح الصّدور قليلًا، وحوارات تنضحُ بالحكمة، وسرد الذّكريات، والصّولات القديمة.

بعدَ وفاة زوجته، كان محلّ الاقتراب والاهتمام، ولكنْ لم تتبدّل الأحاديث كثيرًا، حتّى كسر محمد الديب هذا الاعتياد فجأة، حين قال لمراد ردًّا على أحاديثه عن الوحدة التي يعاني منها:

– ما رأيك لو تزوّجت؟

استدعتِ المفاجأة بعضَ الاندهاش، ثمّ حصّة لوم شديدة من محمد عفيفي، لا سيّما وأنّه لم يمرّ شهرٌ واحد على وفاة زوجته، ابتسم محمّد هجرس وهو يسحب نفسًا عميقًا من مبسم الشيشة، لينفث دخانًا كثيفًا في فضاء الجلسة، مترقّبًا ردّ فعل مراد، بينما يواصل عفيفي لومَه:

– ستظلّ هكذا طولَ عمرك مدبًّا، لا تعرف متى تلقي كلماتك، كلّ مايأتي على بالك تقوله هكذا دون تفكير!.

– ما قلتُه ليس حرامًا ولا عيبًا، وطبيعيّ أن نتحدّث عنه مع أعزّ أصدقائنا مراد.

– لا عيب ولا حرام، ولكنّ توقيته ليس مناسبًا.

التزم مراد الصّمتَ بوجه حياديّ، كأنّه يريد ولا يريد، وسكتَ الجميع في انتظار أيّ ردّ فعلٍ منه، قام فجأة، واستأذن في الانصراف، فيما أكمل عفيفي وصلةَ اللّوم.

فراشُها لم يبردْ بعد، مازال يشعرُ بدفئه، صوتُ أنفاسها المنتظمة وهي نائمة يصلُ إلى أذنيه كلّ ليلة، حتّى الكلمات غير المفهومة التي تنطقها أثناءَ نومها، تتردّد دائمًا في الليل، إحساسُه بحضورها مازال يطغى على غيابها، ولكنّ كلمات الديب جاءت كحجرٍ ضخم في مياه بدأت تستعدّ لركود طويل، حرك شيئًا في غرفةِ الاحتياجات، ثمّ مالبث أنِ استقرّ الحجر، وسكنت حوله المياه، عائدة لركودها مرّة أخرى.

ثمّ مرّت سنتان، ومازال يمارسُ نفس الطقوس اليوميّة، إلّا أنّ فراشها قد برد، وتمدّد الصمت الكئيب، واستولى الغيابُ على أرجاء البيت، واستضاف الوحدة أسوأ رفيقٍ في حياة الرجل.

استيقظَ ذات صباحٍ على حدثٍ جلل، لم يستطعْ أن يستوعبه، غير أنّ دهشته تحوّلت لابتسامٍ وهو غير مصدّق أنْ تراوده أحلام حسيّة تؤدّي به إلى الاحتلام الذي قفز بذهنِه إلى أيّام المراهقة، هل يمكن أن يحدث ذلك لرجلٍ تجاوز الخمسين؟!

ضحكَ هجرس على الجانب الآخر من الخطّ لحدّ القهقهة، مما جعله يشعر بالخجل والنّدم أنْ أسرّ له بذلك، ولكنْ ليس هناك سواه، فالرّجل طبيب؛ ويمكن أن يفسّر ذلك تفسيرًا علميًّا:

- نعم يا صديقي، يمكن أن يحدث ذلك لرجلٍ تخطّى التّسعين.

- وما معنى ذلك؟

– معناه أنّك رجلٌ شديد الوفاء لزوجتك، سنتان يا رجل حتّى ضجّ جسدك من هذه الرّهبنة التي ترغمُه على العيش فيها، حتّى أعلن اليوم تمرّده عليك.

– ما هذا الكلام يا هجرس!.

واصلَ صديقه الكلام متجاوزا سؤاله:

– ولوْ سكتّ على نفسك ستسبّب أذًى لجسدك من طول هذا الكبت.

مراد أعجبته اللّذة التي عاشها في منامه، وراح يستعيدُ تفاصيل الحلم الذي فجّر احتياجاته الإنسانية، ولكنّه لم يتذكّر سوى صورٍ لامرأة كان يضمّها بين ذراعيه، ويبادلها قُبُلات حارّة.

– وهل تعرف هذه المرأة؟

محمّد الديب كالعادة، يأتيه من حيث لا يحْتسب، سؤال مباغت، وعلى وجهه علاماتُ الخجل:

– نعم أعرفها، موظّفة معنا في العمل.

تناول عفيفي طرفَ الحديث:

– متزوّجة؟

– ولديْها أولاد كبار، فضلًا عن أنّها ستُحال إلى المعاش في خلال شهور قليلة، يعني أكبر منّي بسنوات، ولو كانت خالية ما فكّرت فيها.

سحبَ هجرس نفسًا من الشيشة بتلذّذ، مُبتسمًا، وقال:

– يبدو أنّها أوْلتك بعضَ الاهتمام، فوجد فيها عقلُك الباطن بعض التّسلية.

– نعم كان اهتمامها كبيرًا، كانت ترشّح لي عروسًا كلّ أسبوع تقريبًا، حتّى يئست منّي فتوقّفت منذ حوالي سنة، ولكنّها لا تتوقّف عن الاهتمام والسّؤال كأنّي ابنها أو أخوها الصغير.

قال الدّيب:

– أظنّ أنّه قد آن الأوان لنتحدّث في موضوع زواجك.

التفتَ عفيفي للديب وقد تجهّز لإلقاء اللّوم عليه، إلّا أنّ هجرس تدخل قائلًا:

– الدّيب لديه الحقّ الآن في فتح هذا الموضوع.

نظرَ الجميع إلى مراد، الذي يشعر أنّه مسجونٌ خلف ألف باب، صحيح أنّ ما حدث له الليلة حرك الحجرَ الرّاكد في مياه حياته، إلّا أنّه نفسيًّا غيرُ مؤهّلٍ لأنْ يحرّكه أكثر من ذلك، ولكن يبدو أنّ أصدقاءه الثّلاثة قد قرّروا تحريكَ هذا الحجر، ليمنحوا المياه فرصة للتدفّق مرّة أخرى.

قال هجرس:

– ما المانع أن تفكّر في هذا الأمر؟

– لا أستطيع.

– سنفكّر معك.

– صعبٌ على نفسي.

– تعالَ نطرح الموضوع للنقاش، ونأخذ وقتَنا، ثمّ خذْ قرارك، وسوف نحترمه.

سارَ مراد مسافة طويلة على قدميه، أغراه بذلك ليلُ الخريف، والهواء اللّطيف الطلق اللعوب، وخلوّ الطّريق تقريبًا من المارّة والسيارات، ومساحة كبيرة في رأسه من كلام أصدقائه تحتاج إلى ترتيب، وإعادة النّظر فيه.

لا يستطيع أنْ ينكر أنَّ حديثهم عن زواجه يحملُ كثيرًا من المنطق، حتّى هو لم يستطع الردّ عليه، أو يتجادل معهم كثيرًا، ولكنْ ليس كلّ منطقيٍّ يمكننا القيام به، الحلمُ الذي رآه في منامه كان ذروة احتياج بدأ يطارده منذ فترةٍ طويلة، وجاء بهذه الصّورة الحسية ليؤجّج كيانه إلى حدّ الطّلب الفعلي للزواج، صار يتذكّر تفاصيله، وصارت الدّغدغة التي يحدِثُها التّذكرُ لذيذةً ومحبّبة، هل يحتاج فعلًا إلى طبيب نفسي لإعادة تأهيله نفسيًّا للزّواج مرّة أخرى، وقبول امرأة جديدة لتعيش معه في هذه السّن؟ هكذا قال له الدّيب بطريقته الصادمة، والتي يقف لها عفيفي بالمرصاد ليردَعَه، يبتسم مراد ويقول في نفسه: ولكنّه لا يرتدع أبدًا.

صرخ فيه عفيفي:

– الرّجل عاقل ومتّزن، لا يحتاج لذلك لا سمحَ الله، وأجزم لو ذهبَ لطبيب نفسي لخرج من عنده مجنونًا.

أمّا هجرس، والذي كان سابحًا كعادته في دخّان شيشته بمزاج عال، يبتسم للحوار الدّائر حوله، ينظر وفي عينيه كلامٌ هو عصارةُ سنواتٍ خبرته بالنّساء، نظر عفيفي إليه، وقال:

– ستظلّ ساكتًا هكذا؟! ألا تدلي بدلْوِك أيّها الطبيب الألمعي؟

أخيرًا، وضع هجرس ليّ الشّيشة، وقال والدّخان يتلاعب بين شفتيه:

– مراد يحتاج لامرأة كالقطار، لا يقف أمامها شيء، امرأة تقول له بوضوح، أريدك، ساعتها سيستيقظُ كلّ شبابِ القلب فيه وعنفوانه وقوّته.

أحدثَ كلامُ هجرس الجريء والمفاجئ هزّة شوق ولّى وانطفأ في نفوسهم، وأمنيات قديمة عاشوها في أحلامهم، لا يشاهدوها إلّا في الأفلام السّينمائية، وسرى صوتُ تنهيدات عذبة، حتّى ضرب عفيفي كفًّا بكفّ متعجّبًا، وقال:

– هذه ليلة المجانين أقسمُ بالله.

ضحكَ مراد للمرّة الأولى في السّهرة، وقال لعفيفي:

– دعْنا نجنّ قليلًا، طبيب نفسي وامرأة لا نعرفها إلّا في أوهامنا، ولم نرها في الواقع، ثمّ ماذا؟!!

قال هجرس وقد ارتسمَ على وجهه الجدّية الكاملة:

– أنت تحتاج بالفعل لامرأةٍ مختلفة يا صديقي، امرأة مُبادرة، عاشقة، تحتويك، لا تتقدّم للزّواج منها، ولكنّها تخطفك، وتتزوّجك بالإكراه، امرأة تحتاجُ لرجل، ولكنّها تأخذ هذا الاحتياج بالعطاء.

قال الدّيب:

– فسّر لنا يا فيلسوف النّساء هذه المعادلة، كيف تأخذ هذا الاحتياج بالعطاء؟

– النّساء عادةً غيرُ مبادرات، ينتظرنَ أنْ يبدأ الرجال، بالتقرّب والتودّد، بالنظرة بالكلمة، حتّى أن بعضهنّ يستمتع بالمعاكسات، حتّى ولو كانت وقحة، أمّا أنْ تبادر هي بالتودّد لرجل؛ فهذا نادر، بل ويعتبره كثيرٌ من الرجال عيبًا لا يليق بها، ومراد يحتاج الآنَ إلى امرأة من هذا النوع، هي مَن سيؤهّله إلى استعادة رغبته الحقيقيّة في الحياة.

– هذا كلامٌ فارغ، لا توجد هذه الصّفات إلّا في نساء الليل.

وقفَ هجرس وهو يستعدّ للانصراف وقال:

– فكّر في كلامي يا مراد.

قال الدّيب:

– وأين سيجدها يا خبيرَ النّساء؟

أكمل عفيفي ساخرًا:

– يقوم بعمل إعلانٍ للزّواج، ويكتب فيه، مطلوب امرأة مبادرة، عاشقة، تخطفني، وتتزوّجني بالإكراه.

قال هجرس:

– تقول هذا بسخرية يا عفيفي، وأنت لا تعلم أنّها الفكرة التي تصلح مع مراد.

نظرَ الجميع باهتمام:

– الآن على مواقع التّواصل الاجتماعي، يمكنك البحث عن العروس بالمواصفات التي تريدها، وأنت جالسٌ في مكانك.

– هجرس فقدَ عقله، بعد هذا العمر تريدني أنْ أجلس أمام شاشة حاسوب لأبحث عن زوجة!

– العالم يتطوّر يا صديقي بأسرع مما تتصوّر، الملايين في العالم يتزوّجون بهذه الطريقة، ماذا عليك لو جرّبت؟ لن تأكلك الغولة، ولن تتوهَ وراء النّداهة، دع الأمرَ لي، جهّز لنا عشاء فاخرًا في شقتك، وجهاز كمبيوتر موصول بالعالم، وسهرة عامرة نقضيها معًا في البحث عن تلك المرأة.

خيّم الصّمت على الجميع، فقد بدتِ الفكرة مشوّقة، بل وحركت فضولهم نحْو الولوج لهذا العالم الخفي، المتلصّص على النساء.

سيدخل باسم مُستعار، ويضع مجموعةً من التفاصيل عنه، ستكون بالتّأكيد صادقة، ويجلس ليتلقى مجموعةً من طلبات التعارف المبدئي، والتي يمكن من خلالها أنْ يقع اختيارُه على واحدة، يريدها قويّة، حنونة، قادرة على احتوائه، وإيقاظ كلّ احتياجاته نحوها.

لا يعرف مراد لماذا بدا كلامُ هجرس منطقيًّا على الجنون الظّاهر فيه، وتردّد بداخله صداه، امرأة كالقطار، تقبلُ عليه بسرعة كبيرة، قد تكفيه مؤنةَ العقبة الكئود، وتفتح شهيّته للمودّة والرحمة مرّة أخرى، تحبّه، وتدور في فلكه، تمنحه الدّفء المفتقد، ولكن كيف يجد امرأةً بهذه الصفات؟

كان مراد يعبرُ الطّريق العريض الخالي، غارقًا في خيالات المرأة المقتحمة، إذ انْشقّ الأسفلت عن سيارة مقبلة عليه بسرعةٍ رهيبة، وصوت فرامل يصرخ بعنف، في محاولة لكبح جماحها، ونظرة ذعْر تطلّ من عيني فتاة على مقودِ السّيارة، تسمّر في مكانه، وشُلَّ عقله عن التّفكير بالتحرّك نحو أيّ اتّجاه،

وفي جزء من الثّانية، كانت السيارة في مواجهته تمامًا، ثمّ أحاط به ظلامٌ دامس، حتّى الأصوات الصارخة التي تجمّعت حوله، اختفتْ وتلاشت في ثوانٍ قليلة، خلف الغيبوبة التي غشيته.

***

جرّد الممرّضون مراد من ملابسه بمهارةٍ تناسب وضعَ مريض تسيطر عليه غيبوبة، مجهولةٌ تداعياتها، ونقلوه بسرعة إلى غرفة العناية المركزة، كان الأطباء يسابقون الزّمن للسيطرة على أيّ احتمالات خطرة، قد تظهر أمامَهم من خلال الأشعة أو التحاليل، ثمّ امتدّت عدّة خراطيم من الأجهزة إلى جسده، ما يمدّه بالأوكسجين، والمحاليل، وكذلك ما يسهّل مراقبة حالته الصّحية على مدار الساعة.

وقفتِ الفتاة مستندةً إلى الحائط بجوار ملابس مراد، وقد بدأت تفيق من الصّدمة، وكلّ جزء في جسدها يرتجفُ من الخوف والذهول، عيونها تدور في مقلتيْها بتوتّر، عقلُها مشلول التفكير، وفي غمرة الهدوء العام حولها رنّ هاتف مراد فجأة من بين طيّات ملابسه، فانتفضتْ ليزيد من توترها.

أمسكتْ بالهاتف بيدٍ مُضطربة، فوجدتْ على الشّاشة اسمَ لوز، تعجّبت قليلًا، ثمّ فتحت الخطّ، فجاءها صوتٌ ملهوف لامرأة:

– مرمر، أينَ أنتَ؟ أنتظر اتّصالك منذ أكثر من ساعتين، ونمت دونَ أن أشعر.

صمتٌ حائر بين الاثنتين، حتّى قطعته لوز مرّة أخرى بنداء:

– أبي.

انتبهتِ الفتاة على الجانب الآخر، وقالت دونَ أيّ تمهيد:

– الأستاذ مراد وقعَ له حادث، وهو الآن في المستشفى.

كانت صدمةُ الرّد كفيلةً بأن تصرخ لوز صرخةً مدوّية، وأخذت تتكلّم بكلام غير مفهوم، حتّى تناول رجلٌ سمّاعة الهاتف منها، ثمّ استفهمَ عن الأمر، وأخذ العنوان، وفي أقلّ من نصف ساعة، كانت لوز وسكّر وزوجاهما وأصدقاؤه الثّلاثة في المستشفى.

استقبلهم الطّبيب المناوب بوجهٍ يبدو عليه الاطمئنان، وقال:

– يبدو أنّ السيارة التي صدمت السيد مراد لم تكنْ مسرعة كثيرًا، أو أنّ المكابح قلّلت كثيرًا من سرعتها؛ لأنّ ما في جسده من أثر الاصطدام لا يتعدّى مجموعة من الرّضوض في ساقيه يمكن تجاوزُها بالمسكّنات أو العلاج الطبيعي إذا لزم الأمر.

هدأ الجميع قليلًا، فخفض الطبيب رأسَه للأرض، ثمّ قال:

– ولكنْ ليست هذه هي المشكلة.

انتبهوا بلهفة ممزوجة بخوفٍ شديد، وقبل أنْ يسأل أحد، بادرته الفتاةُ بطرح سؤال باللّغة الإنجليزية، فردّ عليها الطّبيب، فبدا على وجهها خيبةُ أمل، ثمّ ترجم للجميع ما قاله للفتاة:

– ظهورُ السّيارة دونَ سابق إنذارٍ في الطريق الخالي كان مفاجئًا لدرجةِ أن تسبّبت في صدمة عصبيّة، شُلّت معها مراكزُ التّفكير، ممّا أفقده القدرة على

اتّخاذ قرار بالتحرّك في أيّ اتّجاه بعيدًا عنها، أوقعتْه الصّدمة على رأسه، وحتّى هذه ليست بالخطيرة حسبَ التقارير التي أمامي، ولكنْ أغلبُ الظنّ أنّ الصّدمة العصبية أدخلته في غيبوبة، وسوف يفيقُ السيد مراد خلال ساعات أو أيام، ولكنْ هناك احتمالٌ أن يترك كلّ ذلك فقدانًا مؤقّتًا للذّاكرة.

التفّ الجميع حول الطبيب، وأمطروه بوابلٍ من الأسئلة وهو يجيبُ بتؤدة وصبر، ويحرص على طمأنتهم بينما تراجعت الفتاةُ إلى زاويةٍ قريبة شبه مظلمة، ووقفتْ ترقبهم في صمت، وقد غلبها الحزن والخوف، والبكاء.

مكثَ الابنتان والأصدقاءُ الثلاثة من اللّيل إلى طوال ساعات النّهار التّالي، وكذلك الفتاة، والتي كانت قريبةً منهم، تروح وتجيء مضطربةً قلقة كأنّها إحدى بناته، أو من أقرب المقرّبين إليه.

جاءَ خلال اليوم الكثيرُ من زملاء مراد في العمل، والذين علموا بالحادث؛ للاطمئنان عليه، ثمّ بدأ النهار في الانْسحاب، فجاءت الممرّضة معتذرةً للجميع بعدم الوقوف أكثرَ من ذلك بجوار غرفة العناية، وبدأوا في التجهّز للانصراف إلّا ابنتي مراد فقد أصرّتا على المكوث بجواره، فكرّرت الممرضة اعتذارها عن عدم تمكّنهما من ذلك، تدخّل عفيفي وهجرس والديب في محاولة لإقناعهما دون جدوى، كانت الفتاة ترقبُهُم من بعيد، ثمّ تحرّكت إليهم، ووجّهت حديثها للابنتين:

– أنا الطّبيبة مها، أخصائية العلاج الطبيعي بالمستشفى هنا، واللّيلة مناوبتي، فاطمئنّوا، سأكون بجواره، ويمكنكم أخذُ رقم هاتفي للاتّصال بي في أيّ وقت.

اقتنعت الابنتان بصعوبةِ بترك والدهما، ومَضَيا والحزنُ يكاد يقتلهما، ثمّ حلّ السّكون الحزين العام بالمشفى، وخلا كلُّ بآلامه، وتأوّهاته، وتنْهيداته، بينما تسلّلت مها إلى غرفة مراد، ووقفت بجوار سريره، تتطلّع إلى وجهه الصّامت، وراحت تتأمّله بعقل لا يفكّر في شيء محدّد، غير أنها ودّت في تلك اللحظة أنْ تميل إليه فتقبّل جبينه، وتمسح رأسَه، ولكنّها قالت بصوتٍ خافت ممزوج بالبكاء:

– أعتذرُ لك بشدّة، لم أكن أقصدُ أنْ أصدمك، كان الطريق خاليًا، لم أتوقّع أن أجد عابرًا في هذا الوقت، ولكنّه حظّي التّعِس، لم ينقذني سوى سيارة الإسعاف التي تتبع المستشفى والتي ساقها القدرُ إليّ لتحملَك بسرعة إلى هنا، في الحقيقة أنا مضطربة، ولا أدري ماذا عليّ أن أفعل، هل أسلّم نفسي للشّرطة؟ أم أنتظر، أرجوك، قاومْ من أجل بناتك وأحفادك، وحياتك كلّها، وكذلك مستقبلي الذي أصبح في مهبّ الرّيح، لن أسامحَ نفسي لو حدث لك مكروهٌ لا قدّر الله.

ثمّ استندت مها إلى كرسي بجواره، وتركت لدموعها أن تتدفّق كما تشاء لعلّها ترتاح قليلًا.

مرّت سحابة النّهار، ولم يجدّ جديدٌ سوى امتلائها بالكثير من زملاء العمل، وأصدقائه الثلاثة، وكذلك ابنتيه، واتّصال جاء من سكرتير المحافظ للاطّلاع والاطمئنان على حالته الصّحية، وقد اعتذرت المستشفى عن استقبال الزّائرين حول غرفة العناية، واضطرّ الجميع إلى الانصراف، بينما استقبلت مها ابنتي مراد في مكتبها بصفةٍ استثنائيّة، وجلست معهما لبعض الوقت، تعرّفت عليهما،

وتبادلت معهما أحاديثَ حاولت أنْ ترخي على كلامها قدرًا من الاطمئنان، ولكنْ يبدو أنّ كلّ الأحاديث المطمئنة تذهبُ أدراج الرياح طالما مراد في غيبوبته.

جاء الطبيب، وقال إنّ بؤرة نزيف صغيرة في المخّ تمّ حصارها منذ الليلة الماضية، وأنّ حالته مستقرّة، ويُتوقّعً أنْ يفيق مراد بين لحظةٍ وأخرى، ثمّ أشار للطبيبة مها وأثنى عليها، مشيرا إلى أنّها ستتولى العلاج الطّبيعي للوالد في مرحلة لاحقة.

عادَ الليل والصّمت والأنينُ المخيّم على المشفى، بينما تسلّلت مها بلهفةٍ داخلية غامضة إلى غرفة العناية لتقف أمام مراد تتأمّل وجهه، بداخلها مشاعرُ غريبة تجذبها بقوّة نحوه، لا تستطيع تفسيرها، أغمضت عينيها وهي تتذكّر كيف أغرتها الطّريقُ الواسعة والخالية من السّيارات والمارّة لتجرّب أن تحطم نصائح والديْها المتكرّرة بالحرص على سرعةٍ معقولة أثناء قيادتها، فأخذها الغرور فخلعت حذاءها، وضغطت بقدمِها العارية الصّغيرة على دوّاسة البنزين بنزقِ فراشة تلهو حول النار، فأسرعت بها السيارة مستجيبة لتدفّق الوقود المفاجئ، وكلّما ازدادت السّرعة أغرتها نفسها بالمزيد، فأخذت تضحك بصوت عال منتشية، حتّى وصل مؤشّر السّرعة إلى المائة كيلو مترًا، وفي جزء من الثّانيةِ تهاوى الغرور، وتبدّدت الثقة، حين ظهرَ فجأة عابرٌ يقطع الطريق، شيء ما يشغلُه، حتّى أنّه لم يستمع إلى بوق السّيارة المتواصل، جفّ حلقُها، وتصاعدتْ نبضات قلبها، وضغطت بقوّة على مكابح السيارة، والتي صرختْ مدوّية من احتكاكها بالأسفلت، لا تنسى أبدًا وجهَ العابر، وتعبيراته المتفاجئة والمستسلمة لمصيره.

مدّت يدها إلى جبينه كأنّها تقيسُ حرارة طفلها بإحساس أمّ، مسحت على رأسه، ثمّ تجرّأت أكثر فحركتْ كفّها على وجهه، خدرٌ لذيذ سرى بكيانها، من ملمسِ شعَيْرات متناثرة على خدّيه، أغراها بالمزيد، مالتْ إليه هامسة:

– تدري أنّ اسمَك جميل، كوجهك الوسيم، هلّا استيقظت يا مراد، يا أجمل عجوزٍ في الوجود، وتدري أيضًا، بداخلي مشاعرُ متناقضة تجاهك، تتصارع بداخلي، إذا استيقظت بكامل ذاكرتك فلنْ ترى وجهي أبدًا، سأختفي حتّى لا تسلّمني للشّرطة، وهذا يعزّ عليّ كثيرًا، أمّا إذا استيقظتَ فاقدَ الذّاكرة فسأكون أوّلَ وجه يملأ ذاكرتك الجديدة، ولكنْ كم سيكون أمرًا محزنًا لبناتك وأصدقائك، ولعملك، وكلّ حياتك الماضية.

تنهّدت مها تنهيدةً طويلة، وهي تبتسم متعجّبة من بوْحها لرجلٍ لا تعرفه، ومِن جرأتها في الاقتراب منه ولمسِه كأنّه ملكها وحدها، وتتخيّل صديقاتها الذين يلقّبونها بالشّاويش مها، لو رأوها على تلك الحالة من الرّومانسية والهيام.

هل كان عليها أنْ تمرّ بهذا الموقف العصيب، حتّى تتفجّر تلك الينابيع، التي لم تشعر بها قبلًا، وتملأ كيانها، هل أغْراها بذلك قربُها من رجل، وهي لم تقترب هكذا قبل ذلك من غريب، أمْ وجهه الوسيم السّاكن في غيبوبته، أم الشّفقة؟

***

مساحةٌ بيضاء شاسعة لا شيء فيها لمعْلَم، أو طريق، تدور حدقتاه دورةً كاملة تحت جفنيه الثّقيلَيْن، بحثا بلا جدوى، ليس هناك شيء واضحٌ غير ذلك الصّوت الذي يناجيه منذُ عدّة ليال، لا يدري مَن هي، حتّى صوتها ليس مألوفًا له، ولكنّه يؤنسه ويطمئنُه، يأتيه كلّ عدّة ساعات ليناجيه بعذوبة ودفء.

مَن أنا؟ هل أنا مراد الذي تهمسُ باسمه حين تأتي؟ ربّما شخص آخر، ولكني أشعرُ بلمسة يديها الحانية تلمسُني وهي تهمس بذات الاسم.

لو أزيحتْ تلك المساحة البيضاء الجاثمة على بَصَري، لربّما عرفت مَن أنا.

وددتُ لو أمكنني الردّ عليها، أو سؤالها، بالتّأكيد هي تعرف أكثر.

جاء صوتُها قريبًا حتّى أنّه شعر بمسّ أنفاسها يسري بلطف: مراد، عليّ الليلة أن أعترفَ لك، أنا التي صدمتْك، ربّما لا أستطيع مواجهتك بذلك حين تستيقظ، أو ربّما أعترف، أحمل بين أضلعي ذنبًا كبيرًا، في أنْ يصل إنسانٌ لهذه الحالة بسببي، كنت أعرف أنّ الصّدمة بسيطة، ولكن وقوعُك على رأسِك ودخولُك في غيبوبة بدّل الأمر، وأصبحنا الآن في وضع حرج، ابنتاك تأتيان كلّ يوم في حالة انهيار كبير، وأصدقاؤك كذلك، وأصبح ضميري يؤنّبني طوال الوقت، وأوشكُ أنْ أذهب للشّرطة لأبلّغ عن نفسي.

عشرةُ أيّام كاملة مضتْ على مراد حتّى استطاع حملَ ثقل جفنيه ليفتحهما، كان أوّل مَن طالعه وجهُ امرأة، عيناها مملوءة باللّهفة، ثمّ تحوّلت لابتسامةٍ مشرقة، وهي تقول:

– حمدًا لله على سلامتك أستاذ مراد.

دارَ بعينيه للجانب الآخر ليجدَ رجلًا يرتدي زيًّا أبيضَ، وحول عنقه سمّاعة، يبدو أنّه الطبيب الذي مال إليه مبتسمًا وهو يضع جهازَ الضّغط في ذراعه، ثمّ أغمض عينيه لتسدل السّتارة البيضاء مرّة أخرى إلّا من وجْهِ مها، فقد عرفها مِن صوتها.

عادتْ بعد قليل ومعها ممرّضة، فعدّلت وضعَ السّرير حتّى يستطيع تناولَ مشروب، ثمّ قالت له:

– بعدَ قليل ستأتي ابنتاك، وأصدقاؤك الثّلاثة، كم يحبّك الجميع، فقد مكثوا أوقاتًا طويلة في انتظارك.

نظرَ إليها في حيرة، وبادلته حيرته بقدر كبير من الشّفقة، وأسرعت للطّبيب الكبير، الذي دخل إليه مبتسمًا مشجّعًا، ثمّ قال له:

– أستاذ مراد، هل تعرف مَن أنت؟ أو تتذكّر شيئًا من حياتك الماضية؟

لم يجبْه سوى بتلك النظرة الحزينة الزّائغة، وعلتْ عينيه غلالةٌ من الدّموع، فأمر له الطبيب بحقنة مهدّئة، وقال:

– اطمئنّ، مسألة وقتٍ وستعود ذاكرتُك مرّة أخرى.

قابلَ الطبيب الجميع بالخارج، وقد أخبرهم بأنّ مخاوفه قد تحقّقت، وأنّ مراد فقد الذّاكرة، مثل ذلك صدمةً كبيرة للجميع، فأجملَ كلامه في جُملٍ محدّدة، بأنّ هذا النوع من فقدان الذاكرة في الغالب يكون مؤقّتًا؛ فلا داعي لكلّ هذا الخوف، ثمّ أردف:

– سأدخل له الآن لأهيّئه لاستقبالكم، وأنتم تعامَلوا معه بلطف، حتّى يأنس لكم، سنحتاج مساعدتكم بصورةٍ كبيرة في استعادة ذاكرته.

بعينين تائهتين، نظرَ لابنتيه وأصدقائه طويلًا، بالتّأكيد يعرف هذه الوجوه، ويشعر بالأنس تجاهها، ولكنّه لا يستطيع أنْ يجمع تلك الصّور في جُمل مفيدة.

عادَ بعينيه إلى مها، كأنّه يستنجد بها، قائلًا لنفسه، الآن لا أعرف في الكون سوى هذه المرأة، ثمّ أغمض عينيْه مستسلمًا للمساحة البيضاء المطلّ منها وجهُها.

حلّ السكون أروقةَ المستشفى، سابقًا المساء بخطوات، حين دخلت إليه مها مُبتسمة، ثمّ سألته عن حاله، فلم يزدْ على أن تعلّقت عيناه بوجهها كأنّه يعاتبها على طول الغياب، فواصلت مبتسمة:

- الأشعّة التي أجريناها على ساقيك وركبتيك بعد الحادث جاءت مبشّرة والحمدُ لله، فلا كسور، ولكنْ أظنّ أنّها ستحتاج لعدّة جلسات من العلاج الطبيعي، والتي سأجريها أنا بالطبع، فذلك تخصّصي.

تراجعتْ خطوتين وقالت:

- إذا احتجت شيئًا يُمكنك الضغطُ على الجرس؛ ستأتيك الممرضة.

ثمّ استدارتْ منصرفةً، وعند البابِ جاءها صوتُه الواهن:

- مها..

التفتتْ مندهشة، فقد كانت أوّلَ كلمة ينطقها مراد منذُ لحظة إفاقته، لكنْ كيف عرف اسمَها؟ عادت إليه مسرعة، حرّك يده وأمسك بيدِها ضاغطًا

عليها كأنّه يستنجد بها، وعلى عينيه رجاء أنِ امكثي بجواري. نظرتْ إليه بقدْرٍ كبير من الشّفقة، ربّتت بيدِها الأخرى على يده المستنجدة بها، وقالت:

– سأجلسُ معك، اطْمئن.

جلستْ بجواره وهي تقول:

– اطمئنّ يا أستاذ مراد، حالتُك بسيطة، وسوف تتعافى قريبًا، هذه حالات نراها كثيرًا، تحتاج فقط لأنْ تكون هادئًا، وسوف يساعدك أولادُك وأصدقاؤك المقرّبون، سوف يحكون لك بعضَ الذّكريات القوية، والتي ستساعدك بالتأكيد على استعادة ذاكرتك.

كانت مها تواصل حديثها، بينما أغمضَ مراد عينيه مستسلمًا مؤتنسًا بصوتها:

– أستاذ مراد.

عادت تناديه بهمس، يبدو أنّه ذهب للنوم، تطلّعت إلى وجهه الهادئ بمكرٍ وقد تغيّرت نبرةُ صوتها:

– أجزم أنّك قد عشتَ قصة حبّ عنيفة، أو ربما قصص، مثل هذه الوسامة لا بدّ وأنّها عاشت أحداثًا عاطفية قويّة، وبالتأكيد أحداثًا سعيدة، وكذلك مؤلمة، هناك شيء لاحظته، هل أقوله؟

سكتتْ هنيهةً وواصلت:

– سأقوله، ربّما يساعدك، لاحظت أنّ زوجتَك غيرُ موجودةٍ مع ابنتيك، هل أنتما مُنْفصلان مثلًا؟ هل ماتت؟

فجأةً فتح مراد عينيه وضيّق حاجبيه، كأنّه يعتصر رأسَه ليتذكر شيئًا ما، وكأنّه قريب جدًّا، ولكنّه لا يستطيع أنْ يمسكه، توالتْ آلاف الصور على رأسه، تأتي وتمضي مسرعة، يحاول اللّحاق بها، أخذ صدره يعلو ويهبط، أسرعت مها إلى الطّبيب، والذي جاء ليحقنه بالمهدئ.

شغلَ مراد كلَّ تفكير مها تقريبًا، تقلّبت في فراشها كثيرًا متأرّقة به، حتّى جاء الصباح والتقتْ بابْنتيه، وعرفتْ منهما أنّ زوجته ماتت منذُ سنتين، وأخبرتهما أنّها تحدّثت معه ليلةَ أمس في محاولة لأنْ تحثّه على التذكّر والكلام، حتّى جاء ذكرُ زوجته ففتحَ عينيه منتبهًا كأنّه رأى شيئًا، أو مرّتْ على ذاكرته صورة ما، واقترحت أنْ يجعلا من ذكرى أمّهما مدخلًا للتذكّر، وعليهما أنْ يرفُقا به، وألّا يبكيان أمامه، بل يتعاملا معه كما قبْل قبلِ الحادث.

قابلهما مراد بوجهٍ تعلوه الرّاحة لمرآهما، حتّى ليكاد يبتسم، أمطراه بالقُبُلات والأحضان، والمزاح المعتاد، وأخذا يتحدّثان معه في بعض الأمور والأحداث.

دخلَ أصدقاؤه الثّلاثة، وتحلّقوا حوله بودٍّ صادق، ثمّ دخلت مها بابتسامتها المشرقة، فهشّت عيناه لدخولها، ثمّ اقتربتْ منه، ومالتْ إليه:

- ما أخبارُ الوسيم؟

ثمّ التفتت إلى الجميع، وقالت مازحة:

- الأستاذ مراد في حالة صحيّة جيدة، ولكن يبدو أنّ عنده نقصٌ في هرمون الحنان والاهتمام، يريد أنْ يشبع من حنانكم واهتمامكم، ويمكنكم تعجيلُ ذلك بزيارةٍ واحدة من أحفاده.

التمعتْ عينا مراد بشكلٍ ملحوظ، والصّور تتوالى على عقله، ولا يستطيع تثبيت واحدة ليتأملها، لاحظً الجميعُ ذلك، فقالت سكر:

– لقد فكّرنا في ذلك، ولكن خفْنا على الأولاد أن يروْا جدّهم في تلك الحالة.

– بالعكس، في أحيانَ كثيرة تشجّع المفاجآت على العودة بالذاكرة.

***

غربتْ شمسُ هذا اليوم، ومها هذه اللّيلة في البيت، تجلس في غرفتها صامتة، تضمّ ركبتيها إلى صدرها، وترتكنُ بخدّها إليها، ترقب الحوارَ المحتدم بين عقلها وقلبها، لا تستطيع أن توقفه، تنتظر بصبرٍ أن يحلّ تعبُ الأيام الماضية على جسدِها فتنام مُرغمة، ولكن يبدو أنّ النّقّاش الصّاخب لن يجعلها تنام.

يغلبُها الشّوق للذّهاب إلى مراد، ويرتدي عقلها وجهَ أبيها في مواجهة قلبها النّزق، مازالت رنّةُ صوته المنكسرة تبعثرها، تجزم أنّ هذه كانت أجملَ مرّة في حياتها تسمع فيها اسمها على الإطلاق.

هذه مجرّد شفقةٍ على مريض، وأنت عادةً تهتمّين بكلّ المرضى الذين تتعاملين معهم، ثمّ إنّه الآن لا يقوم بعلاجٍ طبيعي حتّى تعتني به.

دعْك من هذا الكلام المرتّب، المنطق، وهل يقتل الحياة سوى هذه الطريقةِ في التّفكير، والتي تبني جدرًا خرساءَ حول الرّوح والمشاعر؟

مراد ينتظرك يا مها، ربّما تكونين السّبب المباشر في علاجه، ألا ترين أنّه لم ينادِ أحدًا سواك، ولم يمسك إلّا يدك، كأنّها يدُ غريق تعلّقت بك؟

هل وقعتِ في حبّ هذا العجوز؟

وقبْلَ أن يقول القلبُ كلمتَه كانت أمُّها تناديها، لتنتبه:

- افتحي هاتفك، يتّصلون بك من المستشفى.

قهقه القلبُ منتصرًا، بينما يواصل العقلُ ترديد نصائحه دون أنْ يسمعه أحد، أو يلتفتَ إليه حتى، فقد علا خفقانُ القلب بدويّ صاخب، وهو يطير بأجنحة الشّوق إلى المستشفى.

مها لا تفكّر، وجدتْ نفسها في حجرته، تقفُ بجواره تداري بابتسامةٍ لهفتَها لرؤيته، بينما فاجأها مراد:

- أين كنتِ؟

لمعتْ عيناها من المفاجأة الحلوة، وقالت:

- يبدو أنّني سأكون دواءك، أمس قلتَ كلمةً واحدة بعد صمتٍ طويل، وكانت اسمي، واليوم قلتَ كلمتيْن دفعة واحدة، والجميل أنّ كلامَ اليومين يشكّل جُملة مفيدة.. مها، أين كنت؟

اختلج وجهُ مراد بابتسامةٍ لطيفة، لذكاء تلك الفتاة التي أرسلها القدرُ له في موعدٍ مناسب جدًّا.

همّت بالتحرّك للخارج، فأمسك يدها، قائلًا بوَهَن:

- ابقي معي قليلًا.

ابتسمتْ له بودّ:

– سأعود إليك، لن أتأخّر، سأعدّ قهوة، أحتاج إليها الآن بشدّة.

مستسلمًا لزورقِ حديثها، أغمض عينيه، وهي تبحِرُ بعذوبةٍ في نهرٍ يغطّيه الضباب.

– هل نمت؟

بمزاحٍ طفولي:

– حسنًا، عليّ إذًا أنْ أذهب.

لم يتحرّك جفنُه، ولم يتعلّق بيدها، وهي كذلك لنْ تذهب، كيف تذهب، وما جاء بها إلّا هو!

رائحةُ القهوة قويّة وجذّابة، ترتشفها بعمق، كأنّما تروي روحها:

– مراد، أريد أنْ أقول لك شيئًا هامًّا، كنت أودُّ أن تكون مستيقظًا لتسمعه منّي، ولكني سأقوله على كلّ حال، كما تعوّدت أنْ أناجيكَ كلّ ليلة، يعجبني جدًّا أنْ أناديك باسمكَ مجرّدًا من الألقاب، ولا أعرفُ هل سيعجبك ذلك منّي لو فعلتها وأنتَ مستيقظ أم سيأخذُك السّن والمنصبُ والجاهُ إلى منطقة الغضب، تعرف؟ سأناديك به حتّى لو غضبت، وسأظلّ أكرّره وأعيدُه عليك حتّى تضحكَ من إصراري، وتتعوّد على ذلك منّي.

رشفةٌ عميقة من شفةِ فنجان القهوة، كأنّها تتناولُ مشروبًا يمنحها جرأةً أكثر:

– مراد، لا تتصوّر أنّني جريئةٌ لهذه الدرجة، ولكنّي مجنونة، إذا اشتعلتْ في رأسي فكرة لا أستطيع السّيطرة عليها، ولكنّي لست هكذا مع أيّ أحد،

صديقاتي يلقّبونني بالشّاويش مها؛ لأنْ لا أحدَ مِن كلّ مَن تقدّموا لي ملأ عيني، وإذا سألتني كيف يملأ عينك؟ أقول لك لا أعرف، ولكن إذا لم يجذبْني بهاءُ الرّجل مِن طلّته الأولى ويأخذُ وجداني، ويغرقني في طوفان جاذبيته، ورجولته؛ فلا ألتفتُ إليه.

رفعتْ فنجانَ القهوة لحدّ أنفها، واستنشقت رائحتَها القويّة، لتملأ صدرها، ثمّ منحت الفنجان قبلةً أخرى لتأخذ في مقابلها رشفةَ رواء:

– تصوّر يا مراد، أنّ الرجل الوحيد الذي ملأ عيني صدمتُه بسيارتي، وكدتُ أقتله، ويرقد أمامي الآنَ صامتًا، لا يُجيبني، ولا يبادل حديثي حتّى بإيماءةٍ خفيفةٍ، مجنونة؟ أعرف أنّك لو تسمعني ستقولُ ذلك عنّي، ولكنْ والله هذا شيءٌ لا أملكُه، ولا أستطيع تفسيرَه، وأعلم أنّه مستحيل على كلّ المفارق، فارق العمر، والمكانة الاجتماعية، ونظرة المجتمع، وإحساس ابنتيك، وأبي وأمي وإخوتي.

رفعتِ الفنجانَ لأعلى لتأخذ منه الرّشفة الأخيرة فيما انحدرتْ دمعةٌ على وجنتها، ولكنها أنزلته، ومسحتْها بقوّة وابتسمت، ومالت إليه، ووضعتْ يدها على رأسه فمسحتْ عليها، ومرّت بأصبعها على خدّه، وقالت مبتسمة:

– لديّ فرصة ذهبية لأنْ أخطفك، وأنت فاقدُ الذّاكرة، وأؤسّس لك ذاكرةً جديدة، ليس فيها إلّا أنا وأنت، مها ومراد، ما أجملَ أفكاري المجنونة لو أنّها تتحقّق، هذه فرصة لن تتكرّر في تاريخ الحبّ، أنْ تخطف المحبوبة حبيبَها، ستكون سابقةً ناريّة في كلّ قصص الغرام، وستسجّل باسمي أنا، مها.

وضعتْ يدها على فمِها، فصوتُ ضحكتها يكاد يتردّد في أرجاء الحجرة:

– يبدو أنّني شربتُ الليلة كثيرًا، آه يا قهوتي، هل أصابك العشقُ مثلي حتّى تدوّخيني هكذا؟

أسندتْ خدّها على يدها، وأغمضتْ عينيها قليلًا، تحاول لململةَ جنونها ببعض التعقّل، ثمّ فتحتهما، واقتربتْ منه وقالت:

– في الصّباح سيأتي التوأمان، وأصدقاؤك الثّلاثة المقربون، وستكون هناك مفاجأة حلوة معهم، أتمنّى أن تساعدك على التذكّر، إيّاك أن تتصوّر أنّ تذكّرك سيضايقني؟ فأنا لن أتركك حتّى لو تذكّرت العالم كلّه ونسيتني، سيأتي الجميع ومعهم أحفادُك الثلاثة.

انتفضَ فجأة جسدُ مراد، وفتح عينيه، والصّور تتسارع على عقله، يحاول أن يوقفها، ولا يستطيع، العرق يتصبّب من جبينه، أمسكتْ مها بيديه، وشدّت عليها، وقالت:

– مراد أنتَ قريبٌ جدًّا من التذكّر، عليك أنْ تهدأ، وسيأتيك كلّ ما تريد، لن أحقنَك بمهدئ، ولكنّي سأبقى بجانبك حتّى تتذكّر.

ظلّت بجواره لوقتٍ طويل من الليل، تربّت على يده، وتمسح العرقَ المتدفّق، وترقب درجة حرارته، وتتأمله بعاطفةٍ جيّاشة، تدمع لها عيناها، لم تفكّر في استدعاءِ الطّبيب، فقد منحها قربُها منه في تلك اللحظة سعادةً غامرة، ولم تشأ أنْ تقطعها، حتّى هدأت أنفاسُه وانتظمت.

جاءَ الصّباح محمّلًا بهداياه، وأقبل الأحفادُ الثلاثة ببراءتهم إلى جدّهم، الذي أجلسوه على كرسي، فتعلّقوا برقبته، وأمْطروه من غيْمات قُبُلاتهم الصّادقة، جاءت هذه المرّة الصّورُ على عقل مراد هادئةً مشبّعة بالتذكّر، فبادَلَهم القُبُلات والأحضان، وأخذ يداعبهم بأسمائهم، مالتْ إليه مها، وأمسكت ذراعه وقالتْ هامسة:

– أستاذ مراد، عليك أن تقفَ لاستقبال أحبابك.

نظرَ إليها برجاءٍ طفولي، فقالت بإصرار:

– ستقفُ يا سيّدي، تستطيعُ ذلك.

ثمّ جذبت ذراعَه لأعلى، فبادره عفيفي ليساعدَه من الذّراع الآخر، وحين وقفَ استعادت ذاكرتُه كلّ الصّور في مكانها الطبيعي، فضمّ التّوأمتيْن باكيًا، واحتفى به أصدقاؤه.

أمّا مها فقد وقفت تديرُ حركة مراد بوجهٍ جامد، وتساعده مرّةً أخرى على الجلوس، بينما دخل الطبيب مبتسمًا، وسلّم عليه بحفاوة:

– ألفُ حمدًا لله على سلامتك يا أستاذ مراد.

– سلّمك الله.

– كتبتُ لك خطابَ الخروج من المستشفى، وستظلّ في عهدة الدكتورة مها، لتتابع معها العلاج الطّبيعي.

فرحَ الجميع، بينما نظر مراد لمها نظرةَ امتنانٍ، فبادلته بابتسامةٍ خفيفة.

حلّ المساء في البيت دافئًا بتجمّع الأحباب حول مراد، الذي كان يبادل كلماتهم بابتسامة متردّدة، وكلماتٍ قليلة، وعقل مازال شاردًا، ثمّ ارتخى الهدوءُ في البيت حين انصرف أصدقاؤه، ونوم أحفاده، وبقيتِ ابنتاه، وقد عزمَتَا على البقاءِ معه حتّى يشعرا بتعافيه، خاصّة وأنّه رفض أن يذهبَ للإقامة في بيتِ إحداهما.

في حجرته، لم يستطعِ المهدّئ أن يمنعه من السّيطرة على دموعه، وهو يتحسّس موضع زوجته، التي تركتْ فراغًا هائلًا بغيابها، لم يتصوّر طوال حياته معها أن يحدث له كلّ ذلك بفقدها.

بكى بحُرقة، وهو يدفنُ وجهه في وسادته حتّى لا يسمع أنينَه أحد، نهرُ الدّموع الذي تدفق من عينيه جعلَ جسده يهدأ ويرتخي، إلى سنةٍ من النوم غلبته، ليجد راحةَ يدها تمرّ على رأسه وخدّه، وهي تناجيه: مراد، منذ أنْ تركت المستشفى، وأنا أريدُ الاتّصال بك، ويوقفني الحياءُ من ابنتيك، قوّة كبيرة تدفعني إليك، لا أعرف كيف أصدّها، تعرف؟ أنا لا أريد أنْ أوقفها، فقط ما يرعبني أنْ تتحطّم على صخرتك أنت. ثمّ مالت إليه، واقتربت بشفتيْها من جبينه، حتّى اقشعرّ جسده من لفح أنفاسها وهي تهمّ بتقْبيله، إذْ أيقظه رنّةُ هاتفه المحمول، فانتفض، وفتحَ عينيه، تنفّس قليلًا، جذب الهاتف، ليجدَها على الجانب الآخر تتّصل به.

– مساءُ الخير أستاذ مراد.

– مَن؟

– الطّبيبة مها.

– مساءُ النور.

قالتْ ضاحكة:

– هل كنتَ في ماراثون؟

– ماذا؟!

– صوتُ أنفاسك يأتيني كأنّك تركض، أو تصعدُ سلّمًا.

– أبدًا. كنت نائمًا، ويبدو أنّني كنتُ أحلم، ثمّ استيقظت فجأةً على صوت الهاتف.

توقّع أنْ تعتذر، ولكنّها واصلتْ ضحكها:

– بالتّأكيد كنت تحلم بي.

ابتسمَ مراد، وهو يقولُ في نفسه، ما هذه الفتاة؟! بينما تنحنحتْ قليلًا، وغيّرت الموضوع:

– كنتُ أمازحك يا سيّدي، هل يمكنني زيارتُك غدًا؟

– نعم تفضّلي، تشرّفي في أيّ وقت.

ثمّ نام بعدها نومًا عميقًا.

***

تحلّقت التّوأمان والصّحبة الجميلة ومها حول مراد، في سهرةٍ جميلة لم تطُل، ولكنّها جعلتْه في حالة مزاجيّة جيدة، شعر أنّ باقة الورد اللّطيفة التي أتت بها تتنفّس في وجهه بأريجٍ يغمره بالنّشوة.

مها تتحدّث مع الجميع، وتمزح أكثرَ ممّا تتكلّم، كطفلةٍ صغيرة محبوبة نزقة، وبينما كان غارقًا في تأمّل الورد قالت:

– لوْ كنت مكانك يا أستاذ مراد، وجاءني أحدٌ بصحبة وردٍ لعيادتي لأعدتُه له مرّة أخرى، الورد هذا موضةٌ قديمة.

ردّت ابنتُه سكر:

– لديك كلّ الحقّ يا مها.

فقالتْ لوز:

– وأنا أؤيّدك.

– ما يرضي المرأة الآنَ أبعدُ من الورد.

قال هجرس:

– بالتّأكيد ستحببن الهدايا الذّهبية.

ضحكتْ مها:

– ولا تلك يا سيّدي، وإنْ كنّا لا نرفضها بالطّبع، ولكنْ ما يُسعدنا كثيرًا كيسٌ كبير، ممتلئ عن آخره بالشّيكولاتة، والشّيبسي، وشيتوس، ومولتو، ومجموعة مصّاصات لولي بوب بطعوم مختلفة، ولا مانع من عبواتِ لوْز مملّح، وبندق محمّص، وفُسْتق بملح اللّيمون.

ضجّ الجميع بالضّحك، حتّى مراد لم يستطعْ أن يمنع نفسَه من الضحك، وقال:

– لماذا إذًا أتيتِ لي بالورد؟!

– لأنّك رجلٌ عجوز، وغير متحرّر، ويمكن أنْ تظنّ ذلك نوعًا من الاستهزاء.

مازالتْ هذه الفتاة تكرّر على مسامعي أنّني رجلٌ عجوزٌ. قالها في نفسه، وقد ضايقتْه الكلمة، بينما مازالت عينا مها معلّقة على وجهِ بنفس النّظرة المستفزّة، حتّى قطعتها، وقد غيّرت الموضوع بوجهٍ جادّ:

– علينا أنْ نبدأ فورًا في جلسات العلاج الطّبيعي من الغد، ولمدّة ثلاثة أيّام في الأسبوع، هل ستأتي إلى المستشفى، أم أمرّ عليك بسيارتي لأقلّك في طريقي؟

ردّ بسرعة وقد أفزعته فكرةُ ركوبه السّيارة مع تلك المجنونة:

– أشْكرك، سيمرّ عليّ عفيفي ليقلّني، لقد اتّفقنا على ذلك.

مارتْ نفسها بالغيظ، من فكرة أنْ يأتيها مراد بصحبة أحدٍ وهي تريد الانفراد به.

***

في الثّامنة صباحًا، كانت الدكتورة مها في استقبالهما، وقد تعمّدت أن تضرب له الموعدَ باكرًا، قبل أن يتزاحمَ المرضى عليها، وبسهولةٍ استطاعت الانفرادَ به، حين أشارت بيدٍ مُسيطرة لعفيفي بالجلوس في قاعةِ الانتظار، وبابتسامةٍ سعيدة استقبلت مراد، والذي طلبتْ منه خلعَ سُترته لتسهّل حركته أثناء جلسة العلاج.

تمدّد بجسده على السّرير، متأمّلًا الأجهزة حوله، ثمّ استقرّت عيناه إلى المساحة البيضاء في سقف الحجرة، وثبّت نظره عليها، ساكنًا، سابحًا في اللاشيء، حتّى أزاحت مها السّتارة لتطلّ على وجهه بابتسامةٍ صبيّة، مقتحمةً كعادتها:

- خائف؟

هزّ رأسه بالموافقة، اتّسعت ابتسامتها:

- الحقنةُ سهلة.

نظرَ إليها مشدوهًا وقال:

- حقنة!!؟

ضحكتْ هذه المرّة بصوتٍ عال، حتّى وضعت يدَها على فمها:

- تخافُ من الحقن؟

- جدًّا جدًّا جدًّا.

- تذكّرني برجاءِ الأطفال حين يشاهدون الإبرة، اطمئنّ، ليس لدينا حقنٌ في حالتك، ولكن مجموعة من التّعليمات يجب الالتزام بها حرفيًّا، إذا كنت تريدُ أن تطيب ركبتاك سريعًا يجبُ أن يخفّ وزنك قليلًا، وتلتزمَ بنظام غذائي، وكذلك يجبُ أنْ تمارس المشيَ يوميًّا، وإذا أردت من يشجّعك على ذلك فيُسْعدني أن أكون أنا ذلك الشّخص، ما رأيك؟

- سأفكّر في الأمر.

– فيمَ ستفكّر بالضبط؟ في المشي، أم في النّظام الغذائي، أم في الشّخص الذي يريد أن يرافقك كلّ صباح؟

ابتسم مراد:

– هل يمكن أن نبدأ الجلسة؟

كأنّها انتبهت:

– حالًا، هل يمكن أن تخلعَ البنطلون؟

– ماذا؟!

وبدون أنْ تجيب ناولته غطاءً خفيفًا، وخرجت وأسدَلَت السّتارة وراءها، وقالت:

– حين تكون مستعدًّا ناد علي.

أوصلتِ الأجهزة بركبتيه بيَدٍ ماهرة، تعرف ما تفعله، هذه المرّة لم تتحدّث، فقد شعرت أنّها تتكلّم كثيرًا، وربما يضايقه ذلك، ولمّا انتهت، قالت بوجهٍ متجهّم:

– الجلسة على الجهاز ستأخذُ نصفَ ساعة، سأجلس قليلًا بالخارج، لو احتجتَ إلى شيء يمكنك رنّ الجرس بجوارك.

وحينَ ولّته ظهرها للخروج، ناداها بنفس الصّوت الذي سمعته أوّل ما تكلّم:

– مها.

خفقَ قلبها لذلك اللّحن الطّروب، وعادت إليه مقتحمة:

– أستاذ مراد، قلْ لي.. كيف عرفتَ اسمي في المستشفى، وقد خرجت لتوّك من غيبوبةٍ فاقدًا فيها الذاكرة!؟

ابتسم مراد:

– كنت أسمعُك كلّ ليلة مِن بداية حديثك إلي.

وضعتْ مها يدَها على فمها لمنْعِ صرخةِ اندهاش:

– ماذا؟!!

– ما سمعْتِ.

– تُقسِم على ذلك؟

– مها حازم، طبيبة العلاج الطّبيعي، البنت المجنونة النّزقة، والتي أغراها خلوّ الطّريق من السّيارات، فضغطتْ بقوّة على دوّاسة الوقود لتندفع السّيارة بقوّة كبيرة، وفي فورة انتشائها بالسّرعة العالية فوجئتْ بشخص يعبرُ الطّريق فلم تتمكّن من السيطرة على السيارة فصدمته، ثمّ أنقذتها سيارة الإسْعاف، والتي كانت تمرّ قدرًا فحملته إلى المستشفى، وصارت ترعاه مِن أوّل لحظة، على أمل ألّا يموت، وتعيش بقيّة حياتها بضميرها المؤنّب، أو تسلّم نفسها للشّرطة، وتتلقّى عدّة سنوات بالسّجن نتيجة للقتل الخطأ، صحيح.. لم تقولي كيف نجوتِ من الشّرطة؟!

صعقَها الصّمت، وأحاط بلسانها فشلّه عن النّطق، فيما ابتسم:

– أكمل باقي أحاديث شهرزاد الليليّة؟

– لا، أرجوك.

مفاجأةُ مراد اليوم جعلتها تحاول أنْ تتذكّر كلّ أحاديثها له، وتعضّ علي شفتيها وهي تتذكّر كلمات الغزل التي كانت تبثّه كلّ ليلة، ولمسة يدِها لشعْره ووجْهه، وتقول لنفسها.. الشّاويش مها التي عاشت لا يجرؤ رجلٌ على الاقتراب منها، حين تتجرّأ وتفصح عمّا بداخلها يُفْتضح أمرُها هكذا!!

أغراها شعورُها بأنّها في مساحةٍ آمنة، الرجل يكبرُها بأكثر من ربع قرن، ويقبعُ في غيبوبة، ومتوقّع أن يكون فاقدًا للذّاكرة، شيء ما جذبها إليه، فتجرّأت على البوح فيما شعرت أنّها في أمان، جاءها من حيثُ لم تحتسب.

ولكنّه رجل يستحقّ، مهما كان ردُّ فعله.

مها، هل تقعينَ في حبّ رجلٍ يستحيل أن تقتربي منه؟!

هذا الذي أريده.

خفقَ قلبها من حديثِ نفسها، لا تدري خوفًا أم إصرارًا، ولكنّها تعلم جيدًا أنّها في تشوّفٍ ملهوف وتشوّق حارقٍ للجلسة القادمة.

ولَمَ تنتظرينَ كلّ هذا الوقت؟

نعم، لم كلّ هذا الانتظار؟

مدّت يدَها إلى هاتفها، وطلبت مراد.

- توقّعت أنّك ستختفين من حياتي.

- لم؟

- بعد كلّ جرائمك معي، تتّصلين هكذا بكلّ بساطة، وكأنّ شيئًا لم يكن، ألا تخشين أنْ أبلغ الشّرطة عنك؟

– افعلْ ما تريد، لا يهمّني، ثمّ إنّني لم أرتكب جرائمَ كما تقول، كان مجرّد حادث، وقد سهرت على رعايتك، ومازلت، ألَا يكفي ذلك للتكفير عن ذنبي!؟

– ما أعجبَك، تتعاملين هكذا مع الحياةِ بكلّ استهتار!

– أنتَ الذي تأخذها بجدٍّ زائد، قلت لك إنّني أكفّر عن ذنبي، ألا يكفي ذلك؟ ماذا تريدني أن أفعلَ أكثر من ذلك؟

– إذًا، استعدّي للمثول أمام الشّرطة.

– هل تظنّني أخاف منها، افعلْ ما تريد، سلام.

ثمّ أغلقت الهاتف، بينما زفر مراد بغيظ، وألقى هاتفه، فقد كان يريد ممازحتَها فقط، فانقلب الحديث للجدّ، لم تمرّ دقيقة حتّى عاودَ الهاتفُ الرنين، فأخذه ليجدَها تتّصل مرّة أخرى، فتح الخطّ:

– نعم؟

– أستاذ مراد، ألا تفكّر في الزّواج؟

أغلقَ الخطّ، وجعله على الوضع الصّامت، وذهب إلى سريره.

***

تنتظر مها على أحرّ من الجمر، تروح وتجيء، حتّى إذا سمعت وقْعَ أقدام في الخارج أسرعت إلى مكتبها وارتدتْ وجهَ اللامبالاة، وانشغلتْ في قراءةً تقرير أمامها.

فتحَ البابُ لتجد "مراد" مستندًا إلى ذراع عفيفي مقطّب الجبين، فيما أشرقَ وجهها بابتسامة رضا، وأخذتْ بيده، الذي حاول سحبَها، ولكنّها قبضت عليها بقوّة، وهي تقول:

- أهلًا وسهلًا أستاذ مراد.

على مدار السّاعة والنصف مدّة الجلسة، لم يتحدّث كثيرًا بغير إجابات مقتضبَة، على أسئلتها الخاصة بحالته الصّحية، مستمعًا لبعض الإرشادات التي كانت تقولها في محاولةٍ لجرّه للحديث.

وقبلَ نهاية الجلسة، وأثناء فكّ الأربطة سألته:

- أستاذ مراد، هل من الممكن أنْ نغلق كلّ ما حدث بيننا، ونفتح صفحةً جديدة، دون التطرّق لما يضايقك منّي؟

- سيكون بالتّأكيد أفضل، كذلك لا أريدُ أيّ اتّصالات على الهاتف.

وقفتْ محتدّة وقالت:

- لهذه الدّرجة لا تطيقُ سماع صوتي؟ ماذا حدث بيننا لكلّ هذا؟ أنا أخطات في حقّك، ومستعدّة لدفع ثمنِ هذا حتّى لو كانت مساءلة قانونية، و...

فوجئت بابتسامةٍ تعلو وجهَ مراد، وهو يهزّ رأسه متعجّبًا من هذه الثّرثارة التي لايستطيع أحد أن يوقفها، فقالت باعتراض:

- لا أجد في كلامي ما يُضْحك.

- على العكس كلامُك كلّه مثيرٌ للضحك، والشّفقة كذلك.

تلوّن وجهها بالمفاجأة، بينما واصل:

– تتعاملين معي كأنّك من أقرب الناس إلي، وتمنحين نفسك حقوقًا، وتنطلقين منها، وأنت مجرّد فتاةٍ صغيرة رعناء، كادتْ تتسبّب بموتي لوْلا لطف الله، ثمّ ساقك القدر لتكوني الطبيبة التي تعالجني، ومع ذلك لا تتوقّفين عن الثّرثرة فيما يخصّك وما لا يخصّك، ألا يدعو ذلك للضّحك؟!

عادتْ لفكّ الأربطة:

– أعتذرُ بشدّة يا أستاذ مراد، لن أتدخّل مرّة أخرى فيما لا يعْنيني، ولن أقتحمَ حياتك، ولو أحببتَ أنْ أدلّك على أخصائي علاج طبيعي بدلًا منّي، كلّ ما ضايقك منّي فعلتُه بحُسن نيّة، وللتّكفير عن ذنبي، ربّما جاء الأمر زائدًا عن حدّه.

– أظنّ ذلك سيكون أفضل.

تجاوزت كلامَه كأنّه لم يرد:

– لماذا لم تجبْ على سؤالي حين سألتُك هل تريد أن تتزوّج، وأسرعت بإغلاق الهاتف؟

– أظنّ أنّ ذلك شأنٌ خاصّ لا علاقة لك به.

– لا، ليس شأنًا خاصًّا، أنتَ مثل والدي، أو أخي الأكبر، أو أستاذي مثلًا، أو صديقي، وأنا أفضّل الأخيرة، ما رأيك؟

وقبلَ أن يجيب مراد أو يعترض، كانت مها تواصل:

– وكلّ هؤلاء من حقّهم عليّ أن أطمئنّ عليهم، فاخترْ لنفسك موضعًا لتجيب عن سؤالي، هل تريد أن تتزوّج؟

ارْتبك مراد قليلًا، ولم يستطعِ الإجابة، كأنّه يفكّر أيّ وضع يختار، ثمّ قال:

– اعْتبريني أيّ شيء مما ذكرتِ، ولكنّي لا أريد أن أجيب عليك.

– عرفتُ الإجابة إذًا، أنتَ تريد أن تتزوّج.

– نعمْ أريد أن أتزوّج، ولعلمك، أصدقائي يبحثون لي عنْ عروس، ما رأيُك يا ابنتي؟

ثمّ صرخ مراد فجأةً مِن شيء آلمه في ركبته، وقفتْ وهي تنظر إليه رافعةً حاجبها الأيمن، وهي تقول بجفاء:

– آسفة يا أستاذ مراد، آلمْتُك بالخطأ.

جاءَ عفيفي مسرعًا على صوتِ مراد، الذي فوجئ به يغالبُ ضحكه، فوقفَ مندهشًا متسائلًا، فقال وهو ينظرُ لمها:

– آلمتني بالخطأ.

***

سنحتِ الفرصة أخيرًا بعدَ ثلاثة أشهر تقريبًا من الحادث، ومرور الأزمة على خير، وفي منزل مراد، تحلق الأربعةُ حول شاشة الكمبيوتر بعد عشاءٍ فاخر، متطلّعين بترقّب لأحد مواقع الزّواج، والذي رشّحه لهم هجرس، وقد غرقوا في بحر الفُضول للولوج لهذا العالم الافتراضي.

الدّيب وعفيفي متزوّجان منذُ أكثر من ربع قرن، أمّا هجرس فقد صالَ وجالَ في النّساء في شبابه، حتّى استقرّ مع زوجته الحالية منذُ عشر سنوات.

اجتمع الثلاثةُ ليساعدوا رابعَهم الأرملَ في البحث عن عروس، ولكنْ شيءٌ ما يعبث بمراهقة يتيمةٍ في جوانح أربع رجالٍ تجاوزوا الخمسين، استمتاع خفيّ يغزوهم، وهُم يلجون إلى عالم النساء.

فتحَ هجرس بيدٍ خبيرة، موقع (نصفك الآخر للزّواج)، وهو يردّد أنّه من أشهر المواقع، استعرض شروطَ الموقع لقبول الدّخول فيه، ثمّ بدأ في تسجيل بيانات مراد، ولكنْ باسمٍ مُستعار، سأله أن يحدّد سنًّا للمرأة التي يريد أن يتزوّجها فقال عفيفي:

– مِن سنّ الخامسة والأربعين، أظنّ مناسب لسنّك.

هجرس:

– هذا سنّ كبير، مراد مازال بصحّته، ويحتاج لامرأةٍ شابّة يستعيد معها لياقتَه، أرى أن نبدأ من الثّلاثين.

ردّ الديب:

– ما هذا يا هجرس!؟ ستكون في سنّ ابنته.

سكتَ الجميع في انتظار رأي مراد، الذي علاه خجلٌ مُسْكت، فحسمَ هجرس الجدالَ وهو يكتب على الموقع:

– مِن سنّ الخامسة والثلاثين وحتّى الخامسة والخمسين.

انفتحتْ صفحة جديدة على جدولٍ طويل يحتوي على أسماء لنساءٍ وأعمارهنّ وبلادهن، فحرّك السّهم على اسم: هيفاء من لبنان، ثمّ نظر لوجْه مراد المنْدَهش، وقال:

– ما رأيك في تلك البداية الحلوة؟

فجاءه صوتٌ مبحوح، خارجٌ من بئر سحيقة، كان صوتَ عفيفي:

– افتح يا رجل.

(هيفاء، مطلقة، العمر ٤١ عامًا).

شهواتٌ دفينة حرّكت مشاعرهم، واهتزّت لها أجسادهم، كأنّ المطلقة العطشى ماثلةٌ لأعينهم في ليلة عرسِها، ثمّ راحوا يلتهمون السّطور.

(لونُ الشّعر أسود، ناعم طويل، خضراء العينين، الطّول ١٧٣ سم، والوزن ٧٠ كجم، بيضاء البشرة، ناعمة، غير مدخّنة، لديّ طفل).

خمدتِ الحماسةُ قليلًا، ومع ذلك دفعتْهم الرّغبةُ في التعرّف على المزيد.

(مواصفات نصفي الآخر: العمر من ٤٥ إلى ٥٥ عام، من أيّ جنسية عربيّة، مسلم، متعلم، ليس لي شروطٌ في المواصفات الجسدية سوى أن يكون رياضيًّا ومناسبًا لطولي).

تحسّس محمد الديب بطنَه المستديرة أمامه، وهمسَ لنفسه: يمكنني عملُ حميّة قاسية لعيونها الحلوة، وأستعيدُ شبابي في أحضانها.

(أبحثُ عن رجلٍ حنون، صادق، شرقيّ الطباع، أنيق، كريم، ذكي، مثقف، لا يقلّ عمره عن ٤٤ سنة، ناضج، واثق من نفسه، متواضع، جذّاب،

أبحث عن الذّوق والفنّ في الحوار، الرجل الذي يطربني بكلامِه، ويتقنُ العزف على أوتار قلبي، حنيني لحبيبٍ يملأ كياني، ويمزّق الوحدة القاتلة التي أعيش فيها).

(إنسانة بسيطة، نظيفه وأنيقة، حنونة، مزاجيّة، أكره الكذب والخيانة، لا أثقُ في الناس بسهولة، واقعية، أعطي بلا حدود لَمن أحبّ).

تراجعتِ الرّؤوس للخلف، وقال هجرس:

– إذا أردت أنْ يمنحك الموقعُ فرصةً للتّواصل معها بشكل مباشر؛ فيجبُ أن ترقّي حسابك بدفع مبلغٍ من المال.

تدخّل عفيفي:

– دعْهُ يشاهد عروضًا أخرى، ثمّ يقرّر.

أيّده مراد والدّيب، فانتقل إلى اسمٍ آخر.

(أحلام من المغرب).

(٣٥ عامًا، مسلمة، لونُ الشّعر بنيّ داكن، وكذلك عيناي، الطّول ١٥٥ سم، الوزن ٥٥ كجم، أجيد الفرنسية، خمرية، أعملُ في مجال الكمبيوتر، عزباء لم يسبق لي الزّواج).

ابتسم مراد وقال:

– ولكنْ هذه صغيرة عليّ.

– لا تخشَ منها، ستقودُها أنت بالسّرعة التي تريد، البكْرُ دائماً تتفتّح عيناها على أوّل رجل، فلا تعرفُ عن الزّواج إلّا ما تتذوّق منك.

(مواصفات نصفي الآخر: العمر من ٤٠ إلى ٥٠ عام، مسلم، أيّ جنسية عربية، ويفضل لو كان مصريًّا).

ابتسم الجميعُ لذكرِ العريس المصري، ثمّ قال مراد موجّهًا حديثه لهجرس:

– بصفتِك خبيرًا، لماذا برأيك تفضّل المصري؟

– هناك فكرة عامّة، وصورة ذهنية بسبب الأفلام السّينمائية، أنّه طيب، ودونجوان، ويغمر زوجته بالحنان والاهتمام.

– وهذا طبعًا من أبواب الوهْم والخيال.

ضحكوا ببلاهة، ثمّ عاودوا القراءة، وقد جذبتهُم أخيلةُ اللذّة.

(متناسب الطّول مع الوزن، مستوى تعليم عال، لا يدخّن، ملتزم بالصّلاة، أعزب أو مطلق أو أرمل، يفضَّل بدون أطفال).

(أتمنّى أن يكون زوجًا خلوقًا، هادئ الطباع، طيبَ القلب، يقدّر الحياة الزوجيّة، يقدّر المرأة، حنونًا، رومانسيًّا، عزيزَ النّفس، واقعيًّا، ذكيًّا، مرحًا، صبورًا، متعاونًا، طموحًا، مثقّفًا، متفهّمًا، متعلّمًا، قويّ الشّخصية، كريمًا، اجتماعيًّا، وسيمًا، أعزبَ، متواضعًا، سخيًّا، قصير الشّعر أو أصلع، مرتّبًا، عفيفًا، نشيطًا، وفيًّا، ودودًا، رحيمًا).

عادَ مراد بظهره مستندًا إلى الكرسي وقال:

– نسيت أنْ تكتب، سباك، نجار، كهربائي، طباخ، عامل نظافة، إلى آخر كلّ الوظائف الخدمية، دعْنا نرى ماذا ستكتبُ عن نفسها.

(امرأة وحيدة وسطَ ضجيج العالم، أهمّ ما يميّزني الإخلاص، بشوشة، أتحمّل المسئولية، أقدّس الحياة الزّوجية، ذاتُ خلقٍ ودين، على قدْرٍ من الجمال، محجّبة، ممشوقة القوام).

أغلقَ هجرس الصّفحة دونَ أن يسأل "مراد"، قال عفيفي:

- لديْك مصرية؟

- نعم، يوجد الكثير، هنا واحدة، اسمها زمردة.

تطلّع الجميع بقليلٍ من الشّغف:

(زمردة من مصر، مسلمة، عمري ٤١ عامًا، الطّول ١٦٠سم، الوزن ٨٠ كجم، لون الشّعر أسود، ولون العينين بني، خمرية، أعملُ مدرّسة، مطلّقة لعدم الإنجاب، مع ملاحظة أنّ العيب لم يكن منّي).

(مواصفات نصفي الآخر التي أتمنّاها: عمره ما بين ٤٥ و ٦٠ عامًا، لا أبحثُ عن مجرّد زوج، ولكني أريد عاشقًا، ما أجمل أنْ ترى وتعيش مع زمردة، أتعلم؟ إنْ تنفّست من رحيقها العطر، وملأت إحساسك ووجدانك بأرقّ معانيها، ووصلتَ لأنقى وأطهر ما فيها من مشاعر؛ لنْ تحلم لأنّ واقعك سيكون أحلى بكثيرٍ من كلّ خيال تتمنّاه).

(على قدْر من الجمال، محجّبة، وتديّني وسط، أحبّ الصّدق، ولا أغفر الكذبَ إطلاقًا، الصراحة والإخلاص والوفاءُ هم طريقي في الحياة، رقيقة، مرحة، مخلصة).

(مواصفات نصفي الآخر: زوجٌ حنون، يقدّر الحب، رومانسي، صالح، عزيز النّفس، غيور، يحب الشعر، محافظٌ على الصّلاة، يخاف الله، صبور، إنسان متّزن، متواضع، قنوع، وفيّ، شجاع، رحيم، ودود).

قال الديب:

- ذهبَ عقلُ النّساء، الهانم تريد رجلًا كاملَ الأوصاف!!

ردّ عفيفي:

- بل قلْ، هل هناك امرأة تجمع كلّ هذه المواصفات؟

مراد يشعر بالملل، وهجرس مازال يتابعُ جدول الأسماء:

- تعالوا نتّجه شرقًا، هناك امرأة خليجية.

تجمّعت الرؤوس مرّة أخرى إلى شاشة الحاسوب، وعادتْ لذّة المجهول تجذبهم.

(حفصة، مطلقة، ٣٦ عامًا، لون الشّعر أسود، ناعم طويل، عيوني واسعة سوداء، الطول ١٥٨ سم، الوزن ٤٩ كجم، جامعية، وأعمل في التّدريس، أعشق العطور، وأحبّ الأناقة والنظافة، وأهتمّ بتفاصيل جسدي، جذّابة، جميلة، مرهفة الحسّ، حنونة، أعشق الأطفال، وأتمنّى أن يرزقنى الله من فارس أحلامي بالبنين والبنات، متقلّبة المزاج، برغم أنّني أعيش وسط عائلتي إلّا أنّ برودة الوحدة تجتاح حياتي).

(مواصفات نصفي الآخر: في عمر يتراوح بين ٤٠ إلى ٥٥ عامًا، من أيّ دولة عربية دون الخليج، أعزب، أفضّله طويلًا، جسيماً، صاحب عمل حرّ، يحبّ السفر).

(الحبّ، هو كلّ أفكاري الأساسية ومحورُها، فهو نارٌ تضيء لنا الحياة، ماؤه يروينا، وزاده يكفينا، بحر من الوفاء والعطاء، يجب أنْ نعطيه التّقدير اللائق، الحبُّ أثمن وديعة، وأغلى ما في الحياة، لا يهمّني المال، أهمّ شيء لديّ الحبّ بكلّ متطلباته الجسدية والروحية).

(أهمّ سمات نصفي الآخر والتي أتمنّاها من الله، وأحلمُ بها: زوج خلوق، رومانسي وفي ذات الوقت جامح، يقدّرني، ويتفهّم احتياجاتي دونَ أن أتكلّم، طيّب القلب، له حضور طاغٍ على حياتي، يملؤني بالحبّ، والقرب والاهتمام).

حالةُ صمتٍ رانتْ على الجميع، وقد هبط الشّغفُ لمستوًى متدّنٍ، فيما حرّك هجرس المؤشر.

(إحسان من سوريا، العمر ٥٣ عامًا، لون الشعر بني فاتح، لون العينين بني، الطول ١٦٣ سم، الوزن ٥٥ كجم، مسلمة، أرملة، أعيش وحيدة بعد زواج أولادي).

(أتمنّى زوجًا في العمر من ٥٠ إلى ٦٠ عامًا، سوري أو مصري، يقبل العيش في سورية لأكون بالقرب من أولادي وأحفادي).

– ما حكاية المصري مع النّساء؟

– قلتُ لكم، هناك صورةٌ ذهنية إيجابيّة عن الزوج المصري.

قال مراد وهو يشيرُ إليهم:

– أقسمُ بالله أنتم مجموعةُ مقالب، ونماذجُ سيّئة السّمعة، مجرّد براميل طرشي، هذه أشكال رجال قلوبهم طيّبة، ويهتمّون بالمرأة!

تبادلوا الضّحكات وقال هجرس وهو يشيرُ إلى الديب وعفيفي:

– نعم، صدقَ قسمُك يا مراد في هذين الرّجُلين، أمّا أنا فلا، سأظلّ هكذا متألّقًا جذّابًا حتّى الموت.

تدخّل الديب:

– دعْكُم من هذا الكلام، وتابعوا السّورية، لقد عشنا حتّى رأينا عجائزَ يشتهينّ الزّواج.

– أنتَ لا تعرفُ النّساء، وتقيّمهن على ما تراه في بيتِك، هناك مَن تجاوزنَ السّتين، ولياقتهنّ الجنسيّة قويّة، واحتياجهنّ للرّجل طبيعي.

نظروا إليه بدهشةٍ مكذّبة، فقال:

– صدّقوني والله، تزوّجت إحدى المرّات بامرأةٍ أكبر منّي بعشرين عامًا، وكنت وقتَها في الخامسة والثّلاثين، كانت بين يديّ كأنها صبيّة في شرْخ شبابها، هل أحكي لكم تفاصيلَ أكثر؟!

قال عفيفي بصوتٍ مبحوح:

– احْكِ.

عاجلَهم مراد صارخًا:

– لا تحْكِ يا هجرس، لقد تحوّلنا لأربعةِ مراهقين هذه اللّيلة السّوداء، دعونا نكمل.

(أنا أرملة منذُ ١٦ عامًا، برغم تجاوزي الخمسين إلّا أنّ قلبي في الثلاثين، أحبّ الحياة وأعشقُها، وتأسرني الكلمةُ الطّيبة، أقدّر جدًّا الزّوج، وأضعُه على رأسي، متديّنة باعْتدال، صادقة في مشاعري لأبعَدِ درجة، محبوبة من أهلي وأصدقائي وجيراني، وأحبّ خدمةَ الآخرين ولوْ على حساب وقتي).

(قلبي ينبضُ بالحياة، يبحثُ عن زوج يُنسيني عناءَ سنين الوحدة، أتفرغّ له وحدَه لنكون زوجين عاشقين مدى الحياة).

(إنسانةٌ طيّبة لأبعد الحدود، على قدْرٍ كبير من الجَمال، جذّابة، خفيفة الدّم، طاهية ماهرة، عاطفية، محجّبة، أحبّ النظافةً، وفيّة، أتمنى الاستقرار).

(أبحث عن ابنِ حلال، جادّ، متديّن، يقدّر المرأة، قويّ الشخصية، تغلبُ عليه روح الشّباب والرغبة في الارْتشاف من نبْع الحياة العذْب الصّافي، كريم، طيّب القلب، بشوش، محافظ على الصلاة).

ضاقَ مراد ذرعًا، وقال:

– دعونا نكتفي، من الواضح أنّ هذه الطريقة لن تجْدي، هذا مجرّد سوق، المعروضات فيه كثيرة، ومتكرّرة ومُتشابهة، لا يفرقها إلّا جنسيّة المرأة.

سادَ بعضُ الصّمت وهُم يتناولون مشروبًا مع بعض الحلوى، حتّى قطعَه الديب:

– برأيي برغم اختراع أشكالٍ جديدة لطلبات الزواج، إلّا أنّ الطّرق التّقليدية مازالت راسخة، ونتائجُها مضمونةٌ إلى حدّ كبير.

قال عفيفي ساخرًا:

– ولكنّها لن توفّر لمراد المرأةَ القطار.

قال الدّيب:

– دعْكُم من ترّهات هجرس، المرأة إذا اقتنعتْ بالرّجل وأحبّته بصدق، فستتحوّل إلى صاروخ موجّه وليس مجرّد قطار.

لم يشأ هجرس أنْ يفوّت الفرصة:

– هل معنى ذلك أنّ زوجاتنا غير مُقتنعاتٍ بنا؟!

قال عفيفي ضاحكًا:

– بالتّأكيد، فلا شغفَ ولا اهتمام، ولا حتّى قطار قشّاش.

الدّيب:

– لديّ اقتراح، ما رأيكم أنْ يبحث كلّ واحدٍ منّا في محيطه، بالتّأكيد سنجد كثيرًا من النساء في حاجةٍ للزّواج، وبذلك نحصر الاختيار، بدلًا من البحث عبْر العالم كله.

في تلك اللحظة، وقبل أن يردّ أحدٌ على كلام عفيفي، رنّ هاتف مراد، فسحب الهاتف، ليجدَ اسمَ مها مطلًّا من الشّاشة، نظر الجميع إليه، فقال:

– هذه الطّبيبة مها.

عادوا إلى حديثهم، إلّا هجرس، والذي نظر إلى ساعته ليجد الوقت قد تجاوزَ منتصف الليل بقليل.

– ما الذي يجعلُك تسهر إلى هذا الوقتِ المتأخّر من الليل؟

نظرَ إلى أصدقائه فوجدَهم مشغولين بمتابعة الحديث، فقام مبتعدًا، وقد ضجرَ من سؤالها:

– ماذا تريدين يا مها؟

– لا شيء، شعرت أنّك سهران، والسّهر يضرّ بصحّتك، فقلت أتّصل بك لأذكّرك بأنْ تنام.

– ومَن أدراك بأنّني سهران؟!

– قلبي حدّثني بذلك.

– تمام، شكرًا، سأشربُ اللّبن الدافئ، وسأخلد إلى النّوم فورًا.

تجاوزتْ سخريته:

– أسمعُ أصواتًا حولك، مَن يجلس معك؟

قال بتنهّد:

– أصدقائي.

– أصدقاء السّوء إذًا، لو كنت زوجي لما سمحتُ لك أن ترافقهم لحظة، ولطردتهم من بيتي.

– الحمدُ لله أنّك لست زوجتي، لكنتُ طردتُكِ أنت.

ثمّ أغلق الهاتف، وجعله على الوضع الصّامت، وعاد وقد بدا عليه الضّيق، فقال له هجرس:

– خيرًا! ماذا تريد الطبيبة مها باتّصالها بعد منتصف الليل؟

قال، وقد بدا متردّدًا:

– أبدًا، تذكّرني بموعد الجلسة صباح الغد.

ابتسم هجرس، وعينُه على الهاتف الصّامت، وشاشته التي تضيء باتّصال مخنوق الصّوت، ثمّ وقف يستعدّ للانصراف مع الجميع:

– أحلامٌ سعيدة يا مراد.

***

ساعدته في ارتداء سترته كعادتها، بعد انتهاء جلسة العلاج الطبيعي، ثمّ استقبلته بوجْهها الصّبوح، المزين بشمسِ عينيها الدافئ، وهي تمسح بباطن يدِها سترته، وأخذت توصيه وصاياها المتكرّرة بعد كلّ جلسة علاج، وتتكلّم بسرعة:

– تأخذ الدّواء في مواعيده بانتظام، لا تتوقّف عن المشي على الأقلّ نصف ساعة يوميًّا، انتبه لوزنك لا يزيدُ عن ذلك، بالمناسبة.. يمكنني السّير معك كلّ صباح لو أحببت، منزلي قريب منك، يمكن أن نلتقي ونذهب للنّادي، ونمشي معًا لمدّة نصف ساعة أو ساعة كما تحب، أعرف أنّك تودّ أنْ تهرب منّي وتقول هذه الثّرثارة ستملأ رأسي بالصّداع، لن أتكلّم.. أعدُك، أرجوك، هل نلتقي غدًا؟

يهزّ رأسه مبتسمًا لها:

– كلّ جلسة تردّدين هذا الكلام، وأقول لك اطمئنّي البنات لا يتركنَني، لا تيأسينَ أبدًا؟!

– ما معنى كلمة يأس؟

قال وكأنّه يستثير غيظها:

– وتفعلين ذلك مع كلّ المرضى لديك؟

– لا طبعًا، لا أفعل ذلك سوى معك.

مسحَ على رأسه مبتسمًا، ومازال يستفزّها:

– ربّما على رأسي ريشة.

– لماذا لم تردّ على اتّصالاتي أمس بعد أن أغلقت الهاتف بوجهي؟

– قلتُ أعمل بوصيتك، فطردتُ أصدقاء السوء، وذهبت للنوم.

وقبلَ أن تجيب، دخل عفيفي وهو يتعجّل "مراد" للانصراف، ثمّ نظر إلى مها وقال:

– ادْعي لأبيك مراد، فقد عثرْنا له على عروس أخيرًا.

نزلَ كلام عفيفي على رأس مها كالصاعقة، وتغيّر لونها، والتفتتْ لمراد، وقبل أن تتفوّه بكلمةٍ، أمسك بيد صديقِه، ونظر له معاتبًا، ثمّ قال:

– هيّا يا عفيفي لقد تأخّرنا.

***

جلسَ مراد مسترخيًا على الكنبة الوثيرة ببيتِ هجرس، بينما الأخير يدير له شاشة الحاسوب:

– مروة، في الأربعين من عمرها، لم يسبق لها الزّواج.

تطلّع بوجهٍ متكاسلٍ، وسرعان ما تحوّل لدهشةٍ، وجهُها مستدير، مكتنز بمسحةِ جمال راقي، وسمرة لطيفة لامعة على خدّ الابتسامة المشرقة من عينيها السّوداوين المظلّلتيْن بحاجبين كثيفين بتناسق واثق، بريق إعجابٍ يتقافز من عيني مراد، ثمّ تنهّد وهزّ رأسه:

– أينَ كنت تخبئ هذا الجَمال يا هجرس؟ وجهُها لا يُعطيها أكثر من ثلاثين عامًا.

– أعجبتْك صورتها؟

– مبدئيًّا أعجبتني، مِن أين عرفتها؟

– هذه معلّمة ابنتي الخاصّة، تأتيها في البيت لتدرّس لها اللّغة الإنجليزية يومين في الأسبوع، ومن عائلةٍ ميسورة وعريقة.

كان مراد ينصت باهتمام، وعيناه مازالتا معلقتيْن على الصّورة يتأمّلها، بينما يبتسم هجرس وهو يواصل حديثه:

– وكنت أتسامر مع زوجتي منذ عدّة أيّامٍ حولك، فسمعتنا البنت فرشّحتها لك.

مازال مراد ينظر للصّورة مأخوذًا حتّى قال هجرس ممازحًا:

– لقد وقعْنا في الحبّ.

– يبدو ذلك، أين ممكن أنْ أراها؟

– ستأتي بعد قليل، ابنتي لديها حصّة اليوم، فرصة جيدة لتراها.

– لا يمكن يا هجرس، هذه مفاجأة لم أستعدّ لها.

– وكيف ستستعدّ لها؟ الأمر بسيط، نحن هنا، وهي ستجلس أمامنا هناك على طاولة السفرة، سيتيحُ لك ذلك رؤيتها عن قرب، فإذا ما أعجبتك يمكن لزوجتي أن تتواصلَ معها أو مع أمّها فهي صديقتُها.

تنهّد مستسلماً:

– ولكنْ هل توافق على الزّواج من أرملٍ تخطّى الخمسين؟!

– وما الذي يمنعها؟ لقد تخطّت الأربعين هي الأخرى ولم تتزوّج، ربما تكون فرصة كبيرة لها أن يتقدّم لها رجلٌ وهي في هذه السّن.

– أنت لا تعرف تفكيرَ النّساء، ربّما تكون في الثمانين ومازالت تفكّر وكأنّها مراهقة وفرص الحياة أمامَها.

– دعْنا نجرّب لن نخسر شيئًا.

دلفتْ مروة من الباب، مصطحبةً معها طلّةً مبهجةً تتراقصُ حولها ناثرةً أوراق زهورٍ معطّرة بالجاذبية، وابتسامة مرحة مُريحة، تطلّ من غمّازتي خدّها، وزّعتْها بالتّساوي على الجميع في غرفة الاستقبال، وهي تميلُ برأسها لتحيّي الجلوس، ثمّ انْتحت ببنتِ هجرس في السّفرة المقابلة لهم، وأخذت تتبادلُ أحاديث هامسةً معها، دون أنْ تغادر الابتسامة وجهَها، سحبت الكتابَ وفتحتْه، وبدأت في إعطائها الدرس.

مراد مُنبهرٌ متسائلٌ، ما هذا الغزو الذي اجْتاحه دون سابقِ إنْذار، ولا يستطيعُ مقاومته أو أنْ يحيد ببصرِه عنها.

غمزَه هجرس في كتفه، ومال إليه هامسًا بابتسامة:

- أرجوك لا تفْضَحنا.

كانتْ مروة تشرح الدرس وقد استبدلتِ ابتسامتها بوجهٍ جادٍّ، ولكنّه مريح، لم ترفع رأسها أبدًا ناحية الجلوس، ولا حتّى التفتتْ لشيء، فقد انشغلت تمامًا بعملها، وكأنّه لا أثرَ لأحدٍ حولها، قدّمت لها زوجة هجرس فنجانَ قهوة، أخذت منه رشفةً.. رشفتين، ومراد يحسدُ الفُنجان الموعودَ بقُبْلة.. قُبْلتين، ويشعر بتدفّق لذيذٍ في كيانه، وهرمون السّعادة يبتسم له.

قالتْ له زوجة هجرس بعد انصرافها:

- ما رأيُك يا أستاذ مراد؟ هل أفاتحها؟

- دعيني أصلّي صلاة الاستخارة.

- أعرفُ والدتها شخصيًّا، امرأة أصيلة، ومن عائلة، أرملة، توفّي زوجها وهي مازالت بعْدُ شابة، فتفرّغت لرعاية ولديْها؛ مروة ابنتها البكر، ورأفت يصغُرها تقريبًا بخمس سنواتٍ، ويعمل مهندسًا ومتزوّج، أرجو يا أستاذ مراد أن تختصرَ الوقت؛ فهذه فرصة طيّبة من وجهة نظري.

تدخّل هجرس:

- اصبري على الرّجل، الأمرُ ليس بهذه العجلة.

ابتسم لهما شاردًا، وقال:

- في الغدِ إنْ شاء الله سأخبركما بردّي.

***

ماذا دهاك يا مها؟

ما الذي يجعلك متعلّقة بمراد هكذا؟ لا أنتِ مناسبةٌ لعمره، ولا مِن مقامه، ولا أيّ ظرف من ظروف الحياة حولكما يسمحُ لك ولا لهُ بأنْ تنشأ بينكما أيّ علاقة عاطفية على الإطلاق، ما الذي يجذبك إليه بكلّ هذه القوّة وأنتِ تعلمين أنّها علاقة مستحيلة، ألا يكفي ذلك المنطق لأنْ تتصرّ في باتّزان ونُضج.

الحيرة بداخلها تلتهبُ بمعركة حامية الوطيس، بين عقلها وحكمتها القويّة المشهورة بها بين النّاس، وبين عاطفتها المتدفّقة كالفيضان.

عاشَ عقلها طوالَ عمرها كابنٍ وحيد نشأ بين أبويْه، يمرح بحريّة، لا ينافسه أحد، حتّى أطلقوا عليها الشّاويش مها من جمودِ مشاعرها، وتعاملها مع الرّجال بمساحةٍ محدودة من الاقتراب، حتّى اشتعلت عاطفتُها وتأجّجت، كطفلٍ ثانٍ جاء ليزاحم الأوّل، لم يخطرْ على بالها أنّ بداخلها كلّ هذا الوهج، لم تتخيّل أنْ يمرّ عابرٌ بجوارها، فيحدث بداخلها كلّ هذه الفوضى، ويفجر هذا البركان من الانجذاب والحبّ والحنين والاندفاع.

باتتْ مها في حيرةٍ كاملة لمدّة يومين كاملين، وكلامُ صديقه محمد عفيفي يرنّ في أذنيها (ادْعي لأبيك مراد؛ فقدْ عثرنا له على عروسٍ أخيرًا) هل كان يمزح؟ بالتّأكيد كان يفعل، ماذا لو كان هناك عروس بالفعل؟!

حاولتِ الاتّصال به عدّة مرّاتٍ، ولكنّه لا يردّ، تشعر مها كلّما تجاهلها أنّها بلا قيمةٍ، وترخص نفسها بالجري وراء رجلٍ يكبُرها بأكثر من ربع قرن، لا يأبه لها، ومع ذلك تنسى غضبَها منه بعد لحظاتٍ وتعاود الاتّصال به.

تمشّط شعرها الطويل بتؤدَة، تنظر إلى نضارةِ وجهها المستدير الأبيض، وشبابها المقْبِل على الحياة، عجيب هذا الزّمان، امرأة في زهوتها، تعترضُ طريقَ أرمل عجوزٍ يحتاج لزوجة، تلمحُ له لحدّ التّصريح أنها تحبّه وتتمنّاه، ولكنّه لا يلتفتُ إليها، هل الرّجل أعمى لهذه الدرجة؟ أم أنّه بالفعل غير مُنتبه؟ أم لا يريدها؟ هل لفارقِ السّن سببٌ في ذلك، تظنّ مها أنّه أكبر العوائق، ولكن كيف تقنعه.

تتقلّب في فراشها لليْلتين كاملتين، دون أن تجدَ إجابةً لكلّ الأسئلة التي تدور برأسها، تتطلّع لعينيها المحمرّتين بالبكاء، تنظرُ لساعة الحائط، الثّانية صباحًا، بالتّأكيد في فراشه الآن يغطّ في نومه، أو لعلّ شخيرَه يتردّد في أنحاء البيت، لماذا لا يشعرُ بي هذا الرجل؟

تترك مساحة أخيرًا لعقلها، ربّما لومه يجعلها تهدأ: ما شأْنُك أنت به؟ لماذا تقتحمين حياتَه هكذا؟ هو يراكِ كابْنتيه، ربّما لو كان سيئًا لاستغلّ الفرصة، ونال منك ما يريد وأنتِ بكلّ هذا الضّعف والاستسلام، ابتعدي عنه، دَعيه في حياته، ولا تقتحميها أكثرَ من ذلك، الرجلُ يبحث عن زوجة مناسبة لعمره وظروفِ حياته، ثمّ لو افترضنا أنّه أحبّك، وهو افتراضٌ مستحيل؛ هل سيوافق أبوك؟ تعرفين طبعًا ماذا ستفعل أمّك، أظنّها ستقتلك.. ظلّ عقلُها يتحدّث في واد، وهي في وادٍ آخر، فكلّما سكت ليلتقط أفكارَه رأت نفسها بين ذراعي مراد، وقُبْلة حميميّة تجمعهما، تشعلها برغبةٍ لذيذة، تغرقها ببحرٍ من الحبّ والهيام، حتّى غلبَها النعاس، وكلماتُ عقلها تطيش في الهواء.

***

لا يمكن أنْ يخطئ حدسُها فيه أبدًا، هذا الوجهُ المقبل عليها، غير ما رأت منه، أقبلَ عليها مبتهجًا، تحتلّ عينيْه سعادةٌ غيرُ خافية، نظرت إليه بعمقٍ حائر، ما أبهاك أيّها الرّجل، هل أشرقت الشّمس من عينيك هذا الصّباح، أم ألقتْ على ابتسامتك صفاءَ بكورها؟ تحيّة صباحيّة عذبة مكتنزة بودّ، لكنْ كلّ هذا الألق ليسَ لها، توشك أن تبكي، ولكنّها أدارت وجهَها وهي تردّ تحيّة الصباح، وتشغل نفسها بإعداد الجلسة.

ثمّ لماذا يأبه لوجهي، ولماذا يعيرُ التفاتي عنه أيّ اهتمام، ولماذا يفعل؟ هل يمرّ على خاطره تمزّقي الذي أعيشُ فيه؟ يا ليتك فقدتَ الذّاكرة للأبد، ونسجتَ ذاكرتَك الجديدة معي، هل نسيت أوّلَ اسمٍ نادى به فمُك حين عدتَ من غيبوبتك؟ مها، هل نسيت يدَك الممسكة بيديّ كيَدِ طفلٍ يستنجد بأمّه، كانت أجمل لمسةٍ شعرت بها في حياتي، فقد أودعت في يدكَ كلّ لهفة يمكن أن تحتاج إليها امرأة من رجُل، يا لقسوتك، نسيت كلّ ذلك، وتبحث عن امرأةٍ غيري لتتزوّجها! هل أصابك العمى إلى هذا الحدّ!

التفتت إليه، فوجدتْه ممدّدًا غارقًا في تأمّل سقف الحجرة، تظنّ أنْ لو تركته طوال الوقت فلنْ ينتبه، هل هي جميلةٌ إلى هذا الحدّ الذي يأخذ بلبّه هكذا؟ هل هي صغيرة، أم عجوز مثله، يا لخيبة الرجال حين يكبرونَ في السّن، تشيخ معهم أفكارُهم، ويفوتون الفرص الحلوة.

جلستْ مها بجواره بهدوءٍ متعمّد، ووضعتْ يدها على خدّها، منتظرة أن ينتبه لوجودها، تراودها أفكار شيطانيّة لقتْلِ هذا الرجل.

أخيرًا انتبه على تنْهيدتها، وقد زمّت شفتيها بغيظٍ مكتوم، لا يخلو من نبرةٍ غيرة خفيّة، وبمجرّد انتباهه شرعتْ في العمل، وهي تلفّ ركبتيه بإحكامٍ لبدء جلسة العلاج، ثمّ قالت بعد أنْ شعرت أنّها تماسكت:

– أظنّ أنّك بدأت في التحسّن بشكل ملحوظ.

– نعمْ بالفعل، أشعر بذلك، الحمدُ لله، الفضلُ لك.

– الفضلُ لله يا أستاذ مراد.

– نعم، ولا يمكن إنكارُ فضلك وتعبك معي، وشكرُ النّاس من شكر الله.

قالت بنبرةٍ معاتبة:

– كنت أكفّر عن ذنبي ليس إلّا.

لاحظَ مراد تجهّمها، وطريقتها المختلفة في الرّد:

– هذا أمرٌ تجاوزناه يا دكتورة مها، ولا داعي لذكْره مرّة أخرى، أراك متغيّرة هذا اليوم، هل حدث شيء؟

قالت بغضب:

– دكتورة مها؟

ابتسم محاولًا التّخفيف عنها:

– ألستِ طبيبتي؟

– لا لست طبيبتك، أنا طبيبةُ كلّ الناس إلّا أنت.

وقبلَ أن يجيب التفتت إليه، مقتربةً منه، ومالتْ إليه، وبعينين حائرتين:

– أنا أحبّك.

ابتسمَ لها بودٍّ أبويّ، وردّ بلا تكلف:

– تتصوّري يا مها، على كلّ ما فعلتيه بي أنا كذلك أحبّك، على الرغم من ثرثرتك التي لا تتوقف، والتي تشبه إلى حدٍّ كبير ثرثرةَ التّوأميْن لوز وسكّر، وتدخّلك السّافر في شئون حياتي، واتّصالاتك التي لا تتوقّف ولا تيأس، إلّا أنّني أجد كلّ ذلك لطيفًا منْك.

ضربتْ بقدمها في الأرض كالأطفال:

– أوف، أوف منك، أقول لك أنا أحبّك.

ضحكَ مراد ملء شدقيْه، وقال:

– نعم يا مها، سمعت، وقلت وأنا كذلك أحبّك.

نظرتْ له مها بغيظٍ مكتوم، وعيناها تطلق شررًا حارقًا، ثمّ تركته وانصرفت.

***

في شقة كلاسيكيّة فاخرة من بقايا أربعينيّات القرن الماضي، مطلّة على النيل بالدّقي، فتح له الباب شابّ ثلاثينيّ وسيم، كان رأفت، تبدو عليه آثارُ العزّ، استقبله بترحابٍ وأفسح له المجال للدخول.

جلسَ في غرفة الاستقبال المخمليّة، واضعًا علبة شيكولاتة فاخرة تليق بزيارته، يتأمّل ماحوله بعد أن استأذنه لبضع دقائق، الهدوء يلفّ المكان بدعةٍ مريحة، ثمّ أقبلتْ عليه والدة مروة وخلفها رأفت، وبابتسامةٍ ودودة مدّت يدَها، فوقف مصافحًا لها.

تجاوزت السّتين عامًا بسنوات قليلة، ولكنّها تبدو أصغرَ من ذلك بكثير، كانت ترتدي فستانًا أزرقَ محتشمًا، وتضعُ على رأسها غطاءً يحيط بوجهها، ردّدت مرحّبة عباراتٍ ودودة، ثمّ جلست على طرف الأريكة، تبادلا حديثًا قصيرًا، حتّى أقبلتْ مروة بنفس الابتسامة التي صافحته بها أوّل مرّة، وقف لها، وقد انحنى بجسدِه قليلًا محيّيًا طلّتَها المشرقة، شعرَ بارتجاف لذيذ يغزو جسدَه، وهي تبادله التحية وقد اتسعت ابتسامتُها قليلًا.

تحلّق الجميع في جلسةٍ صافية، وتبادلوا أحاديثَ دافئة، كأنّهم يعرفون بعضَهم منذ سنوات طويلة.

بعدَ قليل، ذهبت مروة وعادتْ بطاولةٍ صغيرة للشّاي، تقودها إلى منتصف الغرفة، ثمّ جثت بتلقائية على ركبتيْها كطفلةٍ صغيرة، ثمّ نظرت مبتسمةً لمراد وسألته:

- كمْ قطعة سكر للشاي؟

مسحورًا مأخوذًا بتلقائيّتها، أشار بأصبعيْه متداركًا صعوبة تحرّك لسانه للرّد، فهزّت رأسها متجاوبة، وأخذتْ تضع قطع السكّر في الفناجين، يرقب الشّاي وهو يتراقص بلونِه المبهج حين التقى بالسكر الذي ذوّبته حرارة اللقاء.

تحرّكت على ركبتيْها حتّى وصلت له وهي تناوله الشّاي مع بعض قطع البسكويت، قائلة بنغم:

– تفضّل.

أثناءَ تناول الشّاي أخذت الأمّ زمام الحديث فعرّفته بأولادها، رأفت ومروة، ثمّ اتّسعت في التعريف ببعض أفرادِ العائلة من ذوي المناصب في الدّولة، ومراد يهزّ رأسه مبتسماً في إيماءة تشرّف بمعرفتهم، ثمّ تناول الحديثَ عن نفسه:

– محمد مراد، مدير إدارة العلاقات العامّة بديوان عام المحافظة، تجاوزت الخمسين بسنتين، أرمل، توفّيت زوجتي منذ ثلاث سنوات، ولي بنتان توأمان، متزوجتان وأنا جدّ لثلاث أسباط، أسكن في مصرَ الجديدة، في شقّة أملكها، أقيمُ فيها وحدي على اتّساعها، ميسور الحال، مرتبي مع بعض مدّخراتي تكفلُ لي حياة كريمة، وأنا مستعدّ لكلّ طلباتكم.

ابتسمتِ الأمّ بودّ، وقالت:

– تشرّفنا كثيرًا بمعرفة حضرتك، والأمور كلّها سهلة ويسيرة، الآن يا أستاذ مراد لا نتحدّث في التّفاصيل كثيرًا، نحتاج فترةً للتعرّف عليك، وكذلك تحتاج أنت ومروة أن تلتقيا عدّة مرّات للتّقارب، ثمّ نأتي بعد ذلك للحديث عن التفاصيل.

حالةٌ من النّشاط السعيد دبّت في أوصاله منذ أنْ خرج من بيت مروة، جعلته يتنفّس بعمق، وطارت به الأحلامُ للنّجوم، كان أوّل ما فعله حين عادَ للبيت أن اتّصل بهجرس ليطمئنه ويشكره، ثمّ اتّصل بابنتيه التّوأميْن في مكالمةٍ جماعيّة ليحكي لهما ما جرى.

ثمّ استدارت بضعُ أيام، وقد مزّقه الشّوق، وحان موعد الزيارة حسب ما اتّفقوا جميعًا، الخامسة من مساء الجمعة.

استقبلته العائلة بترحابِها الكريم، ثمّ خرج رأفت متذرّعًا بموعد، وتلتْه الأمّ كأنّها تُجهز شيئًا للضيافة، ليختلي مراد ومروة ببعضهما البعض.

رفَّ بعض الصّمت حولهما، حتّى رفع مراد وجهَه لمروة فوجدها خافضة الرأس شاردة، وعلى وجهها سحابةُ شجن.

- كيف حالك آنسة مروة؟

قطعَ مراد الصّمت المتوتّر بينهما بسؤاله، فابتسمت:

- الحمدُ لله بخير.

- ماذا تحبّين أن تعرفي عني؟

صمتتْ قليلًا كأنّها تُفكّر، ثمّ قالت:

- احْكِ لي عن بناتك.

- ابنتاي توأمان متماثل، صعب أنْ تفرقيهما عن بعضهما البعض إلّا بالعِشْرة، تبلغان من العمر ستة وعشرين عامًا، متزوّجتان، ولي ثلاثة أحفاد، هذه عائلتي الحقيقيّة، يتمنّيان لي الخير دائمًا، وهما مَن شجّعاني على الزواج، ويتابعان أخباري ليلَ نهار، ونلتقي يوميًّا في المساء بمكالمة جماعيّة، ونتجمّع يوم الجمعة من الصّباح الباكر، فيهيّئان لي البيت، ويطبخان لي طعام الأسبوع، هذا اليوم تقريبًا أستعيد الحياة بكامل رونقها وجمالها بوجود أحفادي.

جوّ من الألفة غزا وجدانَ مروة، من حديثِ مراد عن حياته، فتشجّعت قائلة:

– هل وقعتَ في الحبّ قبل ذلك؟

بدا السّؤال مفاجئًا مُقتحمًا، فنظر إليها مندهشًا، ثمّ ابتسمَ بتردّد:

– هذا سؤال صعب.

– ألم تحبّ مثلًا ابنة الجيران، زميلتَك في الكلية، أو في العمل، ألم تحبّ زوجتك رحمها الله؟

– نعمْ أحببت ابنةَ الجيران، وكذلك زميلةً لي في الكلية، ولكنّي اعتبرتها بعد ذلك مشاعر عابرة، لأنّني نسيتها في زحام الحياة، أمّا زوجتي فقد أحببتُها، وكنت مرتبطًا بها كثيرًا.

– أحببتَها قبل الزّواج؟

نظرَ مراد للأفق كمَن يتذكّر شيئًا:

– رشّحتها لي أمّي، كانت ابنةَ إحدى صديقاتها، رأيتها وأعجبتُ بها وبأخلاقها، وبالتأكيد أحببتها فتزوّجتها.

– إذًا فقد وقعتَ في الحبّ، لماذا تقول إنّه سؤال صعب؟!

– أقولُ صعب لأنّ مشاعري تجاهَك مختلفةٌ تمامًا عن كلّ مشاعر الحبّ التي عشتها قبل ذلك.

– كيف؟!

– نفسُ أحاسيس الحبّ التي شعرت بها نحوَ بنت الجيران، هيَ هي نفسُ المشاعر ناحية زميلتي في الكليّة، ونفسها ما شعرتُ به تجاه زوجتي بعد ذلك، والذي تطور ونما مع عشرتنا، أمّا ما أشعر به منذُ رأيتك أمرٌ مختلف تمامًا، ولا أستطيع وصفَه، ولكنّه شيء مثل الاجتياح الذي جعلني في حالةٍ من العجز حتّى عن التّعبير عنه.

اتّسعت ابتسامتُها ليفترَ ثغرُها عن صفٍّ من اللؤلؤ الحرّ، يحارُ الجمال فيه، وقالت متعجبة:

– لهذه الدّرجة!؟

– بشكل لا يمكنُكِ تصوّره.

– تدري؟ لم يقلْ لي أحدٌ قبل ذلك ذلك، ولا بهذا التعبير التّلقائي الجميل.

– هل لي أنْ أسألك نفس السؤال؟

ابتسمت مروة ابتسامةً مُشرقة وهي تقوم لتعدّ واجب الضّيافة لمراد، وتركته في غمرةٍ من فرح تكاد تحوّله لطفلٍ صغير، يريد أن يقفز، يضحك ويبكي ولا يتوقّف عن الكلام، يمنّي نفسه بأن تقول له إنّها وقعت في هواه، وإنّه أجمل وأحبُّ رجلٍ رأته في حياتها.

في المساء، اتّصل بمروة عدّة مرّات، كان هاتفها مشغولًا لفترة طويلة، وحين جاءه صوتُ الجرس لم تردّ.

في الزيارة التّالية، كانت كثيرٌ من الأسئلة تلحّ على رأسه، فبعد أنِ اخْتليا بادرها:

– لي سؤالٌ يلحّ على رأسي يا مروة، هل لي أن أسألك؟

- بالتّأكيد.

- تكلّمت كثيرًا عن نفسي، تسمعينني ولا أسمعك، وكأنّك تتجنّبين الكلام عن نفسك، أرى في وسطِ ابتسامتك وتلقائيّتك سحابةَ حزنٍ لا تغادرها، وقد احْترتُ فيها كثيرًا.

- هل ترى أنّي أعاملك بشكل سيّئ؟

- على العكس، أنت تملئين حياتي بسعادةٍ كبيرة، وهذا ما يُحيرني، أشعر أنّك قريبة جدًّا، وفي نفس الوقت هناك شيء ما يُبعدك عنّي، حاولت تفسيره كثيرًا ولم أستطعِ الوصول إلّا إلى شيء واحد، ولا أعلم إنْ كان صحيحًا أم خاطئًا.

- ما هو؟

- أشعر أنّكِ تخافين من الانتقال للعيش معي، ومفارقة والدتك وأخيك.

- لا ليسَ هذا الأمر، والحقيقة أنّني أثقُ بك، وأشعر معك بقدرٍ كبير من الأمان افتقدته كثيرًا منذ وفاةِ أبي.

- لعلّك حسب كلامك لا تريْن فيّ زوجًا، ربما أبًا.

ابتسمت مروة:

- ليس لهذه الدّرجة، فالفارق بيننا ليس كبيرًا إلى هذا الحدّ.

- إذًا، هناك أمرٌ آخر، وأظنّ لي الحقّ في أن أعرفه.

شردتْ مروة بعينيها بعيدًا، وقد اكتست بغلالةٍ من الدّموع، وقد اختلجت شفتاها ثمّ نظرت للأرض، ومراد متلهّف لأيّ كلمة منها:

- هناك شخصٌ آخر.

حجرٌ ثقيل قد هوى على رأسِه فجأة، فغامت الدنيا، وغاب عن الوجود، فلم ينطقْ ببنت شفة، وخيّم صمتٌ كئيب على المجلسِ بينهما لوقتٍ لا يدري أحدُهما طالَ أم قصر، كأنّ الكلام مات، والأسئلة انتحرت، وكلّ أدوات الاستفهام مشنوقةٌ على جدار الألم.

سارَ كثيرًا في الشارع، بغيرِ هدًى ولا تفكير، كيف يحتملُ قلبه كلّ هذا الوجع المفاجئ، ألا تأتي مها مرّة أخرى بسيارتها المسْرعة لتدهسني وأموت، أو حتّى تذهب ذاكرتي بلا عودة، رنّ هاتفه كثيرًا، يعرف أنّ هجرس كان في انتظاره على المقهى مع باقي الأصدقاء، لكنّه الآن لا يريدُ أن يرى أو يتكلّم مع أحد، يريدُ فقط أن يختلي بنفسه حتّى آخر العمر، كتبَ رسالة لابنتيه يطمئنهما، حتّى لا تقوم الدنيا بعدم ردّه.

نام نومًا متقطّعًا، ثمّ استيقظ بعدَ منتصف الليل، وقد غادره النّوم، وترك له الحزن ليأتنس به حتّى الصّباح.

مدّ يده للهاتف ليجدَ اتّصالاتٍ كثيرةً من هجرس والتّوأميْن، واتّصالًا واحدًا من مروة، ووجد رسالة منها (مراد، سأنتظر اتّصالك، أريد أن أوضّح لك الأمر، حتّى لا تظنّ بي السوء) أغلق الرسالة وألقى بالهاتف على الفراش، وقام ليعدّ لنفسه فنجانًا من القهوة.

في موعدها اليومي الذي تتّصل فيه ولا يردّ في الغالب عليها، اتّصلت مها، لا يعرف لمَ فتح الهاتفَ لها فجاءه صوتها:

– ما هذا الرّضا يا سيدي؟

– ألا تكفّين عن ملاحقتي؟

– صوتك فيه نبرةٌ لا تعجبني، ما الذي يضايقك إلى هذا الحدّ؟

– لا شأن لك.

– كلّ الشّأن لي يا سيد مراد لو تدري، طالما فتحتَ الخطّ هذه الليلة فأنتَ تحتاج لي.

– أنتِ مسكينة يا ستّ مها، تظنين أنّك مركز الأرض.

أطلقت مها ضحكةً صاخبة اهتزّ لها مراد:

– نعمْ أنا كذلك، وستظلّ هكذا تائهًا حائرًا حتّى تدور في فلكي، والدّليلُ على ذلك ردّكُ عليّ اليوم، والثّاني أنّك تناديني بالسّت مها.

ابتسم مراد أخيرًا وهو يحادثُ نفسه: أين أذهبُ من تلك الفتاة؟!

تحسّن مزاجه العام، وسهر مُنتشيًا بصوت فيروز، حتّى غلبه النّوم مرّة أخرى، وفي الصباح قرّر أن يزور ابنتيه، ويلتقي بهجرس في المساء، ولكنّه لن يستطيع أنْ يبوح لأحدٍ بما حدث، سيطمئنُ الجميع فقط أن الأمورَ على ما يُرام، ولن يجهدَ رأسه في التّفكير كثيرًا، فستأتي النّهايات بحججها الطبيعية.

عدّة اتّصالات جاءته من مروة، ولكنّه لم يكنْ مهيّئًا نفسيًّا للرّد، حتّى جاءه اتّصالٌ من والدتها فاضطرب، هل حكتْ لها مروة ما حدث؟ في الأخير قرّر الرّد، فتح الخطّ متوجّسًا فجاءه صوتها هادئًا كعادتها يدعوه لزيارتهم غدًا؛

فخالُ مروة يريد أن يتعرّف عليه، لم يستطعْ أن يعتذر، فقدْ ألجمه الموقف، إذًا مروة لم تَحْكِ لأمّها على شيء، ماذا تريد منه إذًا؟

بعد اتّصال الأمّ، عادت الأسئلةُ إلى رأسه، لم يستطعْ مراد فكَّ طلاسم كلمات مروة، وأخذ يحدث نفسَه، هناك شخصٌ آخر، هل هو موجود، أم قصّة وانتهتْ وتريد أن تبرّئ ذمّتها أمامي؟ إن كان ذلك فهي امرأةٌ غبيّة، لا يليق بها أنْ تحكي مثل هذه القصص، وإنْ كان موجودًا ولها علاقة به فلمَ قبلتْ أن أدخلَ بيتهم من الأساس؟ توالتِ الأسئلة على رأسه كالطّيور الملتفّة حول طعامها تنقرُ فيه بشراهة.

أخذَه المسيرُ لمنزل هجرس، الذي استقبله بقلقٍ لمرأى وجههِ الحائر، جاءت زوجتُه لتحيّي مراد بكأس شاي فسألها:

– حين كلّمت مروة عنّي أوّل مرّة ماذا كان ردّ فعلها؟

– الحقيقة لم أكلّمها، اتّصلت بأمّها، والتي رحّبت باستقبالك في البيت، بدلًا من اللقاءات بالخارج، وحين سألتها عنْ رأي مروة فربّما لا توافق على هذه الطّريقة، فقالت دعي الأمرَ لي.

بدأتِ الطّلاسم تتفكّك قليلًا في عقل مراد، ومع ذلك استعدّ لتلبية الدعوة، بدافع مجهولٍ بداخله.

بعدَ انصراف الخال، خلا المكان لمراد ومروة، فقد استأذنتِ الأمّ، ووجهُها يبدو سعيدًا مرتاحًا، مسكينة هذه المرأة، يبدو أنّها لا تتوقّع أنّني سأخذها، وأنّ هذه بالتأكيد ستكون آخر زيارةٍ لي.

حاول الخالُ والأمّ التحدّث في بعض التفاصيل، ولكنّ مراد طلب إرجاء الكلام للزيارة القادمة، وهو يعلمُ أنّه لا زيارة قادمة.

استأذنت مروة، وغابتْ دقائق، ثمّ عادت مبتسمةً بفنجان قهوة:

- لاحظت أنّك لم تشرب من فنجان القهوة الأوّل إلّا رشفة واحدة، فقلت ربما لم يعجبك، فقلت أعدّه لك بيدي.

- شكرًا جزيلًا على ذوقك الراقي.

تناولَ رشفة من قهوتها، كم هي حلوة غنيّة، ثمّ وضع الفُنجان فقالت كأنّها ترطّب المجلس ببعض المزاح:

- لم تعجبك؟

- بالعكس، أعجبتني جدًّا، ولكنْ ربما رشفة واحدة تكفي.

لم تخفَ عليها الإشارةُ في كلامه فابتسمتْ لتداري بعضًا من الحزن، أمّا هو فلمْ يأبه لذلك، وسألها:

- هل الشّخص الآخر موجودٌ في حياتك؟ أم أنّه ذكرى حبّ قديم لا يمكنك نسيانها؟

- موجودٌ في حياتي.

تنهّد مراد ثمّ قال:

- متى علينا أنْ ننهي ذلك الأمر بيننا؟

– أعرف أنّك مصدوم فيّ.

– فعلًا صدمتي كانت كبيرةً لدرجة أنّني لم أتخيلها.

– هل تقبل اعتذاري؟

– لا داعي للاعتذار، كنت أتمنّى لو اختصرت عليّ الطريق قبل زيارتي لكم، فقد عشتُ مشاعر لم أعدْ أعلمُ هل كانت حبًّا فعلًا، أمْ ما عشته مع ابنة الجيران وزميلة الكلية وزوجتي قبل أن أتزوّجها هو الحبّ؟ اختلطت مشاعري لدرجة عجزتُ عن فكّ أجزائها لأرتاح.

سكتتْ مروة بوجه محايد، لا أثرَ فيه لمعنى، بينما استند مراد بظهره على الكرسي، وقال:

– هل من حقّي أنْ أسأل عن هذا الشّخص الآخر، الذي ظهر لي من حيث لا أدري ولا أحتسب؟

ردّت بسرعة وكأنّها تحمل عبئًا ثقيلًا، وتريد أن تزيحه:

– تعارفنا في الكلية، ونشأت بيننا قصّةُ حبّ كبيرة، كانت حديث الجامعة في وقتها، ثمّ سافر وهو في العام الدراسي الثّالث إلى أمريكا، ولم يعد حتّى الآن.

نظرَ إليها مراد بخليطٍ من التعجّب والدّهشة، فقد كانت مروة كالسّاحر، الذي يلقي بألغازه في سيرك كبير:

– تتحدّثين عن فترةٍ زمنية تتجاوز الخمس عشرة سنة، أليس كذلك؟

- نعمْ بالفعل، ومازلنا متواصلين منذُ ذلك الوقت، وقد تعاهدنا على الزّواج، وأنا مازلت بانتظاره، ولكنّني بدأت أفكّر جديًّا في السّفر له، فقد ضقت ذرعًا بحصار أمّي وخالي.

- مروة، اسمحي لي، أنا لا أستطيع استيعاب ما تقولينه.

أخرجت القطّةُ مخلبَها:

- بالتّأكيد لن تستوعبه؛ لأنّ الحبّ الذي أعيشه بيننا فوق تصوّرك.

- لم تفكّري ولا لحظة أنّ ما تعيشينه مجرّد وهمٍ وليس حبًّا؟

قالت بشيء من التحدّي والحدّة:

- الوهمُ هو ما عشتَه أنتَ طول حياتك المملّة الرّتيبة.

- حتّى ما عشتُه معك في الأيام القليلة الماضية؟

سكتتْ حائرة، فقال متجاوزًا الحديث عنه:

- الآن فهمتُ لماذا قبلتِ أنْ أدخل بيتكم، يتقدّم لك عريس، فتبدين أمامَ أهلك أنّك موافقة، ثمّ تخبريه سرًّا أنَّ بحياتك رجلًا آخر، فمن الطّبيعي أنّه سينسحب، فيأتي الرّفض منه لا منك، حيلة لطيفة، ولكنّها مؤلمةٌ جدًّا، بقدْرٍ يفوق خيالك.

تنهّد مراد بحرقة، وأكمل:

- لوْ كنت تعرفين الحبّ فعلًا؛ لما فعلت بي ذلك، ولكنتِ رحمْتِ حالي.

– أكرّر اعتذاري، فلم أتصوّر أنْ يحبّني أحد مثله.

– أظنّ أنّه لم يحبّك.

سكتتْ مروة، ربما لا تريد أنْ تؤلمه أكثر بردودها، وواصل مراد:

– احكي لي مزيدًا من التّفاصيل، فربّما ألتمس له عذرًا في تركك كلّ هذه السنوات.

– سافرَ كما قلت لك قبل الانتهاء من دراسته على أنْ يعود، ولكنّه التحق بعمل أعجبه، فقرّر أن يؤجّل دراسته، ثمّ واجه صعوباتٍ بعد ذلك لم تكنْ في حسبانه، فاضطرّ للانتظار حتّى تتحسن أحواله.

– وبالتّأكيد اضطرّ للزّواج من أمريكية حتّى يستطيع الحصول على إقامة.

خفضتْ مروة رأسها:

– نعم اضْطرّ لذلك.

– ومازالت على ذمته؟

– لا أعلم.

– وطوال الخمس عشرة سنة، لم تتحسّن ظروفه المادية؟!

– تحسّنت لبعض الوقت، ثمّ حدثت له إخفاقاتٌ كثيرة.

– أتمنّى أنْ تكوني صادقة مع نفسِك، وتجيبي على هذا السّؤال، هل تستحقّ قصّة حبّك كلّ هذا العناء؟ أنْ تتركي زهرة شبابك تمضي سريعًا إلى الذّبول في انتظار رجلٍ يعيش حياته بالطول والعرض؟!

مروة صامتة كأثرٍ تاريخيّ، فواصل مراد:

- لا أريد أنْ أتلقّى إجابة منك، فهذا شأنُك لا شأني، ولكن أتمنّى أن تتحرّري من عنادك مع نفسِك وأهلك، أتمنّى أن تنظري لنفسك لا للآخرين، تحدّثي معها كأنها ابنتك.

- تحاول التّأثير عليّ حتّى أتركه وتفوز بالزّواج منّي.

ضحكَ مراد لأوّل مرّةٍ بصوت عال، ضحكة تردّدت في البيت، لدرجةٍ أدهشت الأمَّ في مخدعها وأسكتتْ مروة، ثمّ وقف منتصبًا بجسده الممشوق، ووضعَ يده في جيبه، وقال:

- أعترفُ أنّني أحببتك منذُ اللّحظة الأولى التي رأيتك فيها، الآن تبخّر هذا الحبّ وبرد، وبصدق أشفقُ عليك كثيرًا، جميل أنّك ختمت لقاءنا بكلامك هذا، أستطيعُ أن أمضي مرتاحَ البال دون أثر لك في قلبي.

***

استرخى ممدّدًا جسدَه، ومها تخيطُ ركبته بالأجهزة بيدٍ خبيرة، ولكنْ عينُها عليه، لم يتكلّم كثيرًا منذ أن جاء، ترى ما يشغله؟

لا يتوقّف عقلها عنْ تفسير تصرّفاته وتحليلها، في المرّة الماضية كان شاردًا، ولكنه كان سعيدًا، أمّا اليوم فشرودُه عجيب، يبدو عليه الإحباط والهزيمة.

ابتسم مراد للاشيء، فانتهزت مها الفرصةَ وقالت:

- ألا يجبُ أن نبتسم معك؟ أم أنّ التّكشير لنا، والابتسام لغيرنا.

اتّسعت ابتسامته وهو يلتفتُ إليها:

- أنتِ بالذّات يا ستّ مها لكِ كلّ الابتسام.

- ما هذا الرّضا يا سيدي؟

- أنت خليطٌ عجيب من كلّ شيء لا أحبّه في المرأة.

- ماذا؟!

قهقَهَ مراد، وقال وهو يضغطُ على حروفه:

- أنت خليطٌ عجيب من كلّ شيء لا أحبّه في المرأة، ولكن لا أعلمُ لماذا أتقبّله منك!

- كيف ذلك؟

- تثرثرين بلا توقّف، تتدخّلين فيما لا يعْنيك، تتصرّفين معي كأنّك جزءٌ من عائلتي أو أقرب المقرّبين، لا تبالين للعواقب، تفرضينَ نفسك عليّ بلا تراجع.

أحنتْ مها رأسَها، وقد علاه الاحمرار:

- كلّ هذا يضايقك منّي؟

- لوْ حدث من إنسانٍ آخر ما احتملته، ولكن منْك يعجبني.

- ربّما أكون من أقرب المقرّبين لك وأنتَ لا تدري.

- ربّما.

– ألا تحكي لي ما يضايقك؟

– لا، إلّا هذا، أرجوك لا تتدخّلي أكثر من ذلك.

– ستتركُ عقلي إذًا للتفكير والتّحليل والتفسير، وهذا سيحوّلني لامرأةٍ مزعجة جدًّا، وستمطرك بوابلٍ من الأسئلة.

– وأنا لنْ أجيبك.

– لنْ تحتمل حصاري.

بدا على وجْه مراد بعضُ الضّيق، ولكنّ مها كالعادة تمضي في طريقها غير مُبالية:

– جئتني المرّة السابقة سعيدًا، تكاد عيناك أن تطيرُ مثل العصافير في الصباح، وهذه المرّة أتيت حزينًا بنفْس قوّة سعادتك، وبينهما غبْت، ولم تردّ على هواتفي إلّا مرّةً واحدة، كان صوتك فيها يشبه بالضّبط يومَ أفقت من غيبوبتك فاقدَ الذّاكرة، لا تعرف في الحياة سوى مها، داريت حزنك في السّخرية منّي وممازحتي، وأضفتَ لاسمي لفظة ستّ، فأصبحت الستّ مها، ولو أنك قلتها بسخرية، ولكنّني امتلأتُ بها، وأسعدتني منْك، تحسّن صوتك تدريجيًّا، حتّى سمعت ضحكتك صافية، واليوم جئتَ كفارس مهزوم، محبط، تعاندني، ولكنْ عيناك يا سيّدي تقول كلّ شيء.

كان مراد قد انْتهى من ارتداء معطفه، حين التفتَ إليها بوجه جامد:

– هل انتهيت؟

– لا، أريد أنْ أسمعك، احْكِ لي أرجوك.

– لماذا أحكي لك؟

– أشعرُ أنّك تحتاج لأحد يسمعك، ولا يجب أن تكتمَ في قلبك شيئًا، احْكِ لي، احْكِ لي.

لم يأبه مراد لرجائها، ومضى في طريقه منصرفًا مبتعدًا عنها، وفي سيارته.. سار في الشوارع المزدحمة، يقودها، ويداه وقدماه تعرف جيدًا ماذا تفعل دونَ أن يفكّر عقله، الذي ظلّ هناك، يستعيد المشهد بينه وبين مها، مِن أين جاءتني هذه الفتاة؟ ما الذي يجعلها تهتمّ بي كلّ هذا الاهتمام؟!

***

التقى بأصدقائه أخيرًا بعد عدّة أيام انقطع فيها عنهم، تواصل خلالَها هجرس من خلال زوجته بأمّ مروة والتي نقلت له أنّ مراد اتّصل بها واعْتذر عن مواصلة مشروع الزّواج من مروة، تعجّب هجرس من فعل مراد حتّى دون الرجوع إليه، وقد شكّ في الأمر، إذ أنّه من الطبيعي في حالة رفضه للزواج كان سيخبره، وانتظر بصبرٍ حتّى عاد إلى لقائهم في المقهى.

كان مراد رابطَ الجأش وهو يحدّثهم عن أسباب رفضه مواصلةَ خطوبته لمروة، حتّى قال هجرس:

– بالتّأكيد أنت حرّ في قراراتك، ولكن على الأقلّ كنت تأخذ رأينا.

– رأيت الأمرَ لا يستحقّ كثيرًا.

ثمّ التفت إلى عفيفي والدّيب مغيرًا الموضوع:

– هل لديكم عروسٌ جديدة؟ لقد فتحت شهيّتي للزّواج عن آخرها.

قال عفيفي:

– لديّ عروس متدينة، وبنت ناس مُحترمين، هل تحبّ أن تتعرف عليها؟

قال مراد بتنهيدةٍ طويلة:

– لا مانع مِن التعرّف عليها، ربّما يعوّضنا الله خيرًا بالمتديّنة.

كان هجرس يرقبه بإشفاق، وودّ لو عرف سرّ تركِه لمروة، وقد وقع في هواها من أوّل لحظة، ثمّ دخل الدّيب بالعرض كعادته، وقال:

– لا أظنّ من الملائم أن تخرجَ من بيتٍ لتدخل بيتًا آخر، يجب أن تمنحَ نفسك فرصة لتتهيّأ نفسيًّا لذلك.

ابتسمَ مراد وقال:

– ولِمَ عليّ أن أفعل ذلك، وقد تجوّلنا في ليلةٍ واحدة على أكثر من خمسين بيتٍ في موقع الزّواج، أم تريدني أنْ أراجع طبيبًا نفسيًّا حتّى تثبت لياقتي النّفسية للزّواج؟!

كان مراد يتكلّم بقدْرٍ من الأسى لم يخفَ عليهم، ثمّ التفت إلى عفيفي:

– هاتِ ما عندك يا صديقي.

هذه الليلة اتّصل بمها، لم يفكّر في ذلك، فعلَها بتلقائية، بالرغم أنّه لم يبادئها بالاتّصال ولا مرّة من يوم أنْ تعارفا، حين أضاءت الشاشة باسْمه،

لم تصدّق نفسها، وبدلًا من أنْ تفتح الخط أغلقته، ممّا سبّب له صدمة، وبمجرّد أنْ ألقى الهاتف إلى جواره إلّا وصرخَ مناديًا له، وقبل أن يجيب، جاءه صوتها:

– مراد؟

تعجّب من ندائها له بلا ألقاب، ويبدو أنّها تداركت الأمر:

– آسفة يا أستاذ مراد، اعْذرني، مفاجأة اتّصالك أربكتني.

– لا عليك يا مها، كلّ شيء منْك لطيف، لطيفٌ جدًّا، يمكنك مناداتي مراد.

أطربها ردّه، وقفز قلبُها كطائر حبيسٍ يودّ أن يطلق جناحيه في فضاء الحرية:

– شكرًا، شكرًا على مجاملتك الجميلة، لقد رفعتني لسابع سما.

– العفْو مها.

– ستحكي لي، صحّ؟

– ماذا؟!

– صوتك يقول لي إنّك ستفعل.

أغمضَ مراد عينيه، ثمّ قال مستسلمًا:

– ولكنْ بشرط...

– شروطُكَ كلّها مُجابة.

– ولوْ أنّي أشكّ في موافقتك السّريعة هذه، ولكن شرطي الوحيد أنْ تسمعيني فقط، أريد أن أتكلّم بدون أنْ تقاطعيني بالأسئلة.

– هل تحدّثت لأحدٍ من أصدقائك أم تخصّني وحدي بذلك؟

صرخَ مراد:

– يا ربّي، بدأنا؟!

– لا أرجوك، أعتذر، نسيتُ أنّه لا أسئلة، كنتُ فقط أريد أن أعرف خصوصيتي عندك، سأسكت نهائيًّا، تفضّل؛ أسمعك.

لا يدري مراد حتّى اللحظة لم اختار مها وحدَها دون الجميع، ندم أنْ تعجّل بالاتّصال بها، الآن لا يريد أنْ يخبرها بشيء، ولكنْ كيف ينجو من هذا الفخّ الذي نصبه لنفسه؟ قرّر أن يغيّر الموضوع:

– في الحقيقة ليس لديّ حكاية، ولكن لديّ سؤال ربما لا تستطيع الإجابة عليه سوى امرأة.

– ولوْ أنّي متأكدة أنّ هناك ما تودّ أن تقصه عليّ، ولكنّي لن أرغمك على شيء، يكفي أنّك اختصصتني وحدي بالاتّصال، و...

قاطعها مراد:

– مها، ألا تستطيعينَ إيقاف ماكينة الكلام القابعة في فمِك، والسيطرة عليها؟

– آسفة، لن أتكلّم، سأسمعك فقط.

ابتسمَ مراد لخضوعها الطّفولي:

– لديّ سؤال، ولا أريد كلامًا كثيرًا، أريدُ موجزًا، مختصَرًا، كافيًا وافيًا.

– تفضّل.

– هل يمكن للمرأة أنْ تضيّع سنين عمرها من أجل رجلٍ تحبّه، وتذوي زهرةَ شبابها في انتظاره؟

– المرأة المحبّةُ بصدق يمكنُ أن تضحى بعمرها كلّه من أجل رجل.

– هذا جنون، وضدّ سنن الحياة.

– أنتم معشرَ الرّجال لا تعرفون المرأة، إنّ الحبّ الذي تكنّه امرأةٌ صادقة لحبيبها يفوقُ بكثير مجموع حبّ الرّجال على مدار التاريخ لنسائهم.

– هذه مبالغةٌ كبيرة، وأنتنّ معشرَ النّساء تملْنَ إلى تهويل الأمور.

– لوْ وجدنا رجلًا يفهم لما بالغنا، ربّما نفعل ذلك ليتنبّه الغافلون عنّا.

– لا أستطيع استيعابَ أن تذوب زهرةٌ ريّانة وتذبُلَ لمجرّد ظنّها أنّ ماء حياتها بيدِ رجلٍ ما، ربما كان غافلًا عن معاناتها، أو نذلًا جبانًا لا يأبه لموتها من حياتها.

– الحبّ يا سيدي مغامرةٌ كبرى، وهذه متعتُه، وأجلّ أسراره، والذي لا يغامرُ في عاطفته، مثله مثل الموتى الذين تنقلهم الحياةُ من قبرٍ إلى قبر، حتّى يضمّهم قبرُ الموت.

– أنتِ صغيرة السّن، تأخذك العاطفة وتتدفّق بكِ في بحرٍ متلاطم سيُغرقك بالتّأكيد، وتتكلّمين برعونةِ حداثةِ سنّك.

– أوْ ربما أنتَ الذي انتقلت بكَ النّمطية من قبر الزّواج التقليدي إلى قبر الحياة الرتيبة، التي ليست فيها روحٌ ولا حياة، ولذلك تستنكرُ مشاعرَ الحبّ، التي تجعل أهلَها من الأحياء.

– ماذا لو كان الرّجلُ التي تحبّه هذه المرأة نذلًا جبانًا؟

– قلتُ لك إنّ الحبّ مغامرة كبرى، هل جرّبت أن تفعلها لمرّةٍ واحدة في حياتك؟ أنْ تترك لقلبك مساحةً من الحرية ليقع في الحبّ؟

ودّ لو قال لها إنّه وقع في حبّ مروة بالفعل، وتمنّى لو منحه القدر فرصةً لكي يحيا به، ولكنّها وبمكرِ امرأة لعبتْ به ودهسته، لأنّها تحبّ وغْدًا، فأوْهمت عائلتها بموافقتها وهي تنوي غيرَ ذلك، غير مبالية بالفوضى التي أحدثتها بداخله، حبّ!! وهل تعرف النّساء الحبّ؟ انتبه على صوتها:

– أستاذ مراد، لماذا سكتّ؟

أخذَ نفسًا عميقًا، يودّ لو خرج من هذا الجدل:

– أرى أنّك شخْصَنت النقاش.

– أنتَ الذي بدأت بالشّخصنة، حين اتّهمتني بحداثة سنّي، وسذاجة تفكيري، وهذا ظلم.

سكت، وأنفاسه تتردّد في سجن الحقيقة التي واجهته بها.

***

عطرٌ يفوح في الأجواء برائحة لطيفة من المسك، استقبل رئتيه حين دلفَ من باب الشّقة، فتخلل مسامّه كلَّها ليغمره شعورٌ بالرّاحة والسكينة.

جالَ ببصره في غرفة الصّالون، نظيفة، متوسّطة الحجم، يسودها جوٌّ من الترتيب المتقَن، حفنة من المصاحف مرصوصةٌ بعناية، على طاولةٍ صغيرة جانبية، وبجوارها حاملُ مصحف معدنيّ، كالذي يراه في المساجد في صلاة التراويح.

الرجلُ الذي فتح له بابَ البيتِ استقبله بحفاوةٍ طيبة، مصحوبة بابتسامة مرحّبة، ثمّ فتح له غرفة الاسْتقبال، وأجلسه ثمّ استأذنه لدقائق، جعلتْه يتنفّس بهدوء، ويعيد ترتيبَ أفكاره مرّة أخرى، ويستعيد كلامَ عفيفي في مواصفات العروس، ومدحه لها ولأهلها.

أصرّ أصدقاؤه على ألّا يتوقّف عندَ موضوع مروة، بل عليه أنْ يتجاوزه مهْما كانت أسباب رفضه التي لا يعرفونها، حاول كثيرًا أن يؤجّل الحديث في الزواج، ولكنّهم لم يتركوه حتّى وافق.

بكرٌ في الثّانية والأربعين، منتقبة، تختلفُ إلى المساجد بانتظام، لتعلّم العلوم الشرعية، تعمل موظفة في السجلّ المدني، والجُمل المعتادة، جميلة، بياض يميل للسّمار، أو سمراء تميل للبياض، ملفوفة القوام، لا يدري في الأصل ما معنى ملفوفة القوام، طيّبة، ولسانها ينقطُ بالعسل من طول الذّكر.

ذهبَ مرّتين لمكان عملها دونَ أن تعلم ليراها، ولكنّه لم يستطعْ أن يرى منها شيئًا، حتّى يداها كانتا مختبئتيْن داخل قفّاز أسود اللّون كسائر ملابسها.

في حجرةٍ مكتظّة بالموظفين، كان مكتبها قربَ الباب، تضع أمامها مصحفًا كبيرًا تقرأ فيه، ولا تفعل شيئًا سوى أن يأتي لها المواطنُ بورقة قد انتهى من إجراءاتها، ليضعَها أمامها، فتترك المصحف، وتمسك بقلم أحمر فتراجعها كلمةً كلمة باهتمام، وتسجّل رقمها في دفتر مع بعض البيانات، ثمّ تفتح درجًا صغيرًا لتخرج منه ثلاثةَ أختام تمسكها مرّة واحدة بين أصابعها لتضعهم بالتّرتيب على عدّة أماكن في الورقة، ثمّ تناولها للرّجل، وتعود لقراءتها في المصحف.

هيئتُها العامّة نظيفة، لا تتحدّث كثيرًا، لم يرَ منها إلّا عينيها السّوداوين، اللّتيْن كان يعلوهما قوّة وشجن، كانتا كفيلتان بأنْ تمنحاه موافقةً مبدئيّة لزيارة أهلها للتعرف عليها.

دخلَ الرّجلُ بصحبة زوجته، ليعيدَ عليه كلمات الترحيب، صافحته الأمّ بيدٍ مدّتها من تحت خمارها، جلسوا وقد تناثرت كلماتُ الترحيب للمرّة الثّالثة، ثمّ عرج الحديث المعتاد عن الأحوال والأخبار العامّة، وصعوبة الحياة، والأسعار المشتعلة، ثمّ استأذنت المرأةُ كأنّها تفسح مجالًا لكلمات بين الرّجلين، وبالفعل حين انصرفتِ التفتَ إليه الأب وتنحنحَ، وقال:

- أستاذ محمد، ما سمعنا عنك إلّا كلّ خير، وهذا ما جعلنا نستقبلك في بيتنا، الذي تشرف بقدومك إليه.

- شكرًا لذوقك، وأنا كذلك ما سمعت عنكم إلّا كلّ خير، ولذلك تشوّقت للتعرّف عليكم.

– كلامُك طيب، وهذا ما يشجّعني أنْ أقول لك، إنّ هذه اللقاءات هي للتعارف مبدئيًّا، والقلوب بين يدي الرحمن يقلّبها كيف يشاء، فإنْ حدث وفاق فبِهَا ونعمة، نتكلّم في التفاصيل المعتادة، وإنْ لم يحدث قبولٌ من أحد الطرفين للآخر؛ فالاعتذارُ واجب.

أراحَه كثيرًا كلامُ الوالد، فابتسم له وقال:

– حديث حضرتك عينُ العقل، ولا كلام يُقال بعده.

– ودودة ابنتي البكْر على أربعِ بنات، وكلهنّ متزوّجات، وأتمنى على الله أن يرزقها الله بابنِ حلالٍ طيّب، ويعوّضها الله بالخير، ويكون لها سكنًا.

– يفعلُ الله لنا الخيرَ إنْ شاء الله.

– ودودة في الثّامنة والثّلاثين من عمرها، متديّنة وتعرف ربّنا، وستكون خيرَ زوجة لأيّ رجل يفوز بها، صوّامة قوّامة، وستّ بيت ماهرة.

ابتسم مراد متفائلًا، وقد غمره شعورٌ عامّ بالرّضا.

بمجرّد انتهاء الكلام، دخلت الأمّ وخلفها ودودة، تتخبّط في مشيتها مرتبكة، ثمّ جلست قُبالته، ووجهها للأرض، ران الصّمت على الجميع لثوانٍ قطعتْه الأمّ بكلمات مرحّبة، ثمّ أشارت لابنتها:

– ودودة ابنتي وأعزّ بناتي، وأقربهنّ إلى قلبي، وأبرّ بنتٍ بوالديها.

تشجّع مراد فرفع عينيه إليها في تلك اللحظة التي رفعت عينيْها إليه، ليعلنَ القلبان عن مولدِ شرارة من القبول.

استأذنت الأمّ ثمّ عادت تحملُ صينية عليها فواكه مرصوصة بعنايةٍ دافئة، ثمّ أومأت لابنتها، فقامت وأمسكتْ طبقَ تقديم، ووضعت بعضَ الفاكهة، وقدّمته لأبيها، الذي أشار بيده ناحيةَ مراد وقال:

– الضّيف أوّلًا.

فقدّمته لمراد هامسة:

– تفضّل.

تنحنح الأبُ كأنّه يُريد أنْ يقول شيئًا، ثمّ قال:

– ما رأيك يا أستاذ مراد أنْ نترككما لتتعارفا أكثر، ربّما يكون هناك حرجٌ في وجودنا من التحدث لبعضكما البعض.

حرّكت ودودة رأسَها كأنّها تفاجأت، وقبل أنْ تعلّق قام الأب وأخذ بيدِ الأمّ، وحين جاورتها الأمّ، مالت إليها هامسة، ارْفعي نقابك، فأومأت أنْ حاضر، وانصرفا وقدْ تركا الباب مفتوحًا على مصراعيه.

فترةٌ من الصّمت المتحرّج، انتظر فيها مراد أن ترفعَ نقابها ليراها، ولكنّها ظلّت ساكنة، فقال كأنّما يُمهد للحديث:

– أهلًا وسهلًا أستاذة ودودة، تشرّفت بالتعرّف عليك.

– مرحبًا بك أستاذ محمد، الشّرف لنا.

– ماذا تحبّين أن تعرفي عني؟

تنحنحتْ قليلًا ثمّ قالت:

– أنا امرأةٌ متديّنة، وأحبّ أن يكون زوجي كذلك ليعينني على طاعة الله.

- نعم، هذا شيء رائع، ربّما لا أكون في تديّنك، ولكني أحبّ أن تكون زوجتي كذلك.

شجّعتها هذه المقدّمة، فتجرّأت أكثر:

- إذا سمحت لي ببعضِ الأسئلة أراها ضرورية في بداية تعارفنا.

- تحتَ أمرك، تفضّلي.

- هل تعرف ما هو الفرق بين الإله والرّب؟

رفعَ مراد حاجبيه منْدهشًا، ثمّ ابتسم ببلاهة:

- لم أفهمِ السّؤال!

- هذا سؤال في العقيدة يا أستاذ محمد.

- هل يمكنك التّوضيح أكثر؟

- التّوحيد يتضمّن ثلاثةَ أقسام: توحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات، وأنا أسألك عن الفرق بين مصطلحي الإله والرب.

بتردّد:

- الحقيقة لا أعرف الفرق، فضلًا عنْ أنّني أوّل مرّةٍ أسمع هذه المصطلحات.

- هذه من أسسِ العقيدة، والمسلم الذي لا يعرفها ينتفي منه صفةُ الإيمان.

- مرّة واحدة هكذا؟!!

- الدّين ليس فيه مزاحٌ يا سيدي.

- على الرّغم أنني لا أعرف موضوعَ أقسام العقيدة كما قلت، إلّا أنّني أعبد الله الواحد الأحد، ولا أشركُ به شيئًا، وأتوكّل عليه، ولا ألجأ إلّا إليه، ولا أتّخذ وسيطًا إليه.

- ذلك هو لبُّ العقيدة، ولكن يجب أن تتوسّع في معرفة تفاصيلها؛ لأنّ الجهل بالشيء قد يوقع الإنسانَ في خطأ كبيرٍ دون أن يدري.

هزّ كتفيه كأنّه غير مُقتنع بما تقوله، ولكنّها واصلت سيلَ الأسئلة:

- هل تعرف موعدَ صلاة الفجر يا أستاذ مراد؟

بدهشة:

- نعم...

- هل تعرف موعدَ صلاة الفجر؟!

ابتسم في محاولةٍ لتلطيف الجو، وقد شعر أنّه مُقبلٌ على امتحانٍ طويل في الدّين، فغيّر مجرى الحديث:

- هل يمكن أن ترفعي النّقاب لأراك، ثمّ نكمل باقي الأسئلة؟

- حين ننتهي من الأسئلة وأطمئنّ لدينك يمكنني رفع النقاب.

- نعمْ أعرفه، الآن يؤذّن في الخامسة وتسع دقائق تقريبًا.

– وهل تصلي الفجر في المسجد؟

– ليس دائمًا، ولكنّي أصلّيه في جماعةٍ على قدْر ما أستطيع، وكلّ الصلوات والحمد لله.

– ماذا تحفظ من القرآن؟

– ليس بالكثير، ولكني أقرأ القرآن كلّ يوم.

سكتتْ قليلًا، ثمّ قالت:

– كنت أتمنّى أن تكون من حُفّاظ كتابِ الله، على كلّ هذا سيكون من شروطي في عقد الزواج، أنْ يكونَ مهري هو حفظك للقرآن الكريم، هل تمانع في ذلك؟

قال مازحًا في محاولةٍ لترطيب اللقاء:

– لا أعلم هل سيكون في مقدوري فعلُ ذلك أم لا، وخاصّة أنّني ربما أقضي وقتًا طويلًا في إعداد هذا المهْر.

لم تتجاوبْ مع مزاحه:

– هناك برامج الآن في التّنمية البشرية تساعدك على الحفظ في مدّة لا تتجاوز ستة أشهر، وأظنّ لو لديْك الدّافع للارتباط بي لن تتوانى عن الاجتهاد في الحفظ.

– نعمْ لديّ رغبة مبدئيّة، حتّى أراك، ربما يكون ساعتها لديّ دافع أقوى.

– أظنّ أنّه من المعلوم أنّ المرأة تُنكح لأربع، بدأها سيدنا محمّد صلى الله عليه وسلم، بالدين، ووضعَ الجَمال في آخر الأسباب، وأنا لا أريد لزوجي أنْ يتزوّجني لجمالي فقط.

تنهّد مراد، وهو يتعجّب من هذا اللقاء، الذي لم يتوقّعه على الإطلاق، ولكنّه على كلّ حال، وجد فضولًا يدفعه للاستمرار:

– هل من الممكن أنْ تحدّثيني عن نفسك؟

– أنا امرأة عادية، كنت في صغري متبرّجة، ولا أقيمُ للحياة أو الناس وزنًا، يقولون عني إنّني جميلة، وكنتُ مهْوى لأفئدةِ الكثير من الرجال، وتقدّم لي الكثير ولكنّني كنت أرفض.

– لم؟!

– تصوّرت لجهلي أنّ الجمال سلعةٌ غالية الثمن، لا يجبُ التّفريط فيها بسهولة لأيّ أحد، فكنت أضعُ شروطًا قاسية في المستوى الاجتماعي والمادي، وكذلك الشّكل الخارجي لمن يتقدّم لي، وحيّرت أهلي معي، وتعذّبت أمّي كثيرًا، ولكنّي كنت جبّارة في هذا الأمر، لا آبَهُ لأحد، ظنًّا منّي أنّني أمتلك بجمالي نواصي الحياة.

– وما الذي غيّر وجهتك من التبرّج إلى النّقاب؟ أراها نقلةً واسعة الخطو.

– سرقتني سنواتُ الغرور، ظللتُ أتعنّت، وكلّما ضغط عليّ أهلي أزداد عنادًا وغرورًا، مع أنني أتذكر الآنَ شبابًا تقدّموا إليّ في مستويات اجتماعية ومادية وأخلاقيّة عالية، كم كنت عمياء إلى الحدّ الذي لم أنتبهْ فيه لتسرّب الأيام، ولم أكنْ تقريبًا أسمع لنصائح أمّي ونساء العائلة الكبيرات والصّغيرات، ولم ألنْ لرجائهم أبدًا، حتّى تجاوزت بابَ الثّلاثين بعدّة سنوات.

– وفوجئت بالطّبع أنّ عددَ المتقدمين لك يقلّ!

– بالعكس، زاد أكثر.

– ماذا إذًا؟

بدا أنّها تبتسم بأسى، وهي تهزّ رأسها:

– زادَ العدد بالفعل، ولكنْ مع نوعيات جديدة ومختلفة من الرّجال، أرامل، مطلقين، وطالبي التعدّد، ومَن لديهم أولاد يبحث لهم عنْ أمّ، ومن لديهم أمراض ويبحثون عن ممرّضة وزوجة.

– وازددتِ عنادًا بالتأكيد.

– نعم، ولكنّه كان للزمن وليسَ لأهلي الذين تركوني أسيرُ وأتصرّف بحياتي كما أشاء، وجلسوا يائسين يشاهدون الفصلَ الأخير في صمت.

– وما المانع أنْ تختاري من بين هؤلاء إنْ كان أحدهم مناسبًا لك؟

– لا أعترض، ولكنّ إحساسك بأنّ الزّمن هو مَن يضع شروطه عليك أمرٌ مؤلم جدًّا.

– دائمًا مايضع الزمنُ شروطه القاسية علينا.

– يبدو ذلك، ولكنّ العنادَ والغرور يعمي أعيننا دائمًا، ثمّ عرفت أنّ التّنازل يتناسب طرديّصا مع ازدياد عُمر المرأة، ووجبَ عليها أن ترضخَ لتلك القوانين، وأن تقبل خاضعة، وإلّا سيكون مصيرُها مؤلمًا في مجتمع لا يَرْحم.

تغيّرت نبرة صوتها إلى عزفِ كمانٍ حزين وهي تكمل حديثها:

– يمنح المرأة أسوأ إحساس، يتقدّم الرجل كأنّه يتعطّف على سلعةٍ بائرة، لا تساوي شيئًا ذا قيمة كبيرة.

– كيف؟!

– منهم مَن يبخسُ حقّي في المهر، أو لا يريد حتّى أنْ يشتري ذهبًا ولو قليلًا، ومَن يريد أن أتحمّل جميعَ نفقات الزواج باعتبار أنّه هديّة السّماء التي ستنقذني من الضّياع، باختصار.. أنا امرأةٌ عانس، عليّ أنْ أقبل بأيّ رجل يسترني، لا حقّ لي في أيّ طلبات تطلبها الفتياتُ الصّغيرات المقْبلات على الزّواج، وكلّما رأيت ذلك ازداد عنادي، ورغبتي في أنْ أعيش كما أَريد.

– لم يكنْ هناك رجلٌ واحد فيمَن تقدّم لك؟

– مِن بين خيارات كثيرة، اخترتُ أفضلهم، كان أرملًا، ويحمل صفاتٍ طيبة، واقتنعتُ أخيرًا بالتنازل وقبولِ شروط الأيام والواقع والثقافة المريضة المنتشرة كالعدوى فينا، وقبل العقد بوقتٍ وجيز، ونحن نتحدّث في تفاصيل ليلة الزفاف، فوجئت به يطلبُ ألّا نقيم حفلَ عرس لأنّ ذلك لا يليق بنا في مراحلنا السنّية المتقدّمة، ويجب أنْ يقتصر الاحتفالُ في البيت، وبحضور أقاربنا فقط.

– إيّاك أن تقولي أنّك رفضت لذلك؟!

– أليسَ من حقّي أنْ أرتدي فستانًا أبيضَ للفرح مثل كلّ البنات، ويُقام لي حفل زفاف في نادي كبير، وأقفُ وسط أخوتي وصديقاتي وأهلي،

كأيّ فتاةٍ ستتزوّج؟ لماذا يجب أنْ أشعر أنّني أقلّ من أيّ امرأة عاشتْ تلك اللحظة لمجرّد أنْ فاتني قطار الزّواج في السن المناسبة؟

– وبالطّبع زاد عنادُك، ورفضتِ الزّواج كلّه بسبب ذلك؟

– كانت صدمةً هائلة للجميع، لم يتوقّعها أحد، فقد وقفتُ أثناء الحديث، وكان أهلنا مجتمعين، وقلتُ له: لقد ابتلعتُ مراراتٍ كثيرة لخاطر أمّي وأبي، أمّا أنْ تكون ليلة زفافي أشبه بمأتم، وأنا مازلتُ أنبض بالحياة، فهذا ما لا أستطيع قبولَه، فقامَ هو الآخر واقفًا، وقد تلوّن وجهه بالغيظ وقال: وأنا لنْ أفعل ذلك.

سكتتْ قليلًا، وفي عينيها إصرارٌ كأنّ الرجل مازال ماثلًا أمامها بعناده:

– لم تفلحْ محاولات الأهل في إثناء أيّ منّا عن التراجع وقبول الأمر.

– وكان عليك أنْ تتهيّئي لدفع ضريبة جديدة لمواقفك من الحياة.

– نعمْ يا سيّدي، علينا نحن النّساء أنْ ندفع من دمنا وأعصابنا، إذْ كيف تتجرّأ الإماء على أن يكونَ لهنّ آمال وتطلّعات واحتياجات ويعلنّ عنها، بل ويطالبْنَ بها، خاصّة لو كانت امرأة، الجميعُ يناصبها العداء.

– لا أظنّ أنّ أحدًا ناصبك العداء أكثرَ من نفسك.

– نعم، هو ذاك، ولكنْ هناك مرحلةٌ يصل لها كلّ الذين نصحوك يومًا ما، وتمنّوا لك الخير، أنْ يروا فشلَك عمليًّا جرّاء عنادك، وعدم الإصغاء لهم، نظراتُ العتاب والتشفّي والشفقة المزيفة تطلّ دائمًا من العيوَن، لقد دفعتُ من دمي وأعصابي الكثير، ومازلت.

- نعمْ يحدث ذلك، فالجميعُ دائمًا يحبّ أن يثبت وجهةَ نظره مهْما كانت النتيجة.

- مهْما أصف لك لنْ يتخيّل أيّ رجل رحَى تلك المعركة التي تدور بداخل امرأة وحيدة، تواجه مجتمعًا ضارٍ، ليس لديه ذرّة شفقة، وهو يئدُ نساءه كلّ لحظة.

سكت مراد ولم يحرْ جوابًا، بينما واصلتْ ودودة نزْفَها الحزين:

- ثمّ وصل الأمر لأبعدَ من ذلك، فقد اكتشفتُ أنّ نظرات الرجال حولي نهمَة تملؤها رغبات خبيثة لا تخفى على المرأة، في العمل، وفي الشّارع، وبعض الَأقارب للأسف، الذين لا يروْن أمامهم إلّا امرأة جائعة، تقفُ على أرصفة الحرمان، تتسوّل الحبّ، كلمات بذيئة مبطّنة ومباشرة، حتّى وصلَ الأمر لأنْ تحرّش بي أحدُهم بكلمات واضحة لا لبسَ فيها، أصابتني صدمة مفاجئة ألْجمتني، فطمعَ بسكوتي، فجذبني إلى حضنه وحاولَ تقبيلي لوْلا أنّني صرخت، تخيّل!؟ كان أحد أقربائي، ولوْلا الخشية من خرابِ بيتٍ وتفتّت شمله؛ لفضحْتُه.

- وكان هذا الموقف سببًا مباشرًا في ارتداء النقاب؟

- لا، ولكنْ بعد تلك الواقعة بدأتُ أميل للسّتر كثيرًا، وتوقّفت عن وضع المكياج عند خروجي، وغيّرت ملابسي للأكثر احتشامًا، ولكنّي لم أقتنع بوضع غطاءٍ على رأسي.

- لم؟

– خشيتُ أن يقولوا أنّ الزمن فرَضَه عليّ بعدما كبُرَ سنّي.

– يعيش المرء أسيرَ تصوّرات، وأفكار كوّنتها أزماته، فيخسر الكثيرَ دون أن ينتبه.

– هو ذاك يا سيّدي، حتّى تعرّفت على صحبةٍ صالحة في صلاة التّراويح منذ ثلاث سنوات، ويبدو أنّ تغيير الوجوه يمكنه أن يساهم في تغيير مسار حياتك كلّها.

– بالطّبع.

– في خلالها، حفظتُ القرآن الكريم، ودرست العقيدة والفقه والحديث، وتغيّر عالمي تمامًا، حين عرفتُ الله، واكتشفتُ أنّنا جميعًا نعيش في ضياعٍ كبير، وأنّنا نميل للكفر أكثرَ من ميْلنا إلى الإيمان.

– اسمحي لي.. ألَا ترين أنّك شخصية متطرّفة إلى حدّ كبير، منذُ كنتِ متبرّجة، وحتى انتقلت إلى خانةِ الملتزمات، وأنّ فكرة تقسيم النّاس بداخلك لم تختلفْ كثيرًا، إلّا في المسميات.

– نعم، قالوا لي كثيرًا ذلك منذُ صغري، ولكني كنت عنيدة، ولا أجد فيما أفعله خطأ.

– طريقة تناولك للحياة، وقراءة الواقع باللّونين الأسود أو الأبيض فقط؛ يضعُنا في مأزق كبير، فلم يخلقِ الله الكونَ كما تتصوّرين، ولكن جعله متعدّدَ الألوان ليجدَ الناس فسحة واختياراتٍ كثيرة.

– لا أعتقد فيما تقوله، ولا أميل لتمْييع الأمور هكذا.

تنهّد مراد ثمّ قال:

– وفي مجتمع الملتزمات، لم يتقدّم أحدٌ طالبًا الزواج؟

ابتسمت، بدا ذلك جليًّا من عينيها:

– جاءتني أكثرُ من أخت تعرّض علي الزّواج من زوجها.

باندهاش بالغ:

– فعلًا! هذا حقيقي؟

– نعم، وأقسم لك على ذلك، ولكنّي رفضتُ لأنّني لا أتخيّل أن تشاركني امرأة في زوجي، وكنت أتعجّب متساءلة، كيف يقبلْنَ ذلك، فيقلْنَ بأنّ ذلك من الشّرع، وعلينا قبوله، حتّى لو كان ضدّ رغباتنا، ولكنّني لم أستسغْ ذلك أبدًا، وأظنّ أنّني على معصية بسبب ذلك، أسأل الله أن يغفرها لي.

– لم يكنْ من بينهم رجل أعزب؟

– كان من بينهم الكثيرُ يا سيّدي، ولكنّهم مهووسون بالصّغيرات.

– أرى أنّك ضيّعت فرصًا كثيرة في حياتك، فليس من المعقول أن يتقدّم لك كلّ هذا العدد من الرّجال، وليس فيهم أحدٌ مناسب.

– هل تظنّ يا أستاذ مراد أنّ المبادئ تتجزأ؟

– هذا ليس له علاقة بالمبادئ، ولكنْ بطريقة تناولنا للحياة وتعاطينا معها.

– ربّما أخطأت في تقديري، لا أحد معْصوم، ولكنّي راضية عن حياتي وطرق اختياراتي.

– لا أظنّ أنّك راضية يا آنسة ودودة، ربّما تختبئين بنقابك خلفَ شيء ما، حتّى لا يراه أحد في وجهِك، وتدّعين في مشاعرك ما ليس فيها.

سكتتْ قليلًا، كأنّ كلامه مسّ وترًا مؤلمًا في مشاعرها، ثمّ قالت:

– أستاذ مراد، ما قلته لك اليومَ لم أقلْهُ في حياتي لأقربِ المقرّبين إليّ، ولم أتخيّل أن أجلس إلى رجلِ غريبٍ وأفتحَ له قلبي هكذا، ولا أعلمُ لماذا أنت بالذّات، ربما لم أقابل رجلًا في حياتي استرحت له مثلك.

ثمّ سكتتْ، وخفضت رأسَها إلى الأرض، ثمّ سمع نهنهةً وأنينًا خفيفًا، كأنّه بكاءٌ صامت.

***

استمع الثّلاثة لقصّة ودودة، وقد غلبهم الانْدهاش، ثمّ بادر هجرس بالكلام كعادته:

– برأيي الشّخصي، أغلق هذا الباب، هذه امرأةٌ تفكيرها متطرّف، وتصرفاتها غير متّزنة، ولو استقرّ بها المقام في بيتك ستعاود سيرتها الأولى، وستضعُك دائمًا على خطوط مفاصلة في حياتك، بدون تفكير.

تدخّل الديب بحدّة:

– لا تقلْ ذلك يا رجل، المرأة متديّنة، والنبي صلّى الله عليه وسلّم يقول: اظْفر بذاتِ الدّين.

- هذا ليس تديّنًا طبيعيًّا، هذا هروبٌ من واقع مؤلم.

نظرَ عفيفي إلى مراد الذي كان يستمعُ باهتمام للجدل الدائر:

- وأنت، ما رأيك؟

- الحقيقة، لا أستطيع أنْ أحدّد مشاعري تجاهها، ولكنّها امرأةٌ تستحقّ العطف.

- هذا لا يكفي وحدَه لإقامة بيت، دموعُ المرأة عمومًا تجلب التعاطف، ووجبَ على الرّجل ألّا يأخذَ قرارًا وهو في تلك الحالة؛ بل عليه أنْ ينظر للأمور بزاوية أكثر عقلانية.

- أليسَ من حقّها أن تأخذ فرصتها في الحياة؟ ربّما إذا عاشتها بشكل طبيعي تغيّر مسارها النّفسي.

قال هجرس بحدّة:

- سعادتك متقدّم للزّواج، أم لعلاج حالة نفسية؟

عاجلَه عفيفي مؤيّدًا كلامَ هجرس:

- هذا زواج يا مراد، وحياة كاملة، وأنت تحتاج لقدْرٍ كبير من الاستقرار والهدوء في هذه المرحلة من العمر، لا لخوضِ تجاربَ مع امرأةٍ تعاني من أزمات نفسية متراكمة.

احتدّ الديب عليهما صارخًا:

- أنتما جاهلان، قاسيان، البنتُ لا تُعاني من عُقدٍ نفسية كما تتوهّمان، هذه فرصة طيبة لها، ستكون خيرَ زوجة إذا تغيّر المناخ النفسي بداخلها.

هجرس متجاوزًا حدّة محمد الديب:

- هل رفعَتِ النّقاب ورأيتَها؟

- لا، لم تمنحني هذه الفرصة، فعندما شعرتْ أنّها لن تسيطر على دموعها، قامتْ وانصرفت.

تدخّل عفيفي:

- هل تدري يا مراد، ماذا يعني أنْ تبوح امرأةٌ لرجل بكلّ ما لديها؟

- ماذا يعني؟

- يعني أنّ وجدانها قد استراحَ له، فمالت برأسِها إلى كتفه، وقد أعجبَك ذلك منها.

- ما المشكلة في ذلك؟

- إنّها الآن تنتظرك بلهفة، لتقتربَ أكثر، وأنت لم ترَهَا حتّى الآن، ماذا لو رأيتها ولم تعجبك، فستعتذر، وتخلّف وراءك في قلبها جرحًا غائرًا أشدّ مِن كلّ الجراح التي عاشتها.

***

تمدّد مراد في فراشه، وقد تمكّنت منه الحيرة، حتّى قطعها اتّصال البنات في المكالمة الجماعية، تردّد قليلًا، ثمّ اضطرّ لفتح الخطّ حتّى لا يساورهما القلق.

حكى لهما بالتّفصيل كلّ ما جرى، ووضع أمامهما آراء أصدقائه، وكذلك غابة الحيرة التي ضلّ السّير فيها للطّريق الصحيح.

اختلفت ابنتاه كذلك على هذا الأمر، ثمّ أغلقتا المكالمة على أساس أنّه مازال أمامنا وقت للتفكير.

***

بعد نقاشِهما الأخير، لم يفكّر مراد في الاتّصال بمها، أو الدخول معها في جدل، فقد تصوّر أنّه بخبرته في الحياة وفارق العمر، يستطيع أنْ يقنعها برأيه في أيّ نقاش حين يختلفان، ولكنّها كانت حاضرة وواعية أكثر ممّا يتصوّر لدرجة أنّها أطاحت بحجّته أرضًا، ولم يستطع إنهاء النقاش لصالحه أو إقناعها، إلّا أن يصرخَ في وجهها ويقول: لقد أخطأت في الاتّصال بك من البداية، فسمع ضحكتها على الجانب الآخر، فازداد غيظًا فأغلق الهاتف في وجهها.

كانت الوسيلةُ الوحيدة لإقناعها أن يسردَ لها تفاصيل بحثِه عن عروس، ثمّ يتبعها بحكايته مع مروة، فربما نظرتْ إلى الموضوع بزاوية أكثر تعقّلًا، ولكن هذه لم يستطعْ أن يفعلها، ولكنه يسأل نفسه لماذا لا يريد أنْ يحكي لها؟ يزفر نفسًا مخنوقًا، كلّ الأسئلة التي تدور في فلك مها ليس لها إجابة.

ذهبَ في موعده إلى الجلسة العلاجية، استقبلته باهتمامها المعتاد، كأنّ شيئًا لم يكن، ابتسامتها اللطيفة، كلماتُ ترحيبها به تنتقيها بعناية، يعجبه ذلك، ويحبّه منها، ربما تغطي جزءًا حيويًّا من احْتياجاته النفسيّة للاهتمام، يستسلم لها، يتمدّد على الشيزلونج، توصّل الأجهزة إلى ركبته التي مازال يعاني منها منذ الحادثة،

وطوال هذه الفترة لا تتوقّف عن الكلام، والأسئلة والحكي كلّها تدور في فلك حياته:

– قلتُ لك كثيرًا أنّ العلاج سيطولُ لأنّك لا تتّبع تعليماتي بالرّاحة، تقف كثيرًا في العمل، وهذا يضرّك، خذْ أجازة طويلة، الكونُ لا يتوقّف على حضورك أو غيابك، كذلك أوصيتك بالمشي بانْتظام، وعرضتُ عليك أنْ أصاحبك كلّ صباح، ولكنّك تسمع من أذنٍ وتُخرج الكلام من الأذنِ الأخرى، كالأطفال تمامًا، لا يستمعون إلى النّصائح والتوجيهات، فإذا ما أصابهم مكروه هُرِعوا إلى أمّهاتهم يبكون.

يتنهّد:

– لقد حفظت كلّ تعليماتك، ألَا تملّين من سردها مرارًا وتكرارًا.

ضحكتْ بطفوليّة:

– لا، لن أتركَكَ حتّى تنفّذها، ثمّ أنتقلُ بعدها لتعليماتٍ أخرى، وددتُ لو تركت لي مساحة أكبر في حياتك، سأغيّرها كلّها.

– مجنونٌ أنا حتّى أتركَ نفسي لفتاة ترى الحياة مغامرة!

ملأتْ ضحكاتها جنباتِ الحجرة، حتّى ظنّ أنّ المستشفى كلّها سمعتها، فتبسّم متجاوبًا معها، ثمّ اقتربت وعيونُها تكاد تمطرُ بالحبّ:

– هل تصالحنا؟

– وهل تخاصمنا؟

بسعادةٍ بالغة تحلّق بها كالفراشات:

– إجابتُك تلك أجملُ عندي من كلّ علب الشيكولاتة التي يمتلئ بها الكون لو أهديت لي.

كلّ يوم تقترب منه خطوة، متجاوزة كلّ مشكلةٍ تحدث بينهما، تغضّ الطّرف كثيرًا عن كلمات كثيرة تصدرُ عنه تجرحُها.

يشعرُ بتسلّلها أكثر إلى حياته، واحتلال مساحاتٍ أوسع، ولكنّه لا يُبالي من هذا الاقتراب الحميم، فهي حتّى الآن في المنطقة الآمنة، تتحرّك بكلّ هذا النزق في دائرة إحساسه بالأبوّة، ولا تتّجه مشاعره النفسية أو الحسيّة لأبعد من ذلك.

غيْر أنّها هذا اليوم أضافت كلمةً مهمّة إلى قاموس كلماتها الجميلة التي تنثرها عليه كزخّات عطر، حين قالتْ بتلقائيّتها المعهودة، كأنّها تلقي عليه تحيّةَ الصباح:

– على فكرة أنا أحبّك.

لم يشعرْ بأيّ مردودٍ مختلف بداخله، لذلك ردّ عليها ودونَ تفكير:

– وأنا كذلك أحبّك يا مها.

شعرتْ بأنّ ردّه يدور في الفلك الإنساني المعتاد، فتحوّل نزقُ الصّيف في عينيها إلى برقٍ غاضب في ليل شتاء، وهزيم رعدٍ هبّ في غير موعده، غير أنّ الذي أربكه نظرةُ عينيها المختلفة، والتي لم يرها من قبل على وجْهها وهي

تجمع في نبرةِ صوتها جديّةً وتنبيهًا كبوقِ سيّارة صرخ لمارّ أمامه لم ينتبهْ له في المرّة الأولى:

– أستاذ مراد، حضرتك لم تفهمْ قصدي بوضوح، أنا أحبّك، وأحاول منذُ وقت طويل أن تصلك مشاعري، بصورٍ مباشرة وغير مباشرة، ولكنْ لا أعلم لماذا تتعمّد تتجاهلها، ألا تعلم أنّ ذلكً يؤلمني، ويؤذيني وأشعرُ معه بالإهانة؟!

آخرُ شيء فكّر فيه، وهو يترك لها هذه المساحة في حياته، أنْ تقفز هذه القفزة الواسعة، ليجدها بهذا الاقتراب.

أمامَ صمته، خفضت رأسَها، وقالت:

– آسفة جدًّا، هذا أمرٌ ليس بيدي، ولا أستطيع السيطرة عليه.

أخيرًا تنبّه مراد:

– لا أدري يا مها ماذا أقول لك! غير أنّي أكبرُ منك بأكثر من ربع قرن، وفي وضع نفسي لا يسمح لي بأنْ أقع في الحبّ، فضلًا عن أنْ أحبّ فتاةً صغيرة، الحياة أمامها ممتدة، بينما المستقبلُ أمامي ضيق، وخياراتي كلّها محدودة.

كعادتها تتجاوز ما يقول، وتواصل ما تقول:

– ألا تفكّر في تغيير طريقتك في التّعاطي مع الحياة؟

– أقول لك، بيننا سنواتٌ طويلة وكثيرة، تقولين غيّرْ طريقتك! حاولي أنت أنْ تتعقلي، وتفكري بطريقة أخرى.

– لا شأن لك بطريقةِ تفكيري، ولا أريد منك شيئًا، ولنْ أكلّفك فوق ما تطيق، ولكن لا تبتعد عنّي، دعني في محيطك، أرجوك.

ما الذي يدعو مراد للابتسام الذي يصلُ إلى مستوى الضّحك وهو يقود سيارته عائدًا من الجلسة العلاجيّة، هل للحظات الجنونِ التي عاشها هذا الصّباح، في حضرة السّت مها، أمْ لحفنة الأسئلة التي تمطرُ على رأسه كلّ مرّة يلتقيها أو تهاتفه، ولا يجدُ لها إجابة، أم لتلك اللحظة التي اعترفت له بحبّها كأنثى وليست كابنة، أمْ لتلك الهزّة الحسّية التي مسّت جسدَه بالرغبة، حين تنبّه كيانه وهي تدخل في محيطٍ لا يصحّ أن تقترب منه، ولكنّها اقتحمته بقوّة، وتقول: أستاذ مراد، حضرتك لم تفهمْ قصدي بوضوح، أنا أحبّك.

وقفَ طويلًا أمام المرآة الكبيرة المجاورة لباب البيت، يتأمّل نفسه، وينظر لعينيه بعمق، فيجد السؤال الأكبرَ معلّقًا عليهما، ما هذا السّرور الذي يتراقصُ بداخلك، وأيّ غرور هذا الذي يملؤك؛ لأنّ امرأة تبوح لك بكلّ هذه القوّة بحبّها لك، فتاة في سنّ مها، ما الذي يُغريها بحبّ رجلٍ في سنّ أبيها، إلّا إذا كان يحمل سحرًا وجاذبية لا حدّ لها!؟

يبتسمُ بثقة، ويقول لنفسه: هذه المجنونة تمنحني طاقةً غريبة، تجعلني أحبّ الحياة أكثر، على الرّغم أنني لن أفكّر فيها للأسف الشديد.

في غمرةِ تفكيره، جاءه صوتُ الهاتف، كان محمد الديب:

– مراد سأنتظرك الليلة، لا تتأخّر، عندي لك مفاجأة حلوة.

في المقهى العتيق، تحلّقوا بدفء طبيعيّ بينهم، لم يتركه الديب ينتظر طويلًا فالتفت إليه:

– لقد عثرتُ لك على عروس مناسبة.

ابتسم وهزّ رأسه بلا مبالاة قائلًا:

– هاتِ ما عندك يا سيدي.

– الآنسة عواطف عبد الباري، تعملُ مدرّسة للدراسات الاجتماعية، ومن مدينة الزقازيق، موطن الأنس والجَمال والحسب والنسب.

ابتسموا، وقال هجرس:

– أخيرًا تحرّك إحساس الديب، يوشكُ أنْ يقول شعرًا.

قال الديب:

– دعْكَ منه، وامنحني عقلك، بكْر، تبلغ من العمر أربعين عامًا، محجّبة، وذات دينٍ باعتدال، يتيمة الأبوين، خالها وليّ أمرها، وهو مِن أصدقائي القدامى، من عائلةٍ كبيرة في الشرقية، وعلى قدر من اليُسْر.

ثمّ أخرج صورةً بحجم كفّ اليد، تلقّفها مراد، ونظر لها بعمق.

صورةٌ رسمية لامرأةٍ متجهّمة، وجهُها متناسق، وفيه ملاحةٌ مقبولة، بيضاء على شحوب.

– لا يمكن الحكمُ على امرأةٍ من صورة، هل يمكنني الجلوس معها؟

– بالتّأكيد، إذا كان لديك موافقةٌ مبدئيّة، سأتحدّث مع خالها الليلة لتحديد موعد للمقابلة.

في قريةٍ قريبة من المدينة، توجّها إلى منزلٍ كبير من طابقٍ واحد، تحيط به حديقة عامرة بأشجار الفاكهة، استقبلهما الخالُ بترحابٍ كريم، في حجرة واسعة، نظيفة ومرتّبة، وفيها بساطة غير متكلّفة، ويغلب على الجوّ العام دفءٌ نفسيّ محبّب، جعل صدرَ مراد يرتاح بعد أنْ كان لديه بعض التوتّر من طريق السفر، والملل الذي بدأ يصيبُه من فكرة البحث عن زوجة.

جلس الجميع يتبادلون أطرافَ حديث يغلب عليه التعارفُ وتبادل بعض الأخبار العامّة في البلد، كان خلالها مراد ينظرُ إلى صديقه ليبدأ في فتح الموضوع، ولكنّ الدّيب كان غارقًا في حواره مع المضيف، فاضطرّ مراد إلى الحديث فيه، ولكنّ الخال قاطعه:

– يا أستاذ مراد، لقد حللتُم ضيوفًا عندنا، وللضّيف حقّ وواجبٌ يجب أن يأخذه، ثمّ نتكلّم فيما جئتم لأجله.

ما لبثَ أن دعاهم الخادمُ إلى وليمةٍ كبيرة، جلسوا عليها ثلاثتُهم.

بعدَ الغداء، دخلت عليهم عواطفُ تحمل صينيّة الشّاي ووضعتها أمامهم، ثمّ جلست في صمت، ورأسُها خفيضةٌ إلى الأرض، فقال الخال:

– عواطف ابنةُ المرحومة أختي، زينة البنات، أدبٌ وأخلاق عالية، مشهودٌ لها بذلك من كلّ مَن يعرفونها، وقد تقدّم لها الكثيرون، ولكنّ النّصيب لم يأتِ بعد، ولعلّ زيارتكم يكون فيها الفرحُ والسّعادة لكما بمشيئة الله.

تنحّى الخال بمحمد الديب في نفس المجلس، تاركًا لهما مجالًا للتعارف أكثر.

لا يختلف وجهُها كثيرًا عن الصّورة، نفس التجهّم، الشّحوب الذي يعلو بياض وجهها، نظر إليها مراد طويلًا قبل أنْ يسألها:

– آنسة عواطف.

رفعتْ رأسَها، وعلى عينيها استفهام.

– هل لديك مشكلة ما؟

هزّت رأسها بالنّفي.

– أرى على وجهك ضيقًا، هل زيارتي غيرُ مرغوب فيها؟

خرجتْ كلمة لا متحَشْرجة، فتنحنَحَت وقالت:

– لا أبدًا، حضرتك شرّفتنا.

تعمّد مراد أنْ يتباسط في حديثه معها، ليفتح مغاليقها:

– ألا يمكن أنْ تبتسمي؟

تفاجأت بالسّؤال، فتطلّعت إليه مدهوشة، ثمّ ارتخى وجهها بابتسامة لطيفة، فقال:

– لوْ رأيت نفسك وأنتِ تبتسمين لما تجهّمت أبدًا.

تضرّجت وجنتاها بالاحمرار خجلًا، وارتعشت يداها، ووقفتْ كأنّها تريد أن تهرب من هذا الحصار الجميل:

– هل تريد قهوة؟

– لا شكرًا، يمكنك الجلوسُ لنواصل حديثنا.

لاحظَ مراد أنّ عواطف تلتفتُ إلى خالها كثيرًا، فقال:

– هل يمكن أن تحدّثيني عن نفسك؟

هزّت كتفيها وقالت:

– ماذا يمكن أن أقول؟

– أيّ شيء تشعرين به.

التفتتْ عيناها إلى خالها الذي كان منهمكًا في الكلام مع الديب، تحركت عيناها وشردت في الضّوء الغامر القادم من الشّباك الكبير، ثمّ قالت:

– ماتَ أبي قبل أنْ أولد، وماتت أمّي ولم أتخطّ العاشرة، وتولّى خالي رعايتي منذ ذلك الحين، تخرّجت من كلية التّربية، وأعمل بالتدريس.

– تختصرين قصّة حياتك كلّها في تلك الجمل البسيطة، لا بدّ وأنّ بها ما يستحقّ الحكي بالتّفصيل.

– بالفعل فيها أحداثٌ كثيرة، ولكن لم يسألني أحدٌ هذا السؤال من قبل، فتراني غير مستعدّة للإجابة.

– حاولي.

– سؤالك مهمّ لهذه الدرجة؟

– بالتّأكيد، نحن في جلسةِ تعارف، ربما ينبني عليها أن نتزوّج، فيجب أن أعرف كلّ شيء عنك، وأنت كذلك.

– لا أظنّك ستعود مرّة أخرى.

– لماذا تقولين ذلك؟ ألم يتقدّم لك أحدٌ طالبًا الزواج؟

– تقدّم الكثيرون.

– لمْ يعجبك أحدٌ منهم؟

دارت حدقتاها ناحية خالها، وقالت:

– لمْ يعجب أحدٌ منهم خالي.

– لم يملْ هواك لأحد منهم؟

– لم أفهم قصدك؟

– يعني ماذا كان رأيك أنت؟

– ومَن يسأل عنْ رأيي؟ يأتي العريس، فيجلسُ معي، يتحدّث كثيرًا عن نفسه، ثمّ يختفي، في البداية كنت أسأل خالي، فكانت تأتي الإجابات غامضة، يردّ وهو مكفهرّ ويعلو وجهه غضب: غيرُ مناسب لك، طامعٌ في ميراثك، عائلته لا تليق بمقامنا، إلى غير ذلك من الرّدود، حتّى فهمت أنّه لا يجبُ أن أتدخّل في هذه المسائل، وأنّ ما يراه خالي صالحًا هو ما سيتمّ، فتوقّفت عن طرح الأسئلة.

– هل لك أقاربُ غير خالك؟

– ليسَ لي أعمام، وهذا خالي الوحيد، ووليّ أمري، والمتصرّف في حياتي كلّها بما فيها إدارة ميراثي.

– لم تفكّري في مواجهة حياتك؟

– ما معنى أنْ أواجه حياتي؟

– أنتِ امرأة متعلّمة، يجب أن تفهمي ما يدور حولك بشكل أوضح، وتكوني قادرة على اختيار وتحديدِ شكلها.

– أنا امرأةٌ وحيدة بلا سندٍ سوى من خالي، وما يراه مناسبا أرضخُ له، حتّى لو كان خاطئًا، فهو في النّهاية أفضل مِن أيّ إنسان غريب عنّي.

– عجيبٌ أن تفكّر امرأة متعلّمة بهذه الطريقة!

– أظنّ أنّ ذلك تفكير عموم النساء.

– إذًا، احكي لي عنك.

ابتسمت وقالت:

– مازلتَ مصرًّا؟

شعرَ مراد بأنّ بابها يفتح:

– بالتّأكيد.

راحَ وجهها إلى حيث خالها، فقال مراد:

– بدون أنْ تنظري لأحد، اعتبريه غيرَ موجود.

التفتت إليه بنظرةٍ غريبة:

– أستاذ مراد، أنت أوّلُ إنسان أقابله، وأشعرُ أنّني أقف عاريةً أمامه.

ثمّ تداركت باضطراب:

– آسفة خانني التّعبير، أعتذر...

قاطعَها مراد:

– لا عليك. أفهم قصدَك جيدًا، أكملي الحديثَ عن نفسك.

– أشعرُ أنّك تقرأ ما بداخلي بسهولة.

ابتسم لها، وقال بودّ:

– لا تبرّري كلمتك أكثرَ من ذلك، وحتى لو كنتُ أقرأ ما بداخلك بسهولة، فأنا أحبّ أن أسمعك.

تعمّدت هذه المرّة أن تنظر إلى طاقةِ النّور التي تقتحم الغرفة من الشباك الكبير:

– كما قلت لك، توفّي أبي قبل أن أولَد، ورغم أنّني نشأت في كنف خالي، إلّا أنّني لم أتذوق طعمَ أبوّته أبدًا، وإذا سألتني ما أكثرُ شيء أثّر في حياتك؛ أقول لك اليتمُ والخوف، لا مثيل لهما في ذبح طفولةِ أيّ صغير.

اغرورقتْ عيناها بالدّموع:

– حتّى هذا المعنى كان يكسو وجهَ أمّي، فلم أرها إلّا مُنكسرة حزينة، مستسلمة للقوة الهادرة التي تحيط بنا، فانْزويت بجوارها، فلا هي عوّضت يُتمي، ولا أحاطتني بأمانها، ووضع خالي حولَها أسوارًا عالية بحجّة حمايتنا من الطّامعين في إرثنا، ورفضَ فكرةَ زواجها على الرغم من تقدّم الكثيرين

من الوجهاء وأغنياء بلدتنا للزّواج منها، وظلّت ساكنة خاضعة لخالي، وما يأمر به، حتّى غلبها المرض، لينهشَها بلا مقاومة حتّى لحقت بأبي.

– رحمها الله.

– تركَ ذلك كلّه أثره على شخصيتي، فصرتُ معدومةَ الثّقة في نفسي، أسير كأنّني آلة، أينما يوجّهها خالي تسير، لا أستطيعُ أنْ أكوّن وجهة نظر في موضوع ما، أخاف أنْ أبدي رأيًا يخالف الجميع حتّى ولو كان صحيحًا ويوافق المنطق، وكانت غرفتي هي سجني الاختياري، فصارَ عالمي وأحلامَ يقظتي التي تصول وتجولُ في عالم الخيال، دون أن تتجاوز جدرانها.

– لهذه الدّرجة! حتّى بعدَ أن خرجت لعالم أوسع، وذهبت للدّراسة بالجامعة، لم يؤثّر فيك التعليم والاطّلاع، واكتسابُ خبرات جديدة؟!

– هل تعلمُ يا أستاذ مراد أنّني حصلت على مجموع في الثّانوية يؤهّلني لدخول كلية الطب، ولم يوافقْ خالي، ولوْلا نظرات الناس لما سمح لي أنْ ألتحقَ بكلية التربية، ولقبعتُ في البيت، وكانت حجّته أنّ كوْني مدرّسة تربي أجيالًا أفضل من عملي كطبيبة، أختلطُ بالرّجال، وأبيت في المستشفيات، إلى غير ذلك من الحجج.

– لم تفكّري مرّة أنْ تثوري على هذا الوضع؟

– قلتُ لك يا سيّدي، ليس لي خيارٌ سوى اختيار الظّلم الذي أعرفه وعشت فيه، ويظلّ القريبُ الظالم أفضلَ من الغريب.

– عجيبٌ جدًّا هذا المنطق، لم أرَ مثله في حياتي!

فجأة، التقت عيناها بعينِ خالها في نظرةٍ طويلة، مرّت فيها سحابة عابرة من التحدّي، سرعان ما تلاشت، فوقفتْ مضطربة، كأنّ طائرها الذي حلّق قليلًا في النّور عاد إلى قفصه، وقالت:

- أرجوك، دعْني أعدّ لك القهوة.

***

في طريق العودة، قال مراد:

- مبدئيًّا، لقد استرحتُ لها، وواضح أنّها من بيتٍ كريم، يخيّم عليه الأدب الجم، لقد كنت أنتزعُ منها الكلمات انتزاعًا في بداية لقائنا.

ضحكَ الديب وقال:

- كلهنّ يفعلْنَ ذلك قبل الزّواج، ثمّ بعد ذلك ينطلقْن، لا يوقفهنّ شيء.

قال مراد في نفسه: آه يا صديقي، لو رأيت مها وما تفعله معي.

- نعم، ولكن ليس لهذه الدّرجة، تصوّر أنّها لم تسألني أيّ سؤال، وكنت أنتزعُ الكلام من فمها، أنا الذي سألتُ واستقصيت، حتّى الضّحكة طلبتُها منها.

- ربّما خجل البدايات.

- ماذا كان رأيُ خالها؟

تنحنَحَ الديب وقال:

- الرّجل ليس لديه اعتراضٌ عليك، ولكنْ له طلبات.

– أيّ طلبات يا صديقي، ونحنُ مازلنا في مرحلة التّعارف، وأريد أن أجلس معها مرّة أخرى.

– لنْ تستطيع ذلك، هو لقاءٌ واحد، وعلى أساسه تأخذُ قرارك، إمّا الاعتذار، أو تقام خطوبة بشكلٍ رسمي، وبعدها تعرف ما تريد.

– ما هذا يا رجل!

– هذا هو الوضع الذي حكاه خالها.

صمتَ مراد ولا يدري كيف يردّ، وأخذ يستعيد الموقفَ كاملًا، البنت لديها إيجابيّات كثيرة، ولكنه يريد أنْ يشعر بها أكثر، والخطوبة بشكلٍ رسمي ومعْلَن، هو تورّطٌ ربّما لا يستطيع التراجع عنه:

– هل له طلباتٌ ماديّة، خاصّة بالمهر أو الشبكة، أو القائمة؟

– نعمْ، لقد ذكرَ أشياء، ربّما تكون مبالَغٌ فيها بعضَ الشّيء، ولكن يمكن مراجعته فيها.

– مثل ماذا؟

– في حال موافقتك، طلبَ مائة ألف مهْرًا، ومثلها ذهب، وسكنًا خاصًّا بها، ويُكتب باسْمها.

بهتَ مراد، وقطّب جبينه غيرَ مصدّق، ثمّ التفت إلى الديب:

– هذا الخال لا ينوي أن يزوّج هذه البنت، أنا متأكّد أنّ وراءها ميراثا ضخمًا يضعُ يدَه عليه.

– ليس لهذه الدّرجة، الرجل كان يلحّ عليّ منذُ فترة أن أبحثَ لها عن عريس.

– لا يمكن لامرأةٍ في الأربعين من عمرها أن يطلبَ لزواجها كلّ تلك الأموال، هذا أمر مبالغ فيه جدًّا.

– الحكاية لا علاقة لها بالسّن، ولكنّ بالوضع الاجتماعي.

– هذه امرأةٌ أيّامُها تنزف بالوحدة، ثمّ تقول لي وضع اجتماعي! أيّ أب عاقل، أو خال أو حتّى عمّ لديه ضميرٌ يطلب ذلك لامرأةٍ توشك شجرتُها أن تجفّ!

– لقد راجعتُه، ولكنّه يريد أن يضمنَ لبنت أخته ألّا تعود له يومًا مطلّقة خاوية اليدين.

***

للمرّة الثّالثة، يسير مراد في طريق الزّواج ولا يصلُ لشيء، يبدو الأمرُ أصعب مما يتخيّل، هو لا يطلب سوى زوجةٍ طيبة، يكمل معها ما تبقّى من أيام العمر، يريد أن يشعرَ بنوعٍ من الاستقرار النفسي والحسّي، أنثى يبادلها أحاديثَ ليلةٍ عادية، يحضنُها، تلك الضمّة الهنيّة التي تمنحه دفقاتٍ من الحنان والاهتمام، ترتّب تفاصيله، فتعيد كلّ شيء مبعثرٍ إلى مكانه الطبيعي، تمسح من ذاكرته كلّ أحلام اليقظة، وتتنفّس في حياته حقيقةً ساطعة كالشمس.

يتساءل وهو يتقلّب في فراشه البارد: هل هذه أمنياتٌ صعبة؟ لا يدري ما الذي جاء برنّة ضحكة مها وهي تجادله، قبل أنْ يغلق في وجهها الهاتف، يسري الدفء في جسده، لقد اقتربت هذه الأنثى المشاغبة لحدّ الخطر.

***

في كلّ مرّةٍ يطلّ وجهُه عليها تتزيّن روحُها بالفرح، كأنّها تفتح صفحةً بيضاء جديدة في تاريخ العلاقة بينهما، تستقبله بصفاءِ ابتسامتها المتشوّفة، لا تتحدّث فيما مضى، ولا تفتح بابًا للعتاب، كأنّها تقرّر أن يكونَ كلّ لقاءٍ بينهما فرصةً جديدة تمنحها لها الحياة، فتحبّ أن تستغلّها لأقصى درجة.

تنتهزُ أيّ سبب لتفتح معه حديثًا حول أيّ شيء، ولكنّ عينها على هدف مشاعره، تصوّب له السهام تلوَ الأخرى، علّ سهمًا ساحرًا يصيب هذا العجوز في مَقْتل، فيشعر بحبّها، أو حتّى يرقّ لها.

كلّ المحاولات العقلية لجرّها خارج هذا المربع تبوء بفشلٍ ساحق، ويتجدّد بداخلها الأملُ بشكل تلقائي، كما يأتي الصّباح، ليسقي خدودَ الورد بالنّدى، فتهتزّ طربًا وفرحًا بالضوء الجديد.

– أفكّر منذ فترة في الانتقال من هذه المستشفى، ما رأيك؟

– أرى أنّك تأخذين مكانًا لائقًا بك هنا، ما الذي يجعلك تفكّرين في الانتقال؟

– أريد أنْ أكتسب خبراتٍ جديدة في مستشفى أكبر، بها أجهزة أحدث، راتب مادي أعلى، كما أنّ المكانة التي أحظى بها هنا تأتي من اهتمامي العام بالمرضى، فتستغلّها الإدارة، دون حتّى الالتفات لتحسين دخلي، كأنّني طبيبة وأخصائية اجتماعية.

– أنتِ تحبّين الناس، وخدمتهم ونجدةُ الملهوف جزءٌ من تكوينك، وستفعليه في أيّ مكان تذهبين إليه، ولكنْ إذا كان الانتقال سيروقُ لنفسك، ويشبع طموحك؛ فما المانع؟

لم تلتفتْ لمديحه، ولم تشكرْه بكلمة:

– ماذا لو أتيتَ في المرّة القادمة، فوجدتَ طبيبة أخرى تستقبلك بدلًا منّي!؟

– أتمنّى ذلك، حتّى أتخلّص من ثرثرتك، وتدخّلك في حياتي.

– هكذا؟

– نعمْ هكذا.

– لنْ تفتقدني؟ لنْ يضايقك حتّى عدم وجودي؟

– ربّما أفتقدك في البداية، ولكنْ بالتّأكيد الطبيبة التي ستحلّ مكانك ستنسيني.

صرخَ مراد فجأة ثمّ ضحك، فقالت، وقال معها في نفس الوقت:

– آسفة، لقد آلمتُك بالخطأ.

نظرتْ إليه بغيظ شديد:

– ألا تقول مرّةً واحدة كلمةً ترضيني؟!

ثمّ ولّت خارجة، وعند الباب نادى عليها:

– مها.

يا لصوت هذا الرّجل حين يناديني باسمي يجذبني كالفراشات الغبيّة إلى وهَجِ ناره، التفتت متغاضبة:

– ماذا تريد؟

- اقتربي.

اقتربت وقد شبّكت ذراعيها على صدرها:

- نعم.

- إذا كنت تنْوين الرّحيل فعلًا فأجّلي القرار حتّى تنتهي من علاجي، لا أتخيّل أنْ آتي إلى هنا ولا أجدك.

تشرقُ وجنتاها بالابتسام، وتهزّ رأسها في رضًا مغرور، وتقول بعينيها المتغاضبة:

- شكرًا، سنؤجّل القرار، ولكن ليسَ لأجلك، ولكن لأحبّةٍ لا أطيق البعدَ عنهم، ثمّ تعال إلى هنا وقلْ لي.. لماذا لا تتّصل بي على الهاتف، أنْتظرك كلّ ليلة بلا جدوى، ألا تشعر بمعاناتي؟ إذا كان هناك ما يُخيفك من الحديث إليّ اطمئنّ فقد قرّرت ألّا أجادلك كثيرًا، سأستمع إليك فقط، طالما نقاشي يزعجك.

- أنتِ لا تعرفين عنْ خلفيّات كثيرة لموضوع السؤال.

- وأنتَ لا تريد أن تحكي لي، ما الذي يدعوك للخوف من البوْح لي، صحيحٌ أنا صغيرة السّن، ولكنْ لديّ خبرات واسعة ربما تفوق خبراتك.

- يا إلهي! دعيني أنصرفُ من هنا قبل أنْ أرتكب جريمة.

رنّت ضحكتها الحلوة وقالت:

- سأسكت، لن أتكلّم، لن أفتح فمي، سأخيط شفتي...

قاطعها صارخًا:

- يااارب.

***

على المقهى، قال مراد ساخرًا:

- هل هناك عروسٌ جديدة؟ أنقذوني قبل أنْ أنحرف.

ابتسموا له، فقال هجرس:

- أتمنّى أن تغامر مرّةً واحدة في حياتك، ولو انحراف بسيط. ستكتشف عالمًا آخر لا تعرف عنه شيئًا، ربّما ساعدك على رؤية الحياة بعقلٍ مختلف.

تدخّل الديب:

- أعوذ بالله منْك، تريد أن تقضي على عقل الرجل وهو في هذه السّن!

قال عفيفي:

- لا تستمعْ إلى الاثنين يا مراد، ولكنِ اخلطْ كلامهما ستخرج بنتيجة جميلة.

- كيف يحدث ذلك؟

- ربّما لا يقصدُ هجرس بالانحراف الوقوعَ في المعصية، ولكن أنْ تجرّب مرّة أن تكون جريئًا، وتغامر، ألّا تتوقّف عند حدّ معيّن وتتراجع، وفي نفس الوقت لديك من العقل ما لا يجعلك ترتكبُ خطيئة.

أمّنَ على كلامه هجرس والديب، فقال مراد:

– ما بالكم تتحدّثون عن المغامرة كأنّكم من أهلها، كلّكم تعيشون الحياة الرتيبة، كالوقت الهادئ قبل غروب الشّمس، حتّى هجرس الذي غامر كثيرًا عاد في النّهاية إلى نفس الطريق الذي تسيرون فيه، فلماذا تريدون أن أقفزَ هكذا في الهواء وأنا في هذه السنّ؟!

رانَ صمتٌ على الجميع حتّى قطعه عفيفي وقال:

– عندي لك عروس.

– هاتِ ما عندك يا صديقي، ولو أنّي أعرف النهاية، في الحقيقة أنّني خضتُ ثلاثَ تجارب مبْهِرة، هيّا قُل.

***

استقبلتْه مدام نورا بنفسها في منزلها، مصحوبًا بابتسامة واجبة.

في غرفة استقبالٍ واسعة، كانت أمّها القعيدة تجلس بجوار المدخل، فسلّم عليها، فحيّته بودٍّ مصحوبًا ببعض الأدعية، أشارتْ إليه مدام نورا لمكانِ جلوسه في غرفة الصّالون المفتوحة على المدخل.

جلسَ ورأسُه يمور بالأسئلة المبْهَمة، قال عفيفي مجموعةً من التفاصيل، منها أنّ لها ولديْن شابّين، يدرسان في الجامعة، أين هما؟

كانت مدام نورا تميلُ إلى أمّها، منصتةً لكلمات هامسةٍ بينهما، وهي مُصغية باهتمام، ثمّ ربّتت على كتفها، وقبّلت رأسها، ثمّ أقبلت عليه.

سمراء فاتنة، في عينيها جرأة وقوّة، ترتدي عباءةً سوداءَ تكسو جسدها فتحدّد تضاريس تبدو متناسقة، وتغطّي جزءًا كبيرًا من شعرها الذي يبدو أسودَ فاحمًا، جسدُها ممتلئ بغير سمْنة، جلست إليه كأنّها تعرفه منذُ زمن، لا يبدو عليها خجلُ البدايات، ولا صمتُ النّساء الذي يسبق العواصف، ما هذه الدّاهية التي رميتني إليها يا عفيفي!

– ما رأيك أن نشرب قهوة؟

– لا مانع، أشربها مضبوطة.

ابتسمت له:

– نعمْ مضبوطة، يبدو أنّك تحبّ كلّ شيء موزون كالذّهب.

هزّ رأسه مبتسمًا، بينما مدّت يديها إلى صينيّة من النّحاس بجوارها، عليها معدّات القهوة كاملة، وراحت تشعل الموقد الصّغير، وأمسكت علبة البنّ وفتحتها، ثمّ استنشقتها بعمقٍ قائلة:

– البنّ المحوج بالحبّهان وزرّ الورد لا يُعلى عليه، يأتيني من متخصّص مشهور، رائحته تسكرني، تحبّه بالتّحويجة؟

– لا مانع، أحبّها على كلّ ألوانها.

بينما كانت ترقبُ القهوة وهي ترقدُ على النار الهادئة قالت:

– أمّي مسكينة، قعيدةٌ منذ سنوات، ليس لها إلّا أنا، أخدمُها بعيوني، سعدت عندما علمت أنَّ أحدًا سيتقدّم طالبًا الزّواج منّي، كانت الآن

توصيني بحُسن استقبالك، فقد استحسنت وجهَك، وقالت إنّ النور يشعّ منه.

– شكرًا جزيلًا، أتمنّى لها الشفاء العاجل.

تنهّدت بأسى وقالت:

– كانت إحدي مشاكلي الرئيسية مع طليقي، لم يكنْ يحبّها، كثيرًا ما تطاول عليها بلسانه الذي يرقدُ في فمه كالحيّة، فإذا ما نطق بثّ سمومه في كلّ اتّجاهٍ.

– تحتاج الأمّهات في هذه السّن، وخاّصة بتلك الظّروف، إلى الاهتمام والحبّ والرعاية.

– لم يكنْ طليقي يعي ذلك للأسف الشديد، وكنت أقول له إنّ الأيام دوّارة، فربما تكون في موضعِها يومًا ما، قدّم لحياتك خيرًا، فلا أحد يعرف إلى أين سيرمي به القدر.

– نعم، نسأل الله العافية.

– كمْ كان طليقي بخيلًا شحيحًا بالخير، عانيتُ معه معاناةً ضخمة، كان يضنّ باللقمة الصّغيرة التي كانت تأكلُها عندنا، فكنتُ أخبّئ لها الطّعام حتّى لا يثور علينا، وفي مرّة اكتشفَ ذلك فضربني، تصوّر ضربني لأنّني أطعم أمّي.

– يا لها من قسوة بغيضة.

– مع العلم أنّ طليقي كان فقيرًا، وكانت أغلبُ النقود التي أنفقها من مالي الخاصّ، فلي ذمتي الماليّة الخاصّة من ميراثٍ كبير لأبي رحمه الله، وكان يأكلُ ويشرب ويرتدي ثيابه من مالي، ولو اشتريتُ لي شيئًا يتّهمني بالتبذير.

كانت تصبّ القهوةَ بتؤدَةٍ، فتضع القليلَ في الفنجان، ثمّ تديرها داخل الكنجة ثمّ تصبّها بهدوءٍ، حتّى امتلأ الفنجان عنْ آخره، قرّبته من أنفِها، واستنشقت بخارَه بمتعةٍ، ثمّ وضعته أمامه وقالت:

– بالصّحة والعافية.

– أعجبني قبل أنْ أشربه من طريقة إعدادك له.

– شكرًا على ذوقك، جبَرَ الله بخاطرك، كما جبرْتَ خاطري، رأيت كيف لكلمةٍ جميلةٍ أن تملأ روحَ امرأة عطشَى للحنان، للأسف كان طليقي بخيلًا حتّى في مشاعره، فلا يقول لي كلمة حلوةً واحدة، ولا يقدّم لي امتنانه على شيء، بل يعتبر أنّ ذلك حقّ طبيعي لا يستوجب الشّكر.

ارتشف مراد رشفةً صغيرةً، أعجبه مذاقَها كثيرًا:

– فعلًا القهوة رائعة، ومن الواضح أنّك تفهمينَ فيها.

– إنّها سلوتي الوحيدة في حياتي الجافّة، وكثيرًا ما أجلس وحدي، وأعدّها، وأسهرُ معها أناجيها، وأحكي لها أسراري، الغريبُ أنّ طليقي لم يكنْ يحبّها، ولا يطيق رائحتها، رغم أنّه يدخّن بشراهة، فكنتُ أعدّها وهوَ بالخارج، وأجتهدُ أنْ تذهب رائحتُها من البيتِ قبل عودته.

– هل تحدّثيني عن نفسك.

– آسفة، يبدو أنّني تحدّثت عنْ طليقي كثيرًا في حضورك، وهذا لا يليق، تقبّل اعتذاري أرجوك.

– لا عليك يا سيدتي، تفضّلي أكملي.

– تزوّجت فور تخرّجي من الجامعة، كان طليقي صديقَ أخي، أحبّني يوم أن رآني، وطلبني للزّواج عدّة مرّات، وكان أبي يرفض لتواضع مستواه الاجتماعي، ولضيق ذات يده، ومع ذلك لم ييأس، طاردني كثيرًا بمعسول الكلام حتّى وقعت في حبّه، ومات أبي في سنتي الأخيرة من الكليّة، فكانت فرصتُه الكبرى، وتزوّجته، وأقسم لك أنّني اشتريتُ له كلّ شيء حتّى ملابسه الدّاخلية، ومع ذلك لم يقدّر لي ذلك أبدًا، بل ازداد طمعًا ونهمًا.

حكّ مراد رأسه، وهو يمتلئ بالغيظِ من سيرة طليقها التي تقصّها عليه مدام نورا، ولكنّه كان مضطرًّا أن يتحمّل قليلًا، علَّ الموضوع يتغير، ولكنّها واصلت بإصرار منقطعِ النّظير:

– سأقول لك شيئًا خاصًّا، لا يليق أنْ أذكره، ولكنّي واثقة من أنّك ستتفهّم.

– نعم تفضّلي.

– كان طليقي رهيبًا في العلاقة الخاصّة.

الدّهشة تغطّي وجهَ مراد من جُرأتها، ومع ذلك لم تلتفتْ؛ بل كانت تحكي وعيناها معلّقتان على الحائط، وكأنّها تصفُ مشهدًا ماثلًا أمامها:

– كان قويًّا، ومبدعًا، وقادرًا على إمتاعي وإشباعي، ولكنْ كان عيبُه القاتل، ظنّه أنّ كلّ مشكلةٍ في الحياة بيننا حلُّها أنْ يجرني إلى السّرير، ظلّ يستنزف مشاعري حتّى كرهته، وكرهت مجرّد لمسِه لي.

تعرّق وجهُ مراد خجلًا ممّا يسمع، ولم يعرفْ كيف يردّ، شعرتْ به فقالت:

– أعتذرُ يا أستاذ مراد لخوْضي في مثْل هذه المواضيع، دعْنا من هذا الرّجل، ماذا كنّا نقول منذ البداية؟

– كنتُ أريدك أنْ تحدّثيني عن نفسك قليلًا.

– نعم، نعم، نسيت..كما قلت لك تزوّجت فوْر تخرّجي، وأنجبت ولدين، ما شاء الله زينةُ الشباب، أدبًا وخلقًا، كنت أتمنّى أن أنجب بنتًا، ولكنّي تعمّدت أن أتوقّف عن الإنجاب، عندما رأيت طليقي لا ينفق على أولاده، سواء بالمال أو بالحنان، فكان ينقمُ عليهما بسبب اهتمامي بهما، وكثيرًا ما كان يطلبني للفراش، ولكني كنت في تلك الأثناء مثْقَلة ومتعَبَة بأولادي، وهو لا يعذر ولا يرحم، ما يريده يأخذه حتّى لو كنت ميّتة.

هزّ مراد رأسه، موحيًا لها بإنْصاته، بينما كان يقول في نفسه: يا إلهي! بينما تواصل بلا رحمة:

– تصوّر يا أستاذ مراد، أنْ تعاني امرأةٌ جميلة وثريّة مثلي مِن القهر والظّلم والوحدة، أجزم يا سيّدي أنّني محسودة، الجميع يظنّ أنّني أعيشُ في رغد وهناء، ولكنْ صدّقني، لقد عانيت الوحدةَ الشّعورية، وأنا في عصمةِ طليقي، ثمّ قذفني إلى وحدةٍ أبشع بطلاقنا.

بدا له أنّها ستبكي، فقال :

– لم تفكّري يومًا في العودة إليه؟

جحظتْ عيناها مندهشةً، وقد فغرَ فوهَا، ثمّ انتبهت وقالت:

– مستحيل، يا سيدي.

– أرى الأفضل أنْ تعودي إليه، ألم يحاول؟

– طوالَ الوقت يسعى لذلك بكلّ قوّته، لقد توسّط له طوبُ الأرض، ولكني مازلت مصرّة.

– وأولادك؟

– للأسف، نقطةُ ضعفي الكبيرة، يحبّون والدهم، ويتمنّون عودته للبيت، ويضغطون عليّ بقوّة.

– وهل يوافق الأولادُ على زواجك؟

– بالطّبع يرفضون، وقد يشكّلون عقبة كبيرة، ولكني لا أطيق أنْ أجلس هكذا وحيدةً بلا رجل، أعاني كثيرًا من ذلك، وقد شكوتُ لطبيبتي عدّة مرّاتٍ من أعراض جسديّة تصيبني، فكانت تقول ستختفي بالزّواج.

تنهّد مراد بسخريّةٍ داخلية، وقال:

– تسمحي لي أن أتوسّط لطليقك، وأطلب منك أن تعودي إليه؟

– أستاذ مراد، أنتَ هنا لطلب يدي للزّواج، كيف تفعل ذلك؟!

– أظنّ أنّ ذلك هو الأنسب لك.

ثمّ وقف مبتسمًا، متهيّئًا للانصراف، فنهضتْ قائلة:

– مازال الوقتُ مبكّرًا، هلّا جلست قليلًا، فالحديث معك ممتع.

- يكفي هذا الوقت.

- أنتَ إنسانٌ جميل، وشخصيّة مريحة جدًّا، وأتمنّى أنْ أفعل شيئًا لأجلك، ما رأيك أن أرشّح لك عروسًا مِن أقاربنا؟ ابنة خالتي، امرأة جميلة ومؤدّبة، ساقَها حظّها التّعس لرجل ظالم، ولكنّ الله أنقذها منه بالموت.

كادَ الضّحك يغلبُ وجهه، فاستدار شاكرًا منصرفًا على عجل، محيّيًا الأمّ التي غلبها النعاس.

***

في سيارته، جاءه على الهاتفِ صوتُ مها، فتح الخطّ، وبصوتٍ أشبه بماء الصّباح حين يغمر وجهك ليوقظك:

- ما رأيك أنْ تدعوني الليلة للعشاء؟

ابتسم رغماً عنه، وقال:

- السّاعة تجاوزت العاشرةَ ليلًا، هل سيسمح لك والدُك بمقابلة رجلٍ غريب في مطعم في هذا الوقت؟!

رنّت ضحكتها فأطربتْه:

- ولا في الصّباح ولا في الظّهيرة، ولا في أيّ وقت، إلّا إذا كان خطيبي، يمكنك طلبُه الآن على الهاتف وتخطبني منه، وتدْعوني للعشاء، ثمّ تُعيدني إليه، وتقول لا أريد ابْنتك.

ضحكَ قائلًا:

- اتّفقنا.

– أينَ كنت يا سيّدي كلّ هذا الوقت؟ لقد اتّصلت كثيرًا وكان هاتفك مغلقًا!.

– كنت أصلح بين زوجين.

– الله عليك، وتمّ الصلح؟

– أظنّه سيتمّ.

– هل يحبّها؟

– لا أدري.

– هل تحبّه؟

– لا أدري.

– لا تدري، لا تدري.. كيف إذن تصلح بينهما؟!

سكتَ قليلًا ثمّ همس:

– لا أدري.

– على كلٍّ، أنا بالمستشفى الليلة، لو أحببتَ أن تتحدّث إليّ، أو أنْ تأتي لزيارتي، سأكون ممتنّة لكَ وفي قمّة السّعادة، ولكن لا تأتي بيدِك فارغة طبعًا، وأنت تعلم ما أريد.

ضحكَ مراد وقال:

– نعم أظنّك تحبّين الورد.

– كلّ ما يأتي منك جميلٌ، ولكنّي بالطّبع لنْ آكل الوردَ وأنا جائعة.

جلستْ مها ممتلئة بالسّعادة، وتمنّت أن يطول الوقت الجميل بينهما ولا ينتهي أبدًا، قامت لتعدّ لنفسها فنجانًا من القهوة، فاللّيلُ طويل، وتتساءل.. هل سيتّصل مرّة أخرى كما وعدني حين يعود للبيت، أم سينسى ويذهب للنّوم؟ هل أتّصل به لأذكّره؟ ابتسمت لنفسها متنهّدة، وأدركت القهوة قبل أن تفور، حملتِ الفنجان والتفتتْ فإذا به أمامها، يقفُ مبتسمًا ويحمل في يدٍ وردة حمراء قانية، ذات ساق طويلة، والأخرى تحمل طعامًا وهو يقول:

– وجدتُ نفسي جائعًا، وأنا لا أحبّ أنْ أتناول الطعام وحدي، فقلتُ نأكل معًا.

مها تقفُ صامتة، تبرق عيناها بالانْدهاش، والرغبة بأنْ تلقي ما بيدها وتجري إليه فتتعلّق برقبته وتمطره بالقُبُلات.

تحرّك مراد ناحيتها، مدّ يدَه بعبوة الطّعام، فهمّت بتناولها، فأبعدها ورفع الوردة وقال:

– الورد أوّلًا.

– نعمْ يا أميرَ الرّجال كلهم، الحبّ أوّلًا.

قالتْ له وهما يتناولان الطعام:

– لم أتوقّع أبدًا ولا ارتقى لخيالي لحظةً أن تأتي، كان أكثر طموحاتي ألّا تنسى أن تتّصل بي حين تعود للبيت.

– ولا أنا تصوّرت فعلَ ذلك، بمجرّد أنْ قلت جائعة وجدتني أعدّل سيْر السيارة في اتّجاهك بلا تفكيرٍ ولا ترتيب.

– رأيت كيف تسعدنا المغامرة.

ضحكَ مراد:

– هل تطلقين على ما فعلتُه مغامرة؟

– كلّ متعةٍ في الحياة هي الابنةُ الشّرعية للمغامرة.

– أرجوك، دعي فلسفتَك الآن جانبًا، ولا تتركي من الطعام شيئًا، لن أدعك حتّى تأكليه كله.

– أوافقُ على شرط، أنْ تقصّ عليّ ما حدث الليلة بين الزّوجين المتخاصمين.

– أوافق، كانا مطلّقين.

– وأصلحت بينهما؟

– أظنّ ذلك.

– أنتَ إنسانٌ رائع، يبدو أنّها قصّة حبّ قديمةٍ، وفرّقتهما أحداثٌ ما، أو تدخل أحدهم فأفسد بينهما، وجئت أنتَ لتلتئم الجراح على يديك.

ابتسم مراد:

– يبدو ذلك.

– احكِ لي بالتّفصيل، أرجوك، بالتّفصيل الممل.

– نعم، لكنْ أرجوك أنْصتي لي بدون ولا كلمة.

وضعتْ وجهها بين كفّيها وجلست كقطةٍ، مستسلمةٍ لصاحبها، وفي عينيها استعدادٌ تامٌّ للإنصات:

– الزّوج والزوجة من معارفي القدامى، وكان بينهما قصّة حبّ كبيرة، وقد تطلّقا لمشاكل كثيرةٍ حدثتْ بينهما، وحاول الكثيرون التدخّل للإصلاح، وكانت الزّوجة ترفض رفضًا باتًّا العودة إليه، حتّى تدخّلت، وحينما رأتني المرأة وقعتْ تحت تأثير سحري الخاصّ النافذ، وقالت بخضوع.. ما ستأمرُ به سأنفّذه، فقلت لها تعودين إلى زوجك الآن، فأسرعت تجريَ إليه وهي تقول: السّمع والطّاعة.. السمع والطاعة.

تحوّل وجه القطّة الأليف إلى وجهٍ غاضب، واقتربت منه هامسة:

– ماذا قلتَ عنْ سحرك الخاص النافذ؟

فضحكَ مراد حتّى كاد يبكي..

***

على المقهى في اليوم التّالي، كان الأصدقاء على تلهّف لمعرفة أخبار مراد، فسألوه بمجرّد أن جلس عما فعلَه في زيارة مدام نورا:

– يبدو أنّني على وشك الإضرابِ عن الزواج، والاكتفاء بحياتي وحيدًا.

وجمَ الجميع، فأكمل:

– لقد سئمتُ من دخول البيوت للبحث عن زوجة، ما رأيته بعيني شيء لا يصدَّق، ولو حكاه لي أحدٌ لقلت إنّه يكذب.

- مراد.

- أرجوكم، لا تضغطوا عليّ أكثر من ذلك، أظنّني سأكون سعيدًا ومرتاحًا هكذا، التوأمان وأحفادي وأنتُم تملئون عليّ حياتي، وكلّ احتياجاتي الأخرى، سهلٌ تجاوزها.

سكتَ الجميع ولم يشأ أحدٌ منهم أن يعارضه، فهُم يعرفونه إذا اتّخذ قرارًا لا يقف أمامه شيء، وخاصّة فيما يتعلّق بحياته.

طالَ الصّمت بين الجميع، هجرس ينفثُ دخان شيشته، ويهزّ رأسه بخفوت مستمتعًا بصوت السّت يتناهى إليه من الركن البعيد، (يا حبيبي، كلّ شيء بقضاء، ما بأيدينا خُلقنا تعساء).

عفيفي يعبثُ بهاتفه المحمول، يطالع بعضَ الأخبار، الديب صامتٌ يرقب صديقه، وعلى شفتيه كلام يودّ أن يقوله.

مراد يفكّر في الاستئذان بالانصراف، ولكنّه متردّد، أين يذهب؟ ليس هناك سوى بيته الخاوي، البارد، لا مكان آخر يُغْريه. تذكّر مها، طاف خيالُ ابتسامة على وجهه، كانت سهرة متألّقة، كم يحبّ الجلوس إلى هذه الفتاة، والحديثَ معها، ما أجملها وهي غاضبة، وقبل أن تتّسع ابتسامته، جاءه النّادل وقال:

- أستاذ مراد، هناك امرأة تقف بالخارج وتسألُ عنك.

- مَن؟

- لا أعلم، هذه أوّل مرّة أراها.

وقفوا جميعًا، وقد ساورهم القلق، وأسرع مراد بالخروج ليجد امرأةً متّشحة بالسواد، لا يعرفها، تقف بجوار المقهى على استحياءٍ، اقترب منها متسائلًا، فبادرته:

- أستاذ مراد؟

- نعم، أنا هو.

- أعتذر إذا أتيت في مكانٍ أو زمان غير مناسبين.

- خيرًا؟!

- معك الحاجة فاطمة.

يظنّ أنّ لها حاجة في ديوان المحافظة، فأنصتَ باهتمام:

- تفضّلي تحت أمرك.

- سمعت أنّك تبحث عن عروس.

رفعَ رأسَه مندهشًا:

- ماذا؟

- عندي عددٌ من النساء على قدرٍ عالٍ من الأدب والتّدين، ومن أعمار مختلفة، من سنّ السّابعة عشرة، وحتّى ما فوق السّتين عامًا، أبكار لم يتزوجْن، أرامل ومطلقات، بأولاد وبدون أولاد، كما يوجد نساءٌ لا يُنْجبن إذا كنت لا تشتهي الإنجاب، ومنهنّ الكثير من يوافق على أنْ تكون زوجة ثانية أو ثالثة.

ظلّت الدّهشة معقودةً على وجهه، وألجمتْ لسانه عن النطق، بينما تواصل السيدة:

– ليسَ لهنّ طلبات كثيرة، لا تريد الواحدة منهنّ من الحياة شيئًا أكثر من أن يرزقها الله برجل صاحبِ خلق ودين، يؤنسُ وحدتها ويملأ عليها حياتها بالمودّة والرّحمة، أقول لك، لو فكرت جديًّا في أخذِ خطوةٍ للزواج فعندي من النساء ما تريد وتشتهي وتتمنّى، كلّ مستويات الجَمال، ومن عائلات محترمة.

كانت المرأة سريعةً كالطّلقات، ومرتّبة الكلمات، لدرجة أنّه وقف مشدوهًا لا يجد ما يقوله، وفي غمرة ذهوله أفاق عليها وهي تناوله بطاقةً وهي تقول:

– إذا فكّرت في الزواج يمكنك التواصلُ معي عن طريق أرقام الهواتف الموجودة فيها.

واستدارت وخطتْ خطوتيْن، حين أفاق مراد فقال بسرعة:

– لو تكرّمت..

فاستقبلته بوجهها، فقال لها:

– مِن أين علمت أنّني أبحث عن عروس؟

ابتسمت:

– أولادُ الحلال كثير.

ثمّ انصرفت.

استدار مراد ليجدَ أصدقاءه الثّلاثة وقوفًا خلفه، فنظرَ إليهم وهو لا يدري، أيضحك أم يبكي، ثمّ اختار أنْ يضحك قائلًا:

– فضيحتُنا بجلاجل في أنحاء المحروسة يا شلّة الكراكيب، يبدو أنّ الوطن العربي كلّه عرف أنّني أبحثُ عن زوجة.

في البيت، كان الفضول يأكلُ رأسه، لن ينام قبل أنْ يعرف، أمسك بالبطاقة، نظر إليها، اسم المرأة يتوسّطها وتحتها بخطّ أصغر جُملة، فاعلة خير لا تبتغي سوى رضا الرّحمن، ثمّ أربعة أرقام لهواتف، ثلاثةٌ محمولة، وواحدٌ أرضي.

لم يتردّد في الاتّصال بها، وبعد أن عرّفها بنفسه قالت:

– ما شاء الله، هذا أسرع اتّصال جاءني بعد عرض الزواج، تفضّل يا سيدي، تحت أمرك، هل تفضّلها صغيرة السّن؟ هناك رجال في سنّ حضرتك يستهويهم الفتياتُ الصغيرات، أم تريدُها في سنّ متوسّط، أم قريبة منك؟

– وأهلُ الفتيات الصغيرات يوافقون بسهولة على رجلٍ في عمري؟

– بأسهل مما تتخيّل.

– بالتّأكيد هؤلاء مهورهنّ عالية.

– ليست كما تتصوّر، هذه بيوت تبحثُ عن ستر البنات في زمنٍ عزّ فيه الرجال، على العكس سنّ حضرتك مطلوب كثيرًا، وتفضّله أغلبُ طبقات النّساء إذا ما قورن بشباب هذه الأيام.

- ما هو أقلّ سنّ عندك للفتيات؟

- يبدو أنّك تفضّل الصغيرات، لديّ عدد لا بأس به، ومن عائلات طيبة، عندي من سنّ السّابعة عشرة.

- وأهلُها يوافقون على رجلٍ في مثل سنّي؟!

- نعم يوافقون، ولكن هؤلاء قد يغالون بعضَ الشّيء في طلباتهم.

- كمِ المهرُ مثلًا؟

- ربّما عشرة آلاف، ولا يزيد عن عشرين ألف.

- والذّهب؟

- لا يحدّدون رقمًا، فهو هديّتك لها، ولكنّك بالتأكيد ستقدّر الأمر بشكل جيد.

- ليسَ لهم طلبات أخرى؟

- سكنٌ مناسب ومؤثّث، وهم لا يشاركون في شيء، الشقّ المالي كلّه عليك.

- هذه أشياء يسيرةٌ لأيّ رجل يريد أن يتزوج.

- هوَ كذلك، ولكنّ شرطهم الأهمّ ألّا تضربها أو تهينها، إذا رأيت استحالة العشرة بينكما، كلّ ما عليك هو طلبُ أهلها، والانفصال بهدوء، مع إعطائها حقوقها، كلّ شيء يا سيدي يسير، طالما قصدنا التّيسير، لقد عملتُ في مهنة الخاطبة لأكثر من ثلاثين عامًا، وأصبحت مشهورةً بين قطاع كبير من راغبات الزّواج، والحمد لله أتممتُ زيجات كثيرة وناجحة.

- وهؤلاء الفتيات مِن القاهرة؟

- بالطّبع لا، القاهرة والإسكندرية، والمدن الكبيرة، ترزح تحتَ نيْر المظاهر، والمرأة فيها الكبيرة في السّن التي تتزوّج بهذه الطريقة البسيطة تفعلها غالبًا في السّر، ومشكلة هذا النوع من الزّواج أنّ المرأة تكون فيه مجرّد وسيلة للمُتعة لا أكثر، لا سكن، ولا مودة، ولا حتّى رحمة، وإنْ كانت صغيرة بكْرًا فسيقولون إنّها تصلح خطيئة ارتكبتْها بالزّواج هكذا، لم تقل يا سيدي، هل أرشّح لك عروسًا؟

- سأعاود الاتّصال بك في وقتٍ لاحق.

***

الخبرُ السّعيد جريدةٌ أسبوعية واسعة الانتشار، اجتماعية بالدّرجة الأولى، تعنَى بالناس ومتطلباتهم من الحياة، الجمهور هدفُها الأساسي، صفحاتها وأبوابها المتنوّعة تخاطب كلّ احتياجاته، بداية من عقله، بالأفكار الإيجابية، ومرورًا بوجدانه، من خلال الفنّ والأدب، واكتشاف المواهب، ثمّ العناية الصحية بجسدِه، تقدّم كذلك خدماتٍ كثيرة، مثل البحث عن الوظائف، والمفقودين، البحث عن زوج أو زوجة، البحث عن صديق أو صديقة، دائمًا مع المسئولين الذين يقومون بخدمة النّاس من خلال وظائفهم، تطرح عليهم أسئلةَ الجماهير واحتياجاتهم المتنوعة.

وضعَ مراد بطاقة التّعريف بالجريدة، في حين دخلتِ السّكرتيرة لتبلغه بوصول الآنسة علياء عسل، إلى قاعة الانتظار، قطّب جبينه، وقال:

- مَن؟

– الصّحفية بجريدة الخبر السّعيد، وقد طلبت موعدًا من أسبوع، وراجعت مواعيدك، وعرضتها عليك ووافقت، وهو مدرجٌ أمامك في جدول أعمالك اليوم، وقد أدخلت لك بطاقة التعريف بالجريدة حتّى تستعدّ لاستقبالها.

نظرَ مراد لجدول المواعيد، وهو يقول لنفسه، لديّ سكرتيرة سريعة الطّلقات، هزّ رأسه متعجّبًا من الارتباك الذي يخلفه النّسيان في الفترة الأخيرة، ثمّ أشار لها بأنْ تُدْخِلها.

تعوّد منذ طول فترة عمله بالعلاقات العامة على لقاء الصحفيّين، وأصبح يعرف الكثير منهم بصفة شخصيّة مِن دوام التردّد عليه، ولكنْ هذه أوّل مرّة يسمع باسمِ هذه الصّحفية، وبينما هو مشغول، إذ انتبه على صوتِ دخول السّكرتيرة، ومعها الصحفية علياء عسل.

انتصب مراد مبتسمًا واقفًا بترْحاب، فقد غمرته طلّة أنثوية جذّابة، أزاحت بسرعة كلّ وجوه النساء التي مرّت عليه في الفترة الأخيرة، وجه أبيض مستطيل، يحملُ عينين واسعتين، بنيّتين، يحاصرهما خط من الكحل كالسّوار، يزيدها جمالًا، ووجنتان صاعدتان لأعلى، كقمّة جبل مغرية بالتسلّق، وابتسامة مطلة من شفتيْن رقيقتين تبينُ عن صفٍّ من اللؤلؤ، في حماية أنفٍ مدبّب كالنّصل، يستدير مع وجهها شعر أصفرُ كستنائيّ مُنْسدل حوله، كألوان السّماء بعد غروب الشمس، يصل بتدريجاته إلى كتفيها، ترتدي فستانًا زهريًّا قصيرًا، يكاد يصل إلى الركبتين، مقلّمًا بخطوط طوليّة كأنها قضبان زنزانة،

تسجن مَن يجرؤ على الاقتراب أو اللمس، عاري الكتفيْن والرّقبة، وجزء لطيف من الصّدر، لم تضيع الصحفية الوقت فمدّت يدها لتصافحه بابتسامةٍ عذبة:

- علياء عسل، صحفية بجريدة الخبر السعيد.

حين استقرّت يدها بيده لثانيةٍ ونصف، شعرَ بنعومة وطراوة تتغلغلُ في أعماق صحراء جسده، سحبت يدها وهو يودّ لو أنّها تركتها قليلًا.

نظرتْ إليه السكرتيرة مُنْدهشة، ولم يغبْ عنها إقبالُ مراد الاستثنائي على الصحفيّة بالحفاوة والابتسام، وهي تقول في نفسها.. حتّى أنت يا أستاذ مراد تنهار بهذه السّرعة أمام الأحمر والأصفر؟! ثمّ نظرت بغيظٍ للصحفيّة، وهي تصرخ بداخلها في وجهها.. ألم أتلُ عليكِ تنبيهاتِ الأستاذ مراد، مدير عام العلاقات العامة بديوان عام المحافظة، ألّا تصافحية باليد على حسب التّعليمات الصّادرة منه لكلّ جنس النّساء، تنهّدت بحرقة، لا أمان لرجل أبدًا، رحمَ الله زوجتك، لقد نجّاها الله من نزق مراهق تجاوز الخمسين، يدّعي الوقار، وها هو ينهارُ أمام امرأةٍ ليس فيها مسحةٌ واحدة من الجمال، ولكنّها عيون الرّجال الفارغة، التي ترى في البريق الزّائف ما يشغل العيون.

قطعتِ الصّحفية تدفّقَ أفكار السّكرتيرة العاصفة، حين باغتتها بعاصفةٍ أشدّ، إذ جلست ووضعت ساقًا على ساق لينحسر فستانها عنْ ركبتيها المستديرة البيضاء، وما فوقها بقليل:

- أريد شايًا خفيفًا بدون سكر.

التفتت السّكرتيرة إلى مراد، الذي ابتسم لها كأنّه يقرأ ما يدور بأفكارها، وأشار برأسه قائلًا:

– والقهوة المضبوطة لي.

انصرفت السكرتيرة، وقد التبسها الغيظُ، فيما بدا لمراد أنْ يترك مكتبه ليجلس قبالتها، ويتحدّث معها عن قرب. تحرّك خطوتين، ولكنّه مالبث أن تراجع، متعللًا بتردّد عن تذكره لمكالمة هاتفية يجب عليه أن يجريها.

ما شعر به مراد لا يستطيع أن يصفَه أو يفهمه، ولكنّ شيئًا جارفًا اكتسح رغبته، فشعر بحرارة تشتعل في جسده، ما أنِ اقترب من المجال الجوّي لأنوثتها، فوجد نفسه وقد جلس أمامها جاثيًا على ركبتيه، وقد أمسكَ ساقها يتحسّسها بشغف، ثمّ يمطر ركبتَها بالقبَل، وقبل أن يتمدّد خياله لأبعدَ من ذلك، هزّ رأسه قليلًا لينفض تلك الصورة التي اقتحمته بلا مقدّمات، وأججت النار في صدره.

لعنَ الله الاحتياج الذي أشعل أفكارَه بأحلام نزقة، ويأبى أن يغادره.

سيحتاج وقتًا ليس بالقليل ليعود الموج المتدفّق إلى شواطئه هادئًا رتيبًا. أمسك بالهاتف، يبحث عن رقم لا يعرفه، وشخص مجهول لينشغلَ فكرُه بالحديث معه، تذكّر فجأة مها، فاتّجهت أصابعه المتوترة للبحث عن رقمِها، ضغط على زرّ الاتّصال بدون تفكير، بينما رنّ الجرس في الجهة المقابلة، دخلت السكرتيرة ومعها عاملُ البوفيه، فأغلق الهاتف بسرعة، ثمّ جعله على الوضع الصّامت، فمها لن تتركه حتّى تعرف لماذا اتّصل بها.

طلبَ من السكرتيرة أن تجلس معهما، لتسجّل ما قد يعنُّ من أفكار أو متطلبات من الجريدة.

بدا التعجّب على وجهها، ثمّ قالت في نفسها وهي تجلس: لقد ظلمتُ الرّجل، وقد تصوّرت أنّه يصرفني بأيّ حجّة لينفرد بها، ثمّ أخذت نفسًا عميقًا، وهي تتطلّع إلى وضعيّة جلوس الصحفية، ثمّ ابتسمت ابتسامة خبيثة، وسحابةٌ عابرة من المكر تمرّ على نظرتها، وواصلت حديثها الداخلي، غبيّة مَن تظنّ في الرّجال الخير، والأدب والأخلاق الحميدة، تلك محضُ مظاهر، ولكنّها أفخاخ للنّساء، مثل الألوان التي تطلي بها الهانم وجهَها، لتتصيّد البلهاءَ منهم، ربما تبادلا أرقام هواتفهما في غيبتي، أرأيت كم كان مضطربًا وهو يمسك بهاتفه حين دخلت عليهما؟ هو الآن يريد أن ينفي أيّ شبهة عنه بجلوسي معهما، قاتل الله الرجال، لا يكبرون أبدًا، ولا ينضجون، مراهقون من المهد إلى اللحد.

بدا مِن بداية الجلسة الصّحفية إلى نهايتها أنّ علياء عسل، امرأةٌ جادّة، لا تمزح أثناء العمل، ولا تتطرق لأحاديثَ شخصية مع أحد، ولا يمكن أن تقول كلمة تحملُ معنييْن، كان ذلك واضحًا منذ أن جلست في مكتب مراد وحدهما، أو في وجود السّكرتيرة كذلك، جاءت بحفنة من شكاوى المواطنين، كانت تستعرضُها وتفصلها كأنّها صاحبة المشكلة، تسأل عن تفاصيل الحلول ومواعيد الانتهاء منها، اندمج مراد في العمل واستدعى أكثرَ من موظّف مختص ليحيل إليه مشاكل المواطنين وتساؤلاتهم، وأجرى كذلك

بعض الاتصالات بمسئولين، وأبدى تجاوبًا معتادًا في عمله معها بشكل كبير، مؤجّلًا صورة فستانها المنحسر لحين عودتِه للبيت والانفراد بنفسه.

انتهى اللقاء بطلب علياء إدخالَ المصوّر الصحفي لالتقاط بعض الصّور معه، لنشرها في الجريدة.

في الطّريق إلى صحبته، اتّصل بمها، والتي أمطرت هاتفه باتّصالات كثيرة ومتتالية، وما إن فتحت الخطّ عاجلته بوابلٍ من الأسئلة المعاتبة:

– توًّا تذكّرتني! أين كنت يا أستاذ كلّ هذا الوقت؟ يأتيني اتّصال قصير منك ثمّ تختفي ولا تردّ على اتّصالاتي، وتتركني نهبًا للقلق؟!

مراد يضحكُ للعاصفة التي تهبّ عليه، ولا يرد، يبدو أنّ صوت ضحكته وصل لمسامعها:

– أنت يا أستاذ، لم لا تردّ؟ ما الذي يضحك لهذا الحد؟ أستغفر الله العظيم، ردّ حضرتك.

وكأنّها تحدّث نفسها:

– ماذا أفعل في هذا الرّجل؟ ما هذا البرود الذي يعاملني به؟ ردّ حضرتك أرجوك، ردّ سعادتك، ردّ يا صاحب السعادة.

مراد مُسْتمتع بغضبِها هكذا، ظلّ يكتم ضحكَه، وظلّت تتكلّم، حتّى قرّرت أن تجعله يردّ بالفعل، فنادتْ عليه فجأة:

– مراد.

انتبَهَ على مناداتها له باسمِه مجرّدًا من لقب أستاذ، المرّة الماضية اعْتذرت وقالتْ إنّها لم تقصد، هذه المرّة تعمّدت، وقبل أن يردّ كانت قد قفزتْ متعمّدة كلّ الحواجز بينهما:

– مراد، أنت تثيرُ غضبي، أنت شخصٌ مستفزّ، سأغلق الهاتف ولن أكلّمك ثانية.

أخيرًا، تمالك ضحكَه وتصنّع الجديّة:

– مراد هكذا دونَ ألقاب يا ستّ مها؟!

– لفظ أستاذ هذا يثيرُ غضبي، أشعر أنّه سورٌ ضخم بيننا.

– وهل من المفترض أنْ تزول الحواجز بيننا؟

– وما الذي يجعلها موجودةً من الأصل؟

لحظة صمتٍ بينهما، سكتتْ مها، تشعر أنّها تجاوزت الحدودَ بالفعل، ولكنّ هذا ما تريده، واستغلّت غضبها لتلقي ببالونة اختبارٍ لمراد لترى كيف ردُّ فعله، تراجعت قليلًا وانخفضَ صوتها، وبنبرةٍ ماكرة غيّرت الموضوع:

– أين كنتَ منذ الصّباح؟ ولماذا اتّصلت بي هذا الاتّصال القصير؟ هل كان هناك شيء؟ لقد تركتني نهبًا للقلق.

متصنّعًا الغضب:

– كان اتّصالًا بالخطأ، وأنا أعتذر لكلّ القلق الذي تسبّبت فيه، سأغلق الآن، سلام.

– أعرفُ أنه لم يكن اتّصالًا بالخطأ، وسأعرف السبب.

أغلقَ الهاتف دون أن يردّ عليها وألقاه بجواره، وهو يعلم أنّها لن تتركه، وستعاود الاتّصال مرّة ومرّات، ومازال يجذبُه نفس السؤال، ما الذي يعجبه في طريقةِ تعاطي مها معه لدرجةِ أنّه لا يتضايق منها، وإن كان يُبدي لها عكس ذلك؟

في سهرتِه مع الأصدقاء، لم يتطرّق من قريبٍ أو بعيد إلى الحوار الصّحفي، أو الصحفية، ولكنّ وجهَها وهيئتَها لم تغبْ عن تفكيره طوال الوقت حتّى أفاق على محمد عفيفي وهو يطرحُ سؤالًا متوجّهًا به إلى هجرس:

– هل تعبّر الملابس عن شخصية الإنسان وما يعتقده؟

– بالتّأكيد، ملابسُ الإنسان هي عنوانه، بل هي إحدى اللّغات التي نتعاملُ بها بيننا وبين الناس.

تدخّل مراد بسؤال مفاجئ:

– هل يمكنُ اعتبار امرأةً تلبس ملابسَ قصيرة كمثالٍ منحرفةً؟

– الملابس لا تدلّ على انحرافِ الشّخص من عدمه، الملابس تُعطيك مجموعة من الدلالات الفكريّة، ومجموع تصرّفاته وأفعاله هي التي تحكم عليه.

قال الدّيب:

– لا تحاول إقناعي بأنّ امرأةً متحرّرة في ملابسها، ترتدي ما يكشفُ أكثر مما يسْتر، وتتّخذ من جسدِها المكشوف سلعةً لمن يشتهي؛ أنّها مستقيمة،

وأنّ ما تفعله من مقتضيات المدنية والتحرّر، أليس لباسُها هو أحدَ تصرّفاتها وأفعالها؟

– نعم هو ذاك، ولكنّه يدلّ بشكلٍ كبير على مجموع تصوّراتها ومعتقداتها، يعني مثلًا يمكن لامرأة أنْ تنشأ في بيئةٍ تتميّز بالرقيّ والأدب والأخلاق العامّة الجيدة، ولكنّ بيئتها متحرّرة في ملابسها، وترى أنّ ذلك أمرًا عاديًّا لا غُبار عليه، فتأتي كلّ تصرفاتها العامّة متّسقة مع الضمير والأخلاق، مع أنّ لباسها لا يدلّ على ذلك.

راحةٌ نفسية مع ابتسامةٍ غزت نفسَ مراد، غير أنّ الديب لم يعجبه كلام هجرس:

– ولكنْ يجب أن يتّسق المخبَرُ مع المظْهر، لا يمكن أن تقنعني بأنّ امرأةً ترتدي ملابس فاضحة، تثيرُ غريزتي أنّها ذاتُ أخلاق حسنة.

قال هجرس ممازحًا الديب:

– غريزتك! استحِ يا رجل، لا تتحدّث بجرأة هكذا عن شيء لا وجود له.

ضحكَ الدّيب ساخرًا:

– دعْنا نتحدّث عن فحلٍ مثلك، ألا تثيرك امرأةٌ بملابسها مهما كانت أخلاقها حسنة؟

– أنا رجلٌ تثيرني المرأة الجميلة دائمًا، مهْما كانت ترتدي.

تدخّل عفيفي:

– تلك نظرةٌ حيوانية، نحن نتحدّث عن عاقل متّزن، يتعاملُ مع المرأة باحترام، ولا يطلق بصرَه فيها.

قال هجرس بجديّة:

– لا شكّ في ذلك، ولكنْ على المرأة في المقابل أنْ ترتدي ملابسَ لائقة، وأنْ تعلم أنّ مناط شهوة الرّجل في جسدها، فأيّ عاقل مهْما كان اتّزانه يمكن أن يهتزّ لمرأى ملابس مثيرة على امرأة، ولا ينكرُ ذلك إلّا رجل بَغْل.

– بغل؟!

– لو رأى البغلُ آلافًا من إناث الحمير هل تهتزّ فيه شعرة؟!

– لا بالطّبع.

– وكذلك البِغَال من الرّجال، هم وحدهم مَن يدافعون عن الحريّة الشخصية للمرأةِ في ارتداء ما تشاء، ويزيّنون لها ببريق الارتقاء بالنّظر لجسدها، فوق كوْنه مثيرًا للشّهوة، أو لهوًى خاصّ في تعريتِهِن بدعْوى المدنية، بغرضِ تحويلها إلى سلعةٍ للاتّجار بها، وهو المنتشرُ على جميع الأصعدة.

ابتسم مراد من تشبيهِ هجرس، وقال في نفسه: الحمدُ لله أنّني مازلت رجلًا.

قال الذّيب:

– صحّح المصطلح، فقلِ الذّكور بدلًا من الرجال، فالرجلُ الحقيقيّ لا يلهث وراء النساء كالحيوانات بمجرّد رؤيتهنّ.

– رجلٌ أم ذكر، لا يعنيني ذلك في شيء، سمّها ما تشاء، المهمّ أنّ غرائزي لا تتوقّف عن العمل.

عاد مراد إلى نفسه مبتسماً: الحمدُ لله؛ فأنا رجلٌ وذَكَر.

***

سارَ مراد كعادته من المقهى إلى البيت، وحيرةُ النّقاش تراوده، يميل لكلا الرّأيين بعدما تعاملَ مع علياء، ولكنّه عاد يقول، لو طالَ فستانُها قليلًا، ولو لملَمَتْ شعْرَها، أو ارتدتْ حجابًا بسيطًا؛ لما اشتعل جوفي بحريق الرّغبة.

في اللّيل، رنّ جرس هاتفه من حجرته بينما كان هناكَ في المطخ يعدّ كأسًا من الحليب السّاخن، لم يهتمّ كثيرًا، بالتّأكيد مها، ومَن غيرها يتّصل في تلك الأوقات! ستعاود الاتصال حتماً.

جاء الاتّصال لمرّة واحدة على غير العادة، وشعرَ أنّه قصير كذلك، تعجّب قليلًا، وقال ربّما مازالت غاضبة. ابتسم لنفسه وقال: مها، يا لها من امرأة!

عادَ إلى هاتفه ليجد رقماً غريبًا، اتّصل به، ليردّ عليه صوتٌ أنثويّ عامر بالدّفء، اهتزّ له جسده:

– أستاذ مراد؟

– نعم، معك، مَن يحادثني؟

– علياء.

– مَن؟!

– نسيتني بهذه السّرعة؟ الصّحفية علياء عسل.

تصدّرت صورتها في مكتبِه المشهدَ أمام عينيه، ابتسم، وقد تفتّحت مسامّ جسده، وتمدّدت على شقّ الرّغبة:

– أهلًا وسهلًا.

– أتّصل في وقتٍ غير مناسب؟

– لا أبدًا.

– كنتُ أريد أن أسجّل شكري الجزيل لك، لقد قابلت مسئولينَ كُثر، ولكنّني لم ألتقِ بمثلك، في الذّوق والأدب والاحترام، والتعاون الجادّ لحلّ مشاكل الناس من موقعك.

– العفو يا سيدتي، هذا واجبي.

– كلّهم ينمّقون الكلمات، ولكنّ أفعالهم صفرٌ للأسف، لا يهمّهم الناس، ولا يلتفتون لمشاكلهم الحقيقيّة، كلّ همّهم المكاسب والامتيازات التي سيحصلون عليها في الفترة التي يعتلون فيها مناصبَهم، والصّورة التي سيظهرون بها في وسائل الإعلام، ولا يجيدون شيئًا سوى المراوغة والتّلميحات السّيئة.

ماذا لو عرفت ما كان يدورُ بداخلي أيّتها الفاتنة؟ لغيّرت رأيك. ابتسم مراد لسؤالِه الدّاخلي، وقال:

– ربّما كانوا معذورين قليلًا.

– قلّة الأدب لا عُذرَ فيها.

تدارك سقطتَه:

- نعمْ بالتّأكيد.

- يجبُ أن يرتقي الرّجال في مجتمعاتنا العربية في نظرتهم لجسدِ المرأة، والجنس بشكلٍ عام، يجب أن يتوقّفوا عن تقييم المرأة أخلاقيًّا وثقافيًّا وفكريًّا من خلال ملابسها، واحترام الحريات الشخصية، يجبُ التّسامي عن فكرة جعل المرأة سلعة، فلسْنا في زمن الجواري، هل أنت معي يا أستاذ مراد؟

مراد منْدهشًا من انطلاق حديثها بكلّ تفاصيله الجريئة:

- بالطّبع.. بالطّبع.

- هل تعلم أنّني في كلّ مقابلة مع مسئول، أجدُ غمزًا ولمزًا وتصريحًا وتلميحًا بشكل فجّ، حتّى وصلتْ في إحدى المرّات لمساوماتٍ جنسيّة وعروض مالية كبيرة في مقابل ذلك.

- لهذه الدّرجة!؟

- وأكثر ممّا تتخيّل، حتّى من بعض الشّخصيات التي نتوسّم فيها التّدين.

- إلى هذا الحدّ!؟

- لا تخيبُ نظرتي في الإنسان أبدًا، هل يمكن أنْ نكون أصدقاء؟ ويكون بيننا تواصلٌ من آنٍ لآخر، فأنا أبحثُ عن إنسان أثقُ به، ربما أحتاجُ مشورته في بعض الأمور، أريد أن أتحدّث معه دون خوف، دون أنْ أشعر أنّه يريد مني شيئًا، لا تتصوّر يا سيّدي كم تركت مقابلتُك أثرها الطّيب في نفسي، حتّى أنّني لم أستطع النومَ قبل أن أهاتفك وأشكرك.

– العفو يا سيدتي.

– يبدو أنّني تكلّمت كثيرًا وأثقلت عليك، اعْذرني، وأكرّر شكري مرّة أخرى، تصبح على خير.

ما هذه المرأة؟ وماذا تريد؟ هل تلمّح لشيء معين؟ أم أنّها تنطلق هكذا بحسن نيّة؟

حين أغلق الخطّ، كانت مها على الانتظار بعدّة اتّصالات، ابتسم وهو يضعُ الهاتف بجواره، ثمّ تنهّد بعمق، لا مكانَ لك الليلة، فصورةُ علياء عسل هذه المرّة أكثر وضوحًا وقربًا ونزقًا. جذب الغطاء ليحلّ الظّلام على رأسه، تاركًا أخيلتَه تشتعلُ بنيران الرغبة.

***

استقبلتْه بوجهٍ محايد، مصحوبٍ بابتسامة صباحيّة رمادية عابرة مع التّحية، شرعت في العمل دون كلمةٍ واحدة، ثمّ اخْتفت، لم يتوقّع أن تتركه لحظة، طال الوقت حتّى وجدَ في صدره ضيقًا، فرنّ الجرسَ بجواره، فجاءت:

– أين كنتِ كلّ هذا الوقت؟

– ماذا تريد؟

صدمته إجابتُها الجافّة، ولكنه أكمل:

– غاضبة منّي؟

– ولماذا أغضب؟

– لأنّني لم أردّ عليك أمس.

– أمس، وأوّل أمس، وأوّل أوّل أمس، أنت لا تردّ دائمًا، ولا تتّصل بي إلّا نادرًا، إلّا إذا كنت تحتاجني، أو ربّما حين لا تجدُ امرأةً تتحدّث معها، فتبحث عن القابعة على دكّة الاحتياطي.

كانت تتكلّم ببرودة شتاء لايأبَه للعرايا، وهي منشغلةٌ بمتابعة عمل الجهاز، نادتِ الممرضة، وأوصتها بأن تنهي الجلسة معه، ثمّ انْصرفت.

مثّل ردّها وطريقة كلامها صدمةً كبيرة له، فهذه أوّلُ مرّة تعامله بهذا الجفاء الحادّ.

استطاعت مها بتصرّفها العنيف أنْ تحتلّ مساحة تفكيره طوالَ اليوم، فكان متجهّمَ الوجه، مشغولَ الفكر، مشهدُ وجهها وهي تردّ عليه، وطريقةُ إهمالها المتعمّد، وانْصرافها دونَ أيّ كلمة؛ لا يفارقه، ظلّ يتلكّأ بعد انتهاء الجلسة على أملٍ أن تأتي، حتّى أنّه سألَ الممرضة عنها، فأخبرته بانشغالها مع حالة أخرى.

كان أكثر ما يضايقه هذا الانشغال بتصرّفها معه، ويسأل نفسه.. لَمَ عليك أن توليها كلّ هذا الاهتمام؟ هي مجرّد فتاةٍ صغيرة، وطبيبة وضعَها القدرُ في طريقك لفترةٍ معيّنة، وسرعان ما ستنتهي، أم يضايقك إهمالُها المتعمّد؟ لقد قامت بدورها الذي تقوم به معَ الجميع، أم تريد أنْ تجري وراءك طول الوقت؟ أم أنّك تعوّدت على وجودها؟لم يعدْ هناك أسئلة سوى سؤالٍ واحد، هل تحبّها؟

أخيرًا ابتسم مراد لسلسلةِ الانفجارات التي خلّفتها الأسئلة بالسّؤال الأخير، وهو يجيب، ربما لو كانت أكبرَ سنًّا لوقعتُ في حبّها، فهي شخصيّة جذّابة، أو كما يقول هجرس، امرأةٌ كالقطار، ولكنْ مها؟ مستحيل.

غيابُها تركَ مساحةً من الفراغ الشّعوري، سرعان ما ملأته علياء.

لم تتأخّر كثيرًا على مراد، فبعدَ آخر اتّصال بينهما، بدأت سلسلةٌ من الاتّصالات الليلية، تبادره بالسؤال والاطْمئنان، ثمّ تعرّج على حياتها.

علياء في الأربعينَ من عمرها، مطلّقة، ولديها بنتٌ متزوّجة، تبدو أصغرَ من عمرها على الأقلّ بعشر سنوات، مُفعمة بالحيوية والشّباب، متدفّقة ومُقبِلة، ولكنْ تمنعها حواجزُ كثيرة، تحيطُ بها وتراقبها عن كثَب، حتّى وجدت ضالّتها في مراد.

ومراد رجلٌ ناضج، وذو مركز اجتماعيّ راقٍ، لم ترَ في عينيه نظرةً خبيثة، أو في كلامه ما يوحي بشيء مُريب ناحيتها، لا تريد مطلّقةٌ وجميلة من رجلٍ أكثرَ من ذلك لتثقَ به، ثقة تجعلها تفرغ حمولتها المؤلمة عنده دونَ خوف.

النّساء حولها لا يسْتمعن لأحد، كلهنّ يثرْثِرن بأوجاعهِن، لا تبوح المرأة ببعضِ أسرارها العاطفية عادة لامرأةٍ مثلها، فالتّنافر والغيرة والحسدُ بين الأشباه معروف، بل تميلُ للحديث إلى المختلف، تجد في ذلك متعتيْن؛ متعة التّنفيس عن أوْجاعها لمن يُنصت لها، ومتعة الانجذاب الفطري والقرب اللطيف، وفوران الأحاسيس الرّاكدة في جسدها.

علياء كغزالٍ وحيد في غابة، ترتاب دائماً في كلّ حركةٍ تصدر حولها من الرّجال، تجربتها الشخصية في الحياة مؤلمةٌ لحدّ الجنون، والتي فتحت لها بابًا واسعًا لتكتشف كم النّساء الوحيدات حولها، والذي يفوق الخيال، مصايد خصبةٌ للحيوانات المفترسة، التي تقترب بذكاءٍ نادر، وينصبْنَ الأفخاخَ الملوّنة لتقع فيها كلّ غزالةٍ شاردة، لتجد نفسها بين فكّي حيوانٍ ضارٍ ينهشه الجوع، فيفترسُها بلا رحمة، أو تنهشه المتعة في القتْل، وفقط.

على الرّغم من حذرها الدّائم، إلّا أنّها وجدت ضالّتها في مراد منذُ أن جلست إليه في لقائهما الأوّل، برغم أجراس الإنْذار التي تسكنُ خلاياها، إلّا أنّ راحة طاغيةً سكنتها ومالت إليه، هل تعبت من كثرة الحذر، أم أنّها اشْتاقت للسّكن؟

حتّى استسلام مشاعرها، لم تتركْ نفسها له، فقد عاد الشّك لها، فبدأت تدعمُ هذه الثّقة بالسؤال عنه في محيطِ معارفه، فجاءت الإجاباتُ كلّها تساند اقترابها منه، ففتحت أبوابَها على مصراعيها، بدأتها بمجموعةِ اتّصالات ليليّة، ولم يكنْ لديها مانعٌ في لقائه، لوْلا مكانته الوظيفيّة فخشيت أن تسبّب له بعضَ الحرج، فاكتفتْ بأحاديثهما عبر الهاتف، وانتظار أيّ مناسبة عامّة لرؤيته.

- تدري أنّني كنت محجّبةً منذ سنّ السابعة عشرة؟

بشيء من التعجّب:

- غريبٌ هذا، رغم أنّك الآن عكسَ ذلك تمامًا، وبإفراط.

صوتُ ضحكتها كفيلٌ بدغدغة كلّ ذرّةٍ فيه بالرّغبة:

– وكنت كذلك مُفرطة في حجابي وتديّني، حتّى اكتشفتُ أنّ كلّ ذلك وهْم.

– الإفراطُ هو الوهْم، أم التّدينُ في حدّ ذاته؟

– كارل ماركس قال: الدّينُ أفيون الشّعوب، وقد صدقَ في ذلك، ما هو التّديّن عند المرأة؟ طول القماش السّاتر لجسدها؟ أسماءُ الأعضاء الواجب تغطيتها أم المختلف عليها عند الفقهاء؟ المشكلةُ كلّها يا سيدي في النّظرة الحيوانية، الشّرهة، المتخلّفة لجسدها، التي لا تراه إلّا وجبة دسمة شهيّة، جاهزة للافتراس إذا حانت اللحظة، المصيبة الأكبر في اللوم الملقَى على جسد المرأة، لا عيون الذّكور، ونفوسهم الدّنيئة، إذا ارتقت هذه النظرة، وارتفعت عن الشّهوة، ورأت الجمال الإنسانيّ فيها؛ فسوف ترتدي المرأةُ ما تشاء دون أن تشعر أنّها سلعة رخيصة محاطةٌ باللصوص.

تتكلّم بلا حساب، ومنطقُها غريب في رؤية الأشياء وتفسيرها، كان يحدّث نفسه متسائلًا كيف يردّ عليها، فلمّا طال صمته لحقته هي:

– أعذرك يا سيدي، فآرائي دائمًا صادمة، فهي تكسر التّابوهات الراسخة في وجدان المجتمع، وأنا أحاربُ ذلك بشتى الطّرق.

قال ضاحكًا ليخفّف وطأة الحوار:

– وتمتلكين أسلحةً لهذه الحرب الضروس؟

– الوعي يا سيدي، هي الحرب الأكثرُ مشقّة.

– وملابسُك من بين أسلحتك؟

ضحكتْ في الجهة المقابلة:

– كنت أعلم أنّك ستتطرّق لذلك، مازالت فيك بقايا ذكوريّة على الرّغم من تحضّرك ورقيّك في تعاملِك معي، وأعزو ذلك بالتّأكيد إلى نشأتك، نعم ملابسي ضمن أسلحة الوعي التي أشْهِرها في وجه المجتمع، بل من أهمّها على الإطلاق.

لا ينكر أنّ علياء امرأةٌ جميلة ومثقفة، وتميل إليها نفسه، جرأتها في تناول الأشياء أكثر ما يقلقه، ولكنّه على كلّ حال يجد متعةً لحديثها، جذّابة تجعله يقترب من توهّجها أكثر.

قرّر مراد– بعد تعامل مها بجفاء معه– أن يتوقّف عن متابعة جلسات العلاج، يشعر بتحسّن كبير في ساقيه، وكذلك ليخرج من الدّائرة التي أحاطته بها، خاصّة وقد بدأ الاهتمام بعلياء يكبر بداخله، ويستولي على حيزٍ أكبر من تفكيره واهتمامه، ومها تشغله بتصرّفاتها التي لا معنى لها.

عدّة ليالٍ تالية، لم تتركه علياء، تلاحقه دائماً بالرّسائل أو الاتصال والاقتراب، ومراد في أوْج متعته بحديثها، ويرى أنّها تحمل المواصفاتِ التي أشار إليها هجرس حين تحدّث عن المرأة المقتحمة، فهي تكتسحُ مشاعره، وتلهب جسدَه، وتعيد باقترابها إحياءَ كلّ كيانه من جديد:

– تزوّجتُ صغيرة، لم أتعدّ السابعة عشرة وقتها، كنت فتاةَ العائلة، ونجمتها الأولى، طلب أبي مهرًا كبيرا، ومثله في جهازي، ومجوهرات كثيرة، ومسكنًا يليقُ بمستوانا الاجتماعي، وأقيم لي حفلُ زفافٍ أسطوري، كان حديثَ القاهرة، وأثّث لي بيتًا راقيًا فاخرًا، وتلقّيت هدايا ثمينة، وكتب أبي قائمةً بجميع محتويات المنزل، وجعل زوجي يوقّع عليها بالكامل لصالحي قبل الزّواج.

– ووافقَ زوجك على كلّ ذلك دون اعتراض؟!

– شابّ وسيم، من عائلة كبيرة، تتمنّاه كل البنات، وقع بصره عليّ في إحدى الحفلات، تعلق بي إلى حدّ الجنون، حاول بكلّ الطّرق أن يكلّمني ويتعرف بي، فلم أستجب له، واستطاع الوصول لي عبْر الهاتف، فلم أتجاوب معه، فنشأتي وتربيتي تمنعني من ذلك، ولم أتحدّث إليه سوى بكلمتيْن.. هاك أبي، يمكنك التحدّث معه فيما تريده. فذهب إليه من فوره وطلبني للزواج، ورفضَ أبي لصغر سنّي، فكرّر الطلب وتكرّر الرفض، وكلّما صدّه تعلق أكثر، وتوسّطت له شخصياتٌ من وجهاء المجتمع، فلم يستطعْ أبي ردَّهم، فغالى في طالباته، فاستجاب لها كلها، ولو ملكَ الدنيا وقتها لمنحها لي عنْ طيب خاطر، أو هكذا تصوّرت!

– كلّ ما تحكيه ينبئ عن قصّة زواج ناجحة، فما الذي جعل كلّ ذلك ينهار؟!

– ما حدث، كان ظاهرُه الرحمة وباطنُه العذاب، كلّ ما في الأمر أنني كنت بالنسبة له امرأةً بعيدة المنال، صيدًا صعبًا، لم يجرّبه قبل ذلك، كان يكفي أن

يتواجد في مكان لتتقافز النّساء حوله كالقرود، فيدور المغرورُ بشبابه ومالِه بعينيه، ليبحث عن أبعد امرأةٍ عن محيطه ليذهب إليها، رأيت كيف تصنع النّساء لؤمَ الرّجل؟

– فهمت، كلّ هذا البذخ ليحصل على قدرٍ كبير من المتعة في مطاردةِ فريسة.

– نعم يا سيدي، وأكثر مما تتخيّل، لتبدأ خريطتي في التغيير.

– كيف؟!

– كانت أحلامي تتّسع للكون كلّه بحياة طيبة هانئة، ارتديت الحجاب بعد زواجي، ونويت تهيئة بيتي الجديد لحالةٍ من الاستقرار النفسي، ولكنْ جاءت الليلة الأولى برياح لم تشتهِها سفني، فتكسّرت أشرعتي، وتحطّمت مجاديفي، ولم يخطرْ على بالي أنني سأغرق في بحر الظلمات، هل ستصدّقني فيما سأرويه لك؟

– وما الذي يدعوني لغير ذلك؟!

– حين دخلنا إلى البيت بعد حفل الزفاف، تخيّلت وتمنيت أن يحملني بين ذراعيه القويتين، ويمطرني بالقُبُلات، ويُغرقني بالحب، ولكنّه تركني عند الباب، وسبقني بخطوات، ثمّ جلس على أقرب مقعدٍ، ووضع بكبرياء ساقًا على ساق، وأشعلَ سيجارة، وأخذ عدّةَ أنفاس بشراهة، وبكلّ غطرسةِ الدنيا أشارَ لي بأصبعه، فتقدّمت نحوه وأنا مندهشةٌ من تصرّفه، فأشار إلى حذائه وقال: اخلعيه. فوقفتُ مبهوتة، فصرخَ في وجهي، وعيناه يتطاير منها غضبٌ

لم أره من قبل! قلت لكِ اخلعي حذائي. فارتعدتُ خائفة، ثمّ وجدتني أنحني على ركبتي راكعة، وأنا مذهولة، أخلع له الحذاء.

كان مراد غارقًا في الصّمت على الجانب الآخر، كأنّه في حلم، بينما واصلت علياء بوحَها المؤلم:

– ثمّ قام إليّ، وجذب طرحتي بعنفٍ مؤلم، جعلني أصرخ، فصفعني على وجْهي، وجذبني إلى غرفة النّوم، وقد ألجمتني المفاجأة، ثمّ قام بتمزيق فستانِ فرحي، وأخذ يجذب كلّ ملابسي، وهو في حالةِ هستيريا أقرب للجنون، حتّى تركني عاريةً تمامًا، ثمّ قام باغتصابي بكلّ ما تحمله الكلمة من معنى.

تحشرج صوتُ علياء، كأنّها تقاوم البكاء، ورفعت صوتها قليلًا لتتجاوز انهيارها:

– قاومتُه بقوّة، ويبدو أنّ مقاومتي كانت تزيده ضراوةً وعنفًا ومتعة، حتّى نال ما يريد، وظلّ يضحك كالمجنون حينما رأى دمَ بكارتي المسفوح على سرير نرجسيّته، ثمّ قام إلى زجاجة خمر ففتحَها، وجلس يحتسيها باستمتاعٍ ويدخّن معها حتّى أتى على آخرها، وأنا أجلس في طرف السّرير، أضمّ ركبتي إلى صدري من الألم، وجسدي كلّه ينتفض، والدّموع تتسابق غزيرة بلا توقّف، ثمّ لم يرحمْ حالي، فقام إليّ ثانية، حاولت هذه المرّة مقاومته، ولكنْ كانت قواي قد خارت، فاستسلمتُ له، وصرتُ كالخرقة البالية بين يديه، يفعلُ بها ما يشاء، ثمّ عاد، وعاد، حتّى انتهيتُ تمامًا ورحتُ في غيبوبة.

احتار مراد كيف يردّ على صوت بكائها، فسكتَ، وظلّ رجْعُ دموعها يصلُ إليه، حتّى أغلقت الهاتف.

***

في الطّريق إلى عمله، أمسكَ بالهاتف واتّصل بعلياء ليطمئنّ عليها، فقالت له بصوتٍ مكتنز بالامتنان متجاوزةً كلّ البروتوكلات بينهما:

– مراد، ممتنّة جدًّا لاتّصالك هذا، أحياني من جديد، لقد مرّت ليلتي بأصعب مما تتخيّل، مجرّد اهتمامك وسؤالك بعثني من الموت، هناك شيء قويّ يجذبني إليك، فوق قدرتي على مقاومته، متجاوزة كلّ محاذيري، أتمنّى فقط ألّا تخذلني.

لم تمنعْه مكالمة علياء الصّباحية من التّفكير بمها، فلم تتّصل كعادتها، حتّى بعد أن فوّت موعد الجلسة، لم يتوقّع أن تهمله هكذا، قال لنفسه ربّما قد حدثَ مكروه لها، فكّر كثيرًا في الاتّصال بها، ولكنّه تردّد، وعلى مدار اليوم وانشغاله في العمل، كان يتطلّع من آنٍ لآخر إلى شاشة الهاتف السوداء، والتي كانت تصيبُه بالاكتئاب من لونها القاتم، حتّى مضى أغلبُ النهار وعندما همّ بالتحرّك بعد انتهاء عمله، أضاءتِ الشّاشة، ولكنْ باسْم علياء:

– غالبتُ نفسي كثيرًا حتّى لا أتّصل بك وأعطّلك عن عملك، ولكني لم أستطع، صوتك يملأ كياني بالأمان، هل يمكن أن تحدّثني لدقيقةٍ واحدة فقط؟

السدّ المنيع الذي تحيط به نفسَها تشقّق وتداعى.

يستقبلُ حديثها ويبادله بدفء وحفاوة، ويترك للنّهر أن يأخذ مجراه الطّبيعي، فهو يبحث عن زوجة يسكنُها؛ فالوحدةُ تؤلمه، وهي تبحثُ عن رجل، تضع رأسّها على صدره، وتغمض عينيها مطمئنة، تميل إليها نفسه، ويجدها امرأةً شهيّة، يمكن تعوّضه سنواتِ الحرمان، ظلّت معه على الهاتف طول الطريق في أثناء عودته إلى بيته:

– مكثتُ خمسَ سنوات في بيته، وخمْسًا مثلها في المحاكم، ثمّ أحصد الثّمار المرّة لمدّة خمسة عشَرَ عامًا، حتّى وجدتك.

– لم تكتشفي أثناءَ خطبتك له عن وجهِه الحقيقي!

سكتتْ علياء كأنّها تتذكّر، ثمّ قالت:

– أصدِقُك القول، كانت كلّ المؤشّرات التي تلقّيتها قبل الزواج تحذّرني منه، جاءتني رسائل كثيرة من نساءٍ لا أعرفهنّ بشكل مباشر وأخرى مبطّنة، ولكنه كان حلوَ الحديث، والرغبة تملأ عينيه بالشّوق والهيام، وموافقتُه على مغالاة أبي أعْماني، ورأيت في المعاناة التي تطلّ من وجوههنّ مجرّدَ حسد، حتّى أبي الذي تلقّى تحذيرات هو الآخر من عدّةِ مصادرَ قابلها بغطرسة، وقال: لا يجرؤ أن يمسّ شعرةً من ابنتي بأذى، سأسجنُه بما في يدي من أوراق وتعهّدات.

– وهل نفعَ كلّ ذلك؟

ضحكتْ بأسى:

– لا، لم ينفعني بشيء، فقد ماتَ أبي بعد عدّة شهور من زواجي، ووجدتني أصارع الحياة وحدي في بحرٍ متلاطم، زوجٌ سكّير، عربيد،

يمارس خيانتي كما يتنفّس، وكنت خاضعة خائفة، فازداد تديّني، واقترابي من الله، واختلفت إلى مسجدٍ بجوار البيت، وتعرّفت إلى صحبةٍ من النساء، كنت أجدُ معهنّ بعض السلوى، وأخذنَ ينصحنني بالصّبر عليه عسى أنْ ينصلح حاله، خاصّة بعد أن أنجبتُ ابنتي الوحيدة.

– ألم يتحسّن قليلًا بعد إنجاب ابنته؟

– للأسف، كان الأمرُ يزداد سوءًا، حتّى فاض الكيلُ فتحدّثت مع أمّي وإخوتي الذكور في مسألة طلاقي، فلم أجدْ تعاطفًا مع الفكرة، واعتبروا ذلك إهانةً للعائلة لم تحدُث من قبل.

– غريبٌ أنْ يتعامل الأهل مع ابنتهم هكذا!

– المظهرُ العام للعائلة هو القاعدةُ الأساسية التي ينطلقون منها، دون اعتبارٍ لاحتياجاتي النفسية، بالإضافة إلى أنّ إنجابي يجعل الطلاقَ في منتهى الصعوبة.

– وبالتّأكيد أمروك بالصّبر، وأنّ هذا نصيبك من الحياة.

ضحكتْ علياء بصوت مسموع وقالت:

– نعم.. نعم، هو ذاك، كأنّك كنتَ معنا، الجميع يا سيدي دائمًا وأبدًا يأمرُ الضّعيف بالصبر.

– ثمّ؟!

– ثمّ صبرت مضطرّة، ولكنْ كان تعبي يزدادُ ضراوة، وضغطُ الإهانة والإهمال والهجر يذبحني كلّ ليلة، ففي السّنتين الأخيرتين لم يمسّ شعْرةً منّي،

حتّى بلغت الطّامة الكبرى حين راودني أحدُ أصدقائه عن نفسي، وقال إنّه يشعر بمعاناتي، ويعرف أنّ زوجي يهجرني، مثّل كلامه مفاجأةً صادمةً ألجمتني عن الكلام، فأغراه سكوتي أكثرَ فتجرّأ واقترب، وفوجئت أنّني في حضنه، ويمطرني بالقُبُلات فصرختُ في وجهه، فتراجع وهو يقول، لا تضيّعي شبابك في مرار الصّبر، وعندما أخبرت زوجي ضحكَ ملء فيه، وقال: لا أصدّقك، تقولين ذلك لتثيري غيرتي.. ثمّ عاود الضّحك والشرب، وهنا قرّرت أن أخوضَ معركتي وحدي، فلم يعدْ لي طاقة على تحمّل أكثر من ذلك.

– واستمرت معركتُك خمس سنوات.

– هذه السّنوات كانت مفصليّة في حياتي، تغيّرت فيها كلّ مفاهيمي، وخلعت في أثنائها الحجاب، فقد كفرتُ بكلّ القيم والثّوابت التي زرعوها في رأسي عن الدّين.

هزّت كلماتها قلبَ مراد، ولكنّه لم يستطع مناقشتها حتّى تكمل حديثها:

– لنْ أحكي لك تفاصيلَ كثيرة عن معاناتي في المحاكم ومع المحامين، فأنت بالتّأكيد تعرف ذلك، ولكنّي سأقول لك إنّه وبعدَ العذاب في أروقة المحاكم، إنذارات متعدّدة بالطّاعة، وأحكام بالنّشوز، وشهود زور، حتّى بتُّ على حافّة الانْهيار، فذهبت إليه، وهو ما كان يسعى إليه من الضّغط عليّ، فقد جاءه وقتُ الحصاد على طبقٍ من ذهب، وافقَ على الطلاق، وقال: على شرطٍ واحد. ومدّ يده بورقةٍ مكتوب فيها قائمة بكلّ ما يخطر على بالك وما لا يخطر، أحصى فيها كلّ شيء، حتّى الهدايا الخاصّة التي تلقّيتها بعد الزواج،

ومجوهراتي، لم يترك شيئًا إلّا وكتبه، وفي غمرة استفزازي وقّعتُ له على القائمة، ووقّع عليها شهود كذلك، ونلتُ حريتي بالطّلاق.

– وانتهى الأمر؟

– لا لم ينتهِ، بقيَ الفصل الأخير الذي حوّل حياتي؛ فقد غضب المحامي من تصرّفي دونَ الرجوع إليه، خاصّة وقد أوشكتِ القضيّة على الانتهاء كما يقول، ثمّ أشار عليّ برفع قضية للمطالبة بمستحقّاتي، ووافقتُ لأنّني اكتشفت أنّني خسرت كلّ شيء في غمرة غضبي، ولديّ ابنةٌ لها احتياجات كثيرة ليس بمقدوري توفيرُها في الوقت الحالي، وبدأت رحلةٌ مضنية جديدة كنت في غنًى عنها، وكلّما سألت المحامي، يقول هذه إجراءات شرعيّة، فقلت له بحدّة: ألا تكفي كلّ معاناتي التي عشتها حتّى أحصلَ على الطّلاق من رجلٍ لا أريده بالشّرع، لماذا لا تَذْبح الإجراءاتُ الشّرعية سوى النساء! هل تدري حجمَ الإهانة التي تلحق بي وتقتلني بدمٍ بارد طول الوقت؟

كانت علياء تتكلّم كأنّها تقذف حممًا متتالية، وعقلُ مراد متوقّف، وفي حالة ذهول، حتّى توقفت عن الكلام، وقالت:

– مراد.

– نعم؟

– أين ذهبت؟

– معك، أستمعُ إليك.

- وقفتُ مرّة أمام القاضي الذي طلبَ مثولي أمامه، قلت له: مَن الذي كتب هذا الشّرع الذي يختفي الرّجالُ خلفه ويتحدّثون باسْمه؟ الذي كتبه لم يشعرْ بحجم خجلنا وخصوصيّتنا، وجرح مشاعرنا، أم أنّ المرأة مجرّدُ بهيمةٍ لا قيمة لها، لماذا لا نستطيعُ أخذَ حقوقنا إلّا بالمهانة والذل وكسر خواطرنا؟ هل تعلم يا سيادة القاضي أنّني تجرّعت الذلّ والمهانة- ومازلت- حتّى أحصل على حقوقي، ولم يحدث حتّى الآن، ميراثي من أبي حجبَه إخوتي لأنّني تجرّأت وطلبت الطلاق، الطّلاق نفسه تنازلت فيه عن كلّ شيء في سبيل الحصول عليه، حتّى حضانة ابنتي مهدّدة إذا تزوّجت، وكلّ ذلك يتمّ باسْم الشّرع!

- وماذا قال لك؟

- لم يقلْ، ولم يهتمّ بما أقول، كان مشغولًا بتفحّص بعض الأوراق أمامه، فمددتُ يدي في مفاجأة لم تخطرْ على بال أحد، ولا على بالي أنا شخصيًّا، ونزعتُ حجابي، وألقيتُ به على الأرض وقلت: إذا كان هذا هو الشّرع الذي تتكلّمون كلّكم باسْمه؛ فقد كفرتُ به، وأخرجته من حياتي، أنا يا سيّدي لا أريد تعويضًا في مقابل إهانتي.

***

قطعتِ السّكرتيرة حبلَ أفكاره وأعماله، ودخلت لتذكّره بموعدِ حفل زفاف ابنة السّيد وكيل الوزارة.

في قاعةٍ فسيحة فخمة، كلّ تفاصيلها تبعثُ على البهجة، الإضاءة الملونة تروح وتجيء، والزهور منثورة في كلّ الأماكن، في تناسقٍ بديع بين ألوانها، تتنافس مع جميلات الحفل من النّساء.

ارتدى مراد حلّةً فاخرة باللّون الأسود الماسي، ووقف وسطَ زملاء العمل وبعض المعارف، يتجاذب معهم أطرافَ أحاديث لطيفة، تتناسب مع الجوّ العام للفرح، وظلّت القاعة تمتلئ بالابتسامات والتبريكات والمدعوّين، حتّى ازدادت القاعة بهاءً بدخولٍ مفاجئ لمها بنفحةٍ أنثويّة باذخة، لم يرها من قبل، جعلته يصابُ بالانْدهاش لدرجةِ الشّك في أنّها هي، اتّسعت حدقتاه، وخفقَ قلبُه خفقتين، كأنّهما أصبعان يعزفان على بيانو نغمتيْن قويّتين على السّلم الموسيقي؛ صو، لا.. ثمّ ارتسمت على وجهه ابتسامةٌ بلا معنى، أطلّت كأميرةٍ من تواريخ حكايات الأحلام، بفستانٍ سهرة متلألئ، يكسو جسدها، ويحدّده بتناسقٍ لم يره من قبل، تحملُ حقيبةً صغيرة في يدها، وتقبِلُ بأقدام واثقة نحوه مبتسمة، أحنتْ برأسها انحناءةً خافتة، ثمّ أشارت بيدها خلفَهاً قائلة:

– أبي، مهندس استشاري حازم النّمس.

مبهور الأنفاس، لم يلتفت لإشارتها، فيما اتّسعت ابتسامةُ مها لمنظر مراد، وأكملت تعريفها بالعائلة، وقد مدّتْ حقيبتها بحركةٍ تلقائيّة لتلامسه لينتبهِ:

– أمّي الدكتورة زينب سليم، استشارية طبّ الأطفال.

مدّ يده بسرعة إلى أبيها مرحّبًا، ثمّ انحنى لأمّها بابتسامة، بينما أشارت إليه ملتفتةً لأبيها:

– الأستاذ مراد، مديرُ العلاقات العامة بديوان المحافظة، وأشهرُ مريض متعِب لديّ، وأكثرهم شغبًا.

ضحكتِ الأمّ:

– هذا إذًا الأستاذ الذي لا تتوقّفين عن الكلام عنه!

نظرتْ لأمّها محذّرة، بينما ابتسم:

– لا أظنّ أنّ هناك أكثر شغبًا من الطبيبة مها.

تحلّق الجميع مع بعض الشّخصيات الأخرى لتبادل الأحاديث، وعينا مراد تتبعان مها، والتي لم تعِرْه أيّ اهتمام، حتّى أنّها انسحبت بلطفٍ من هذه الدائرة، وابتعدتْ، وسرْعان ما اختفت.

ركبَه الضّيق منها، وودّ لو لحقَ بها، ظلّ يدور بعينيه في الأرجاء دون جدوى، حتّى فاجأه أبوها بجذب أطرافِ الحديث معه، فتوقّف عن البحث، وألقى له بالاهتمام، وتبادل الحوار.

جاء أبوها في لحظةٍ كالماء المتدفّق الذي يطفئ الحريقَ بدفقةٍ واحدة، فسكنتْ نفسه، حيث أنه لم يجد من المروءة أن يحدّث رجلًا وعيناه تبحثانِ عن ابنته، فاندمج في الحديث معه، ثمّ انضمّت لهما أمّها الطّبيبة زينب، في حديث ودّي، ثمّ أعلنت موسيقى المزمار عن وصول العروسين، فانضمّ أغلبُ الحفل إليهما ليشكّل دائرة حولهما، وبدأت الأصواتُ تعلو بدخول الدّفوف والزغاريد مع أغاني الأفراح المعتادة للفرقة الموسيقية.

في زحامِ الحفل، تراجع مُبتعدًا عن الزّحام، وجلس في ركنٍ قصيّ، بعيدًا عن هذه الضوضاء التي تزعجه، فيما كانت عينا مها ترقبُه من طَرفٍ خفي.

كلّ شيء في القاعة يبعثُ على البهجة، لكنْ طلّةُ مها كانت فوق كلّ بهجة، جاءت الزهرة اليانعة، ولكنّها محاطة بحراسةٍ قوية.

عادتِ التّساؤلات التي ليس لها إجابةٌ تطلّ على رأسه، فقط تروح وتجيء على فكرِه، حتّى قطعتها ظهور مفاجئ لعلياء عسل.

جاء بها القدرُ في موعدها المثالي، فتنتُها كفيلةٌ بإشعال الحرائق في أيّ مكان تدخله.

أزاحتْ ستائر الأسئلة التي حجبتْ عنه الحفلَ والناسَ والضوضاء، حين وقفت أمامه بقوامٍ ناضج، يشهر في وجهه سيفَ الرّغبة، ترتدي فستانًا ورديًّا طويلًا، عاري الصّدر والكتفين، يحيط برقبتها عقدٌ من اللؤلؤ، تتوسّطه جوهرة زرقاء مرخية بتؤدةٍ على مقدّمة صدرها، وعلى وجهها ابتسامةٌ أنعمُ من الحرير.

وقفَ مراد لاستقبالها، يهمس لنفسِه.. ما هذه الليلة!! أقبلتْ عليه وقد اتّسعت ابتسامتُها، ومدّت يدها وتركتها هذه المرّة غارقة في كفّ مراد، واقتربت أكثر وقالت:

– لماذا يجلس الملكُ الشابّ وحيدًا بعيدًا؟

– ربّما كان في انتظار سندريللا.

ضحكتْ كثيرًا للمقابلة اللّطيفة في كلامه، وأردفت وهي تتّخذ مقعدها بجواره:

– صحيح، لماذا تجلس وحيدًا هكذا؟

– لا أحبّ الضّوضاء كثيرًا.

– نعم، وأنا كذلك مثلك.

في أثناءِ تبادلهما الحديث الودّي، كانت الفرقة قد انْتهت من زفّة العروسين، ومن ثمّ انتقلا إلى مجلسهما في الكوشة تتلألأ من حولها الأضواء، وتناثر الحضورُ على الموائد، ثمّ بدأت موسيقى هادئة خلّابة تحيط بالجوّ العام، أرختْ على مراد وعلياء مشاعرَ لعوبًا، وهيّأت مجلسهما لحديثٍ بين القلوب بالهمس، وبين العيونِ بنظرات تبوح أكثرَ ممّا تخفي، وبكلماتٍ راقصة تروح وتجيء بين الشّفاه، توشك أنْ تنبت زهورًا وتطلقَ فراشات.

وقبل أنْ يتّسع الحديث بينهما، وفي التفاتةٍ عابرة منه، وجدَ مها وقد أقبلت عليه في مشيةٍ عسكرية، خفقَ قلبه، وقد تصوّر أنّها ستُخرج خنجرًا من حقيبتها لتطعنه به، سكتَ متحفّزًا، حتّى وقفت على رأسه وفي عينيها نظرةٌ نارية، وعلى شفتيها مسدّس جاهزٌ لتفريغ خزينته العامرة بالطّلقات، تمسكه رغمًا عنها، ثمّ تصنّعت ابتسامةً، وعيناها تروح وتجيء بينهما، وقالت:

– أستاذ مراد، أين كنت جلسةَ العلاج الماضية؟ لم تأتِ ولم تتّصل.

وقفَ وعلى عينيه ابتسامةٌ منتصرة، ثمّ أشار بيده:

– أقدّم لك الصّحفية المتألّقة علياء عسل.

التفتَت مها إليها، وبنظرة يملؤها المكرُ والكيدُ، ورفعت حاجبيها:

– عسل؟!

تنحنَحَ، وقد شعر أنّها توشك أن تتحوّل لوحشٍ مفترس، سيهجم عليها بأسنانها ومخالبها:

– نعم الأستاذة علياء عسل، الصّحفية بجريدة الخبر السعيد.

– واااو، الخبر السّعيد؟ ما أجمله من اسم، لعلّها بشرى سارّة يا سيد مراد.

كانت علياء ترقبُها بعيني أنثى، تقرأ كلّ تفاصيل وتعابيرِ وجهها، منتظرةً تعريفَ مراد لها، والذي أشار لمها وقال:

– الطّبيبة مها حازم النمس.

فردّت لها علياء الصّاع صاعيْن، فقالت بابتسامةٍ ساخرة وهي تهزّ ساقها المعلّقة على الساق الأخرى:

– النّمس؟!

شعرَ مراد أنّ معركة توشك أنْ تندلعَ بين امرأتين دونَ سابق معرفة، فواصل كلامه:

– الطّبيبة مها أخصائية العلاج الطبيعي، والتي تشرفُ على علاجي بعد الحادثة التي وقعت لي.

– نعم أذكرُ كنت حدّثتني عنها بالتفصيل.

نظرتْ مها لمراد بغيظٍ لذكْر حديثه عن الحادثِ بالتّفصيل، ولكنّها تمالكت نفسها، ووضعت ابتسامة على وجهِها مرسومةً بالغصب وقالت:

– لعلّك بخير يا سيدي، أصابنا فقط بعضُ القلق من غيابك عن الجلسة الأخيرة.

– نعم، مررتُ ببعض الانشغالات، فتأخّرت عنك.

فهزّت رأسها، وهي تمسح جسدَ علياء بعينيها، من أعلاه لأسفله، وقالت:

– سننتظرُك الجلسة القادمة، أرجو ألّا تتأخّر كثيرًا، حتّى لا تحدث مشاكل لا تُحمد عقباها.

ثمّ استأذنت وانصرفت.

تنفّس مراد الصّعداء، بينما كانت علياء ترقبه، ثمّ قالت:

– هل يمكن أن تفسّر لي ما حدث الآن؟

كان سؤالها مفاجئًا فانعقدَ لسانه، وعلى شفتيه ابتسامة بلا معنى، ثمّ طال صمتُه قليلًا يبحث عن مخرج، فهزّ رأسه وقال:

– هل يمكن أن تفسّري أنت؟

– نعم يمكنني ذلك ببساطةٍ شديدة، هذه الفتاة تحبّك، وتغارُ عليك بجنون، ويكاد القِدر الذي يغلي بداخلها أنْ ينفَجر.

– ماذا؟!

– هذا أسهلُ تفسير للمشهد الذي حدثَ الآن أمامي، خبرتي في الحياة الطويلة تمكّنني من قراءة وجهِ المرأة بسرعةٍ فائقة، وأضع تحليلًا لكلّ تصرفاتها.

ثمّ اقتربت مبتسمة:

– ليسَ هنا المشكلة، ولكن السّؤال اللازم.. هل تبادلها نفسَ الحبّ، وبين قلبيكما عقدٌ، فأحرقتها الغيرةُ منّي، أم أنّ الحبّ من طرفٍ واحد، وهذا الواحد يحترق والثّاني لا يشعرُ به؟!

– لا يا سيدتي، الأمرُ لا يصل إلى هذه الدّرجة، هذه فتاةٌ صغيرة، لا أظنّها تنظر إلى عجوز مثلي.

– ومَن أدراك أنّ المرأة تنظر لفارق السنّ مع رجلٍ تحبّه، فضلًا عن كوْنه مراد؟

ابتسم مراد:

– شكرًا على مجاملتك اللطيفة.

– هذه حقيقةٌ ناصعة، لا شكّ فيها، ولكنْ أتدري أنّ مشكلة هذه الفتاة تكمن في قطعة القماش التي تضعُها على رأسها، فهي تغلق على عقلها العالمَ الواسع، ولا ترى الدّنيا إلّا من خلال منظورٍ ضيّق.

وقبلَ أن يعلّق، غيّرت الموضوع وقالت:

– مراد، أنت مدعوّ للعَشاء عندي بالبيت، وأرجوك.. لن أقبل رفضَ الدّعوة، أريد أن أجلس معك وحدَنا، وبما أنّك شخصية عامّة ربما تجد بعضَ الحرج في أن نلتقي في مكانٍ عام، فسوف أستقبلُك في بيتي.

***

لماذا تحتلّ مها كلّ مساحات تفكيره، بالرّغم من اقتراب علياء الحميم، وتلميحاتها بأنّ أبوابها فتحت له دونَ سائر الرّجال، كلّ المقارنات الواقعية تذهب لصالح علياء، وكلّ ما يشعر به القلب والميل والمشاعر يميل ناحية مها، ويتّجه لها بقوّة.

لا يستطيع تفسيرَ ذلك، مها هي الصّورة الأوضح في المشهد، رغم كلّ الأسباب المنطقية التي تصبّ في إناء علياء؛ عمرها، ثقافتها، نضجها، قدرتها على أن تفتح القوسَ بذكاء، وتترك له الحرية في أن يغلقه أو يتركَه مفتوحًا، أمّا مها فتفتح الأقواسَ وتغلقها، وما عليه إلّا أن يستسلم لها دونَ مناقشة.

قرّر مراد السّيرَ في طريقه نحو علياء، فهو الأقربُ لعقله، تذكر الليلة أصدقاءه، لم يلتقِ بهم منذ عدّة أيام، هل يهربُ منهم؟ لم يحدّث ابنتيه كذلك عن علياء، وكان من الطّبيعي أن يحدث ذلك، ويستنير بآراء المحيطين به، ولكنّه يشعُر بشيء من الخجل في أنْ يقدّمها لهم كامرأة يريد أن يتزوّجها، فهي إن كانت مقبولةً من وجوهٍ كثيرة إلّا أنّ تبرّجها المثير، وآراءها الجريئة تضعُه في موقفِ ضعفٍ وهو لا يحبّ أن يفعل شيئًا قد يخجلُ منه أمام ابنتيه، أو في موقف المدافع أمام أصدقائه.

لماذا إذن يسيرُ نحوها؟ ربما يودّ لو أنّها بموافقتها على الزواج منه أن تحتشمَ في ملبسها، أو تغيّر شيئًا من أفكارها، كما تفعل أغلبُ النّساء، فالزواج ينسخُ الكثير مما يعيش في عقولهنّ، تنهّدت الحيرة في صدره، جاءت صورةُ مها أمام عينيه، فكّر في أن يتّصل بها ليتكلّم معها، ولكنّه تراجع بعد أن تذكّر موقفها يوم الفرح.

استقبلتْه علياء في بيتها بترحابٍ حميم، ترتدي فستانًا محتشمًا، وتلملِمُ شعرها كذيلِ حصان، وتضع عطرًا خفيفًا ساحرًا، كأنّه قطعة موسيقيّة هادئة تأتي من بعيدٍ في ليلٍ مخْمَلي.

تمورُ نفسُ مراد بالرّغبة كلّما تطلع إلى تلك اللّوحة الفنية الفاتنة، علياء امرأةٌ متدفّقة بالأنوثة، في كلّ ألوانها، حتّى وهي تغطّي جسدها الجميل بلباس فضفاض، تسريحة شعْرها تبرز كاملَ وجهها، وأذنيها والقرطَ المتدلي منهما، وإبريقَ الفضّة الذي ودّ لو جذبها من خصْرِها وضمّها وأمطَرَه بالقُبُلات.

تنحنَحَ في نفسه، وقال لها: هذه بدايةٌ لا تليقُ بزيارة في منزلها.

هدأتْ رغبته كثيرًا حين رأى الخادمَ في آخر الممّر، فتنفّس الصّعداء، وهمس: الحمدُ لله.

المنزلُ واسع يطلّ على النّيل، كلّ قطعةٍ فيه موضوعة بفنٍّ وذوْق رفيع. قدّم لها علبةً فخمة تحتوي على نوعٍ فاخر من الشيكولاتة، استقبلتها بسعادةٍ بالغة.

قدّمت له مشروبًا خفيفًا قبلَ العَشاء مع كلماتِ ترحيب متتابعة، كزخّات عطرٍ مُنعشة.

وعلى المائدة كان أوّل ما أخبرته أنّ الطّعام كلّه من صُنع يديها، تقدمةٌ جميلة، فقد خاطبت كلّ شيء فيه، ولكنّ مغازلةَ معدةِ الرّجل هو ذكاءٌ باهر من المرأة.

لا ينكرُ أنّ كلّ ما تذوّقه من الطّعام كان لذيذًا وممتعًا، ومعدًّا بعناية.

ثمّ.. في شرفةٍ واسعةٍ، جلسا متجاوريْن يرْقُبان النّيل، ونسمات عليلة تروح وتجيء لتضفي على قربهما دفئًا محبّبًا.

دخلتِ الخادم بطاولةِ الشّاي، أشارت إليها علياء بالانصراف، أمسكتْ بملعقة السّكر، كأنّها مطرقة تكسرُ بها جدارَ الصّمت بينهما:

– كمْ قطعة سكّر؟

– اثنتان.

– جميل، مثلي تمامًا.

ابتسم لها وقال:

– كنتُ أتناوله في شرْخ شبابي بسبْعِ ملاعق سكّر على الأقلّ.

– ليسَ معقولًا، هذا رقمٌ مُخيف على الصّحة.

– بالفعل، وقد روّضت نفسي بصعوبةٍ، حتّى قلّلت الكمية، ووصلت إلى هذا الحدّ.

– مراد، أنت لا تعلّق كثيرًا على أحاديثي معك حولَ حياتي.

– تدرين يا سيّدتي، في الشّهور الأخيرة عشت أحداثًا تساوي عمري كلّه، اختلطت بالمجتمع، ورأيت فيه ما أذهلني، كأنّني أعيشُ خارجَ الزّمن والواقع، جعلت أسئلة كثيرة تنهال على رأسي كالمطارقِ بلا إجابة، وجئت أنتِ لتجيبي عليها.

– المجتمعُ ممتلئ عن آخره بحكاياتٍ شديدة الألم، أعجب وأعقد مما تتخيّل.. المشكلاتُ الحقيقية ليستْ هي ما يمكن حلّها ليعود بعدها الإنسانُ إلى طبيعته، إنما هي ما تغيّر كيانه، ليعجز بعدها استعادة ذاته، ويكمل حياتَه مشوّهَ الرّوح، كسير القلب.

- لاحظت ذلك معك، فقد نطقتِ لفظَ الكفر، وخلعتِ الحجاب بجرأة، ورفضتِه كمظهر من مظاهر الشّرع، كأنّك ترفضين الدّين بمُجْمله.

- هذا ما حدث في بداية رفضي، ثمّ أعدتُ تقييم الأمر، فوجدت أنّ الله موجود بالفعل؛ بل ومازلت أؤمنُ به، والأديان كذلك، ولكنّي خلصت إلى أنّه ليس من حقّها التدخّل في شئون النّاس، وكبْت حريتهم في الحياة.

- هذا كلامٌ يحتاج لنقاشٍ طويلٍ، ولا يجب الارْتكان فيه على العقل فقط، هناك خبراء وعلماء يجب الاستنارة بآرائهم.

- شخصيًّا لا أؤمن بهذا، ولا أضعُ عقلي بين يدي أحد، لي مذهبٌ في الحياة أؤمن به، ولا أعتقد في سواه.

- هل يمكنك تفصيله لي؟

- بالطّبع، فأنا أؤمن بالعلمانيّة، والتي تفصل الدّين عن الدّولة تمامًا، وينحصر دورُه فقط في منح حرّية الإنسان لممارسة طقوسه كما يريد، دونَ أن يمنعه أحد، مسلم، مسيحي، يهودي، بوذي، أيّ دين على وجه الأرض، ولا يجب أن يتدخّل في أيّ تشريعات، أو سنّ قوانين على تلك الخلفيّة، ويجب أنْ يتساوى النّاس باختلاف توجّهاتهم أمام القانون، حتّى وإنْ كان للدّين رأي آخر.

- ولكن حصرُ الدّين في مجموعةٍ من الطقوس هو نفيُه تمامًا من الحياة، ماذا نفعل مثلًا في علاقات الزّواج والطّلاق وجميع الأحوال الشخصية؟

– القوانين المدنيّة هي الحلّ الأمثل لكلّ ذلك، ولا علاقة للأديان بذلك على الإطلاق، فإذا اتّفق رجلٌ وامرأةٌ مهما كان اختلافهم في الدّين أو العرق أو اللّون؛ على الزواج، فلا يجب أن يقف حائلًا بينهما شيء.

كانت علياء تلقي عليه آراءها، كملاكم يُمطر خصمَه بلكماتٍ متتالية، وسريعة، حجّتها تربكه، وليس له علمٌ متعمّق بالدّين ليردّ عليها، يشعر أنّه عاش عمرَه كلّه على هامش الحياة، كماكينة في مصنع، تؤدّي كلّ يوم عملها المطلوب، الرّتيب، بمجرّد أن تسري فيها كهرباءُ الصّباح والعمل، دون شيء جديد، ذهبت الذّاكرة في لحظةٍ لتعود الحياةُ إليه بوجهٍ جديد، وجه بَشِع، لم يرَه من قبْل، وجه الحقيقة.

– صدّقني يا مراد، إنّ قبولَ الناس لبعضهم البعض هو الأساس الذي يضبط حياتهم، الأديان تفرّقهم، وتميّزهم عن بعضهم البعض، حتّى أنّها لا تعطي الإنسان الحقّ في ترك دينه، واختيار ما يشاء منها، أو من المذاهب أو الأفكار، وتسمح بقتله في حالة تبديل دينه.

يحاولُ أن يجاريها، ويبدو كمثقّف، وله دراية بالحياة:

– الحياةُ بلا حدود، أو قواعد ربّما تخلق حالةً من الفوضى المجتمعية، وهذا سيجعلني مثلًا أتقبّل الشّواذ.

– عليك أن تروّض نفسك على قبولِ الآخر مهْما كان، شاذًّا، أو حتّى متحوّلًا جنسيًّا، أو يقيم علاقاتٍ جنسيّة خارج إطار الزّواج، ولا يجبُ أن يتدخّل الدّين في ذلك، العلم فقط هو مَن يقول رأيه، فإنْ رأى الطبّ أنّ أيًّا

من ذلك يضرّ بالفرد أو المجتمع، تصدرُ قوانين بمنعه، أو تعيد تنظيمَه، أمّا أنْ يترك الإنسان لكبْتِ الدّين لرغباته، ووضعها في إطار الحلال والحرام، والتهديد بالنّار والعذاب والتخويف الدائم له؛ يجعل الإنسان غيرَ سويّ بالمرّة.

– آراؤك صادمة، لا أتصوّر أنّك تعتنقينها في مجتمعٍ يغلُب عليه التديّن، والعفّة.

– من المهمّ أن نسمّي الأشياء بمسمّياتها الحقيقية، قلْ يغلب عليه الانغلاق، والتستّر على كلّ شيء يرفضُه في العلن.

– حتّى لو كان يفعلُ ذلك في السّر، فستْرُ الفواحش أوْلى من نشْرِها على الملأ، فربّما يتوب مَن يقوم بها، أمّا نشرها فسيجعلها تتمدّد وتنتشر.

– علينا أن نرتقي في نظرتنا للجنس، كلّ كلامك وردودك تدورُ في نفس الأفق الغالب على المجتمع المنْغَلق، إنّ رفض أيّ أمرٍ في الظاهر وفعلَه في الخفاء هو نفاقٌ كبير، الجنس يا سيدي هو أرقى ألوانِ ومراتب الحبّ، والتّعامل معه بهذا الشكل يولّد آثارًا سيّئة على الرجل والمرأة، والمجتمع كلّه، وها أنت ترى وتسمع عنْ حوادث التحرّش والاغتصاب المنتشرة في المجتمع الذي تصفُه بالتدين والعفّة!

– أنتِ بذلك تضربينَ القيم والعاداتِ والتقاليدَ والثوابت التي عاش عليها المجتمعُ لعقود طويلة في مَقْتل.

ضحكتْ علياء بصوتٍ مسموع متشكّل من الألم والسخرية:

- هذه مجرّد أصنام يجب تحطيمُها، أو رؤيتها من زاويةٍ أخرى، الحياة كلّها نسبية، كلّ شيء لا يجعل العالمَ أفضل يجب تجاوزُه، العلمانية يا سيدي هي الدينُ الحقيقي للإنسانية، والعلم فوق الجميع، كلّ ما يثبته العلمُ يجب أنْ يؤخَذ به، وإنْ خالفته الأديان، هذا الصّراع الضاري بين ما نشأنا عليه في مجتمعات متعصّبة وظالمة، وبين التطوّر والحداثة، يجبُ أن ينتهي برفض كلّ ما تربّينا عليه، ساعتها سنلحقُ بركب التطوّر والارتقاء.

سكتَ مراد، وفي عقله يدور كلامٌ كثير، وسؤالٌ يلحّ على رأسه، رفع عينيْه إليها، فوجد علياء تنظر إليه بعمق، كأنّها تقرأ ما يدور بداخله، ثمّ ابتسمتْ واقتربت منه، ووضعت يدَها على يده وقالت:

- مراد، هل يمكن أن نغيّر ذلك الموضوع؟

هزّ رأسه بالموافقة، فقامتْ من فورها، وأدارت أسطوانةً على موسيقى هادئة، ثمّ أحضرت ألبومًا من الصّور، واقتربتْ منه، في أقربِ نقطة بين رجلٍ وامرأة.

مراد لا يشعر بأيّ رغبةٍ نحوها، توقّف الدم الذي تدفّق لمرآها حين دخل بيتها، وأسدلت ستارة سوداء عنْ خيالاته الجنسيّة في أحضانها، والتي كان يشاهدها كلّ ليلةٍ قبل نومه، وحلّ مكانها سكونٌ غريب في جسدِه، وأسئلة كثيرة مطروحة على عقله بلا إجابة.

فتحتْ ألبوم الصور، وأخذ يتصفّح معها الصور، وهي تعلّق على كلّ صورة، بمناسبتها، وذكرياتها، ومشاعرها.

لخّص الألبوم حياةَ علياء كلّها، منذ كانت وليدة، ثمّ مراحل نموّها، يشاهد شجرة تنمو، خضراء صغيرة يانعة، كانت مندمجةً في شرح كلّ صورة، لا تأبه كثيرًا لاقترابها منه، يكاد وجهُها يلامسه، شعرها الناعم، عطرُها، صدرها الطّري حين يلامس كتفَه، كلّ ذلك لم يفلح في إثارته مرّة أخرى.

عادَ إلى الصّور، ليجد زهرةً على غصن الحياة تتفتّح بالمراهقة، على وجهها براءة ملائكيّة، وابتسامة تقطر بالحياء، ثمّ صور خطوبتها، وزواجها، صورها بالحجاب، نظرة نقيّة من ناسكٍ حزين تطلّ من عينيها، قالتْ بأسى وأنفاسُها تلفح وجهه:

– مازلتُ أحتفظ بها، حتّى لا أنسى.

ثمّ أكملت تقليبَ الصّفحات:

– وهذه صورة تخرّجي من الجامعة، بعد طلاقي قرّرت استكمال دراستي التي توقّفت، فالتحقت بكليّة الإعلام بالجامعة المفتوحة، وأتممتها كلّها بتفوّق، اخترتُ هذا الطريق لأكون لسانَ حال المقْهورات.

ثمّ أشارت إلى مجموعة صورٍ خارج مصر:

– كنتُ أجتهد كثيرًا منذ دراستي، فقمتُ بعمل تقارير صحفية، وأبحاث في زوايا المجتمع، وحملت مشكلاتِ المرأة إلى صحفٍ محليّة وعالمية،

وتلقّفتها الصّحف الغربية، ونشرتها، وكان هذا أحد أكبرِ مصادر رزقي، وسافرتُ إلى دولٍ كثيرة بدعواتٍ من جمعيات عالمية مناصرة لتحرر المرأة، تجمع تحتَ مظلّتها كلّ الجنسيات والأديان، وحصلت على عدّة جوائز، وطُبعت لي عدّةُ كتب في هذا المضمار، كلّها عن المرأة.

ثمّ وضعتْ كفّها على عينيه وهي تقلّب الصفحة، وقالت مازحة:

– الصّور القادمة لا تنظرْ إليها طويلًا، قد يذهب بك الجنونُ كلّ مذهب.

ابتسم مراد وأزاح يدَها ليجدَ مجموعةَ صور لها على شاطئ البحر، وقد ارتدتْ لباسَ بحر من قطعتين، أبهرَه تناسُق وكمالُ جسدها العاري، تسير على الشاطئ مُبتسمة، واقفة تميل بجسدها قليلًا، واضعة يدها على خصْرها، وعلى عينيها نظرةٌ متحدّية، مسترخية على كرسي مدّاد، تضع ساقًا على ساق، ووجهها ضاحكٌ سعيد، ممدّدة على رمال الشاطئ كأنّها تسبح في النسيم، أغمضت عينيها، كأنّها في لحظةِ نشوة، لوْلا وجودها بجواره لأطالَ النّظر كثيرًا متفحّصًا مستمتعًا بكلّ جزء من جمالها الأخّاذ، عيناه تلتهمان وتلتقطان بسرعةٍ كالبرق، كلّ تفاصيلها من شعرها الغجريّ المنطلق، إلى أطراف أصابع قدميها، مرورًا بكلّ جغرافيا جسدِها، هضابه المتحدّية، وسهوله الناعمة، وينابيعه العذبة، التي تروي ولا تروي، بالتأكيد سيستدعي تلك الصّور مرّةً أخرى في وقتٍ لاحق، عاد الدّم الآن للتدفّق، مع اقترابها، وعطرها، وصوت الرّغبة في أنفاسها، والموسيقى التي تشعّ على مجلسها بالغواية.

أشارتْ إليها باعتزازٍ وفخْر:

– هذه أوّلُ مرّة أرتدي فيها لباسًا للبحر، فضلًا عن كوْنه من قطعتين، كنتُ في فرنسا، بذلت فيها مجهودًا نفسيًّا كبيرًا، حتّى أتجاوز بقايا موروثاتي المتخلّفة، يا لها من رحلة لا تُنسى، كلّ شيء فيها ساحرٌ مُدهش، هناك تذوّقت الحياة التي يجبُ أن نعيشها، شربتُ منها حتّى الثمالة.

التفتت إليه وعلى وجهها ابتسامةُ نداءٍ هامس، وبين شفتيهما مسافةٌ تقترب من الصّفر:

– أعجبتك؟

هزّ رأسه مبهورًا، اتّسعت ابتسامتها، وعادتْ إلى صور أخرى وقد استرختْ على بطنها، ليتّقد جوفه بالبراكين، ولم يعدْ له طاقةُ صبرٍ عليها، فانتظر أنْ تفتح القوسَ بالتفاتتها مرّة أخرى، ليغلقه بشفتيه مع شفتيْها، ولكنّها قلبت الصّفحة ليفاجأ بعدّة صور أخرى في حمّام سباحة بين يديْ رجل، يسبحان معًا، يتمدّدان بجوار بعضهما على الشّاطئ، وأخرى بين أحضانه، والتي تليها، كانا يتبادلان فيها قبْلةً حميمية.

الماءُ الذي تدفّق من عربات المطافئ كان قويًّا بدرجة كافية ليخمد نارَ شهوته التي كان يتلظّى بها منذ لحظات، عادت بظهْرها إلى الوراء، ووضعتْ ساقًا على ساق، وغامت عينيها في النّيل:

– دايفيد، رئيس تحرير إحدى الصّحف المهتمّة بالمرأة الشرقية في فرنسا، لم يكنْ مجرّد رجل عابر في حياتي، ولكنّه كان مفصلًا مهمًّا في رؤيتي للحياة، لم أقعْ في حبّه، ولكنّه أقنعني بتذوّق الحرية إلى أبعدِ مدى، ولن يتأتّى ذلك إلّا بالجرأة في تحطيم أصنام الأوهام التي تعشّش في عقولنا، شجّعني على التمرّد،

وقال: جرّبي كلّ شيء ثمّ اختاري حياتك. كان أوّلَ رجلٍ مارست معه الحبّ بعد طلاقي، الحبّ الحرّ غير المرتبط بمظهر اجتماعي، أو احتياج مادي، هذا الرجل عرف كيف يدغدغُ كلّ مشاعري، أشعرني أنّ كلّ خليّة في جسدي لها قيمة ومعنى، كان يلمسني كناسكٍ في محرابِ صلاة، لا رجل يمارس الجنسَ لينال ما يُريده هو فقط، استطاع أن يروي جسدي وروحي، ويملأ كياني، ويشبعني حتّى الامتلاء، وتذكّرت ساعتَها زوجي الذي لم يكنْ رجلًا؛ بل جزّارًا، حيوانًا، ساديًّا ذبحَ عمري كلّه، وأضاع شبابي، وحقّي بالتمتع بالحياة والتلذّذ بها.

جاء سردُها لحياتها في توْقيته المناسب، فقدْ فتحت علياء القوس، ثمّ أغلقتْه لأوّل مرّة منذ أنْ تعارفَا، استرخى في كرسيه، ونظرَ بأسًى إلى الأفق، بينما تواصل علياء باقي حكايتِها بأريحيّة:

– يتميّز الحبّ الحرّ بأنّه علاقةٌ بلا قيود، يجذبنا الاشتياق، ويبعدُنا الملل لبعض الوقت، ويمكننا أن نتّفق على الافتراق إذا فقدْنا إحساسنا بالشّغف، لا ضغوط ولا مسئوليات، القدسية التي يغلفون بها الزواج، ما هي إلّا نفاقٌ عام، وسجونٌ عالية الأسوار، وملل ورتابة، وأبواب مغلقة على مآس، تدفع فيها المرأة الثمنَ وحدها.

تواصلُ علياء تبريرَ حكايتها، بينما مراد يختنقُ ويريد أنْ يتنفّس، ثمّ عادت إلى الاقتراب، وعادت لتصفّح باقي الألبوم، لكن مراد كان أسبقَ منها فأغلقه، وقام واقفًا، وبابتسامة مصطنعة، قال:

– لقد تأخّر الوقت، وعليّ الانصرافُ الآن.

ارتبكتْ علياء، فوقفتْ وقالت برجاء:

– أرجوك، اجلسْ معي قليلًا.

تحرّك بإصرار، فلحقته، ووقفتْ في مواجهته كأنّها تمنعُه، وقد غيّرت مجرى الكلام، في محاولة لإقناعه بالجلوس:

– مراد، تصوّر أنّني لم أسمعك ولا مرّة، من يوم أنْ عرفتك وأنا لا أتوقّف عن الكلام عن نفسي، أريد أنْ أقترب منك أكثر، هلّا منحتني الليلةَ هذه الفرصة؟

نظرَ إلى ساعتهِ في حركةٍ تلقائيّة لتأكيد حجّته للانصراف:

– للأسف الوقتُ تأخّر، يُمكننا أن نفعلَ في وقت لاحق.

– مراد، لهذه الدّرجة أزعجتْك حكاياتي، ألا يمكن أن نتناقش؟

نظرَ إليها وعلى عينيه حزنٌ وعتاب، فاقتربتْ أكثر، ووضعتْ يدها على صدره برجاء:

– كان يجبُ أن تعرف كلّ شيء عنّي، وعن أفكاري ومعتقداتي ونظرتي للحياة، وإذا كان ثمّة اختلاف يمكننا أن نتناقش بالمنطق.

– قولي لي يا علياء، هل تحقّق لك السّلامُ النفسي بعد كلّ ما فعلتيه في حياتك منذ خلعت حجابَك وألقيتِه على الأرض، وثورتك وتحطيمك أصنامَ قيم المجتمع وثوابته، وحتّى ترك نفسك لرجلٍ ليلتهمك بدعوى تذوّق الحرِيّة لآخر مدى؟!

عادتْ علياء إلى الوراء بوجْهٍ مُسْتفز:

– نعمْ تحقّق لي السّلام النفسي، الذي لا تعرفُه أنت، ولا مَن على شاكلتك، الذين يعشّش التخلّف في عقولهم.

اقتربَ منها، وقبضَ على ذراعها بقوّة، وبنظرةٍ متحدّية:

– كمْ مرّة مارستِ الحبّ مع رجلٍ غير دايفيد لتتذوّقي الحبّ الحرّ حتّى الثمالة؟!

نزعتْ يدها منه، وتراجعت للوراء:

– ليسَ من حقّك أن تسأل، تلك حياتي، وهذا جسدي، ملكيتي الخاصّة.

اقترب أكثر:

– ما رأيُك أنْ نمارس معًا الحبّ الآن، الحبّ المنطلق، المتحرّر من القيود؟

تفاجأتْ علياء بطلب مراد، فضحكتْ بتوتّر ظاهر:

– والزّواج؟ هل ستحطّم أفكارك المتخلّفة، قيمك وثوابتك وتتحرّر منها؟

– لا شأنَ لك بذلك، دعيني أجرّب مثلك، ونمارس الحرّية لأبعد مدى، فعلٌ رخيص لن يكلفني شيئًا، متعة عابرة بلا مسئولية، إحساس حيوانيّ صرف، ما أحلى ذلك الشعور!

– أنا لا أمارس الحبّ مع حيوان، الجنسُ الراقي هو احترامُ رغبات الجسد، وإشباعها بالحبّ والدّفء، وليس بالحيوانية.

– للأسف يا علياء، أنتِ امرأةٌ مريضة، أذلّ القهرُ روحك، فاستسلمت في اللّحظة التي كان يجب عليكِ فيها أن تقاومي.

كانت كلماتُه قويّةً تضرب بعنف في جوْفها، فبكتْ وقالت:

– لم أمارسْ هذه التجربة إلّا مرّةً واحدة، لم أفعلْها بعد ذلك، حتّى أنّ دايفيد حاول معي مرّة أخرى فرفضت، شيء ما بداخلي دفعني للرّفض.

– لماذا؟! هل استيقظَ ضميرُك، أم بعثت الرّوح في أصنام قيمك وثوابتك؟

– مارستُه فقط لأمنح إرادتي قدرًا كبيرًا من الحرية، حتّى أستطيع بعد ذلك اختيار أفضل حياة لأعيشَها.

– ووجدتِها؟!

نظرتْ إليه برجاءٍ وضعف، واقتربت في تذلّل:

– وجدتُها معك، من دون كلّ الرّجال الذين عبروا في حياتي، فهل تمنحني هذه الفرصة؟ أرجوك يا مراد، لا تتركني.

***

السّتارة السوداء نزلتْ مرّةً أخرى على واجهة حياته، وخلا المسرحُ من المتفرجين، صمتٌ غريب يخيّم على رأسه، لماذا تتعقّد الحكاية كلّما فكّر في البحثِ عن امرأة تكملُ معه ما تبقّى له من أيام في عمره.

الحياة التي أصبحت ثقيلة، بطيئة، ومُتْخمة بالألم، بمجرّد أنْ ولج إلى العالم المجنون، عالم النساء، الذي لم يكنْ يراه إلّا من خلال زوجته،

وحياته الرّتيبة المريحة، المحدودة والواضحة؛لم يكنْ يعلم أنّ وراءها هذا العالم الهيستيري، تمرّ على خاطره كلّ اللّاتي مررن به في الشّهور الماضية، صورهن، حكاياتهن، كلّهن يعانينَ من مشكلة واحدة، يختلفْنَ في الشّكلِ وطريقة التّفكير، ورصيد خبراتهنّ المختلفة، لكنهنّ كالنّهر، مهْما تشعّبت منه الفروع، يعدنَ إلى نفْس المجرى، في طريقهنّ إلى البحر بعدَ رحلة عناء طويلة، من المنبع العذْب إلى المصبّ المالح.

في الصّباح، وجد نفسَه عند مها، لم يفكّر، أو يرتّب، كأنّ صخبَ الحياة لا يجد سكينته إلّا عندها، كأنّها بحرٌ هائج بأمواجِه العالية الجائعة للسّفن التّائهة، وهي مرسى الأمان لسلامِه النفسي، سواء كانت راضيةً أو غاضبة.

لا يدري كيف ستستقبلُه، ولكنّه سيذهبُ إليها، يكفي أنْ يسمع صوتها، أو عتابها، أو حتّى ثرثرتها التي لا تتوقّف، هي بالتّأكيد غاضبةٌ من آخرِ مرّة تقابلا فيها بالفرح، وهو جالسٌ بصحبة علياء، أو ربما لانقطاعه عنها، هو يعرفُ ذلك لأنّها توقّفت عن الاتّصال به، والسّؤال عنه، ولكنّها من دون نساء الكون يحتاجُ للجلوس معها.

قابلتْه بنفس الوجه المعاتِب المحايد، ابتسامةٌ رماديةٌ أفسحتْ له المجال ليتهيّأ لتركيب الجهاز حول ركبتيه وقالتْ لتكسر وجهَ اللقاء الجامد:

- لماذا انقطعتَ عن الجلسة؟

طربَ لاهتمامها برغم جفافِ كلماتها:

- كنت مشغولًا قليلًا.

– لدرجةِ أنّك حتّى لا تتّصل، وأنت تعلم أنّني أبكّر في الحضور لأجلك؟

لم يرد، ولم يشأ أنْ يعتذر.

جلستْ إلى جواره، كانت تفتقدُه، وبرغم غضبِها لم تشأ أن تتركَه هذه اللحظة، فهي لم تعدْ تعلمُ متى ستراه مرّةً أخرى، تشعر أنّه يتسرّب من بين يديها كالماء، ويبتعد ويتبخّر.

لم يتوقّع أن تفعل، وقد عزمَ في نفسه أنّه سيناديها لو تركته كالمرّات السابقة، ولكنّ السّكوتَ قد سيطر عليه بمجرّد أنْ جاورته، شعرَ بدفء يغمرُه، وودّ لو طالت الجلسة للأبد في حضورها.

صمتٌ حائر يداعبُ أفكارَهما ببعض الحجج للكلام لينكسر، وتعود المياه إلى مجاريها، ومشاعر متبادلةٌ تتراوحُ بينهما، يبحث كلّ منهماَ عنْ كلمة يبدأ بها حديثَه للآخر.

تدفّقت الرغبةُ في التحدّث، فَجَرَت على لسان كلّ منهما كلمةٌ خرجتْ في نفس توقيت خروج الكلمة الأخرى.

أخيرًا ابتسَمَا.

تحدّثه نفسه: حين تبتسمُ مها تُشرق الشّمس بالدّفء لا محالة، في شتاء ملبّدٍ بالغيوم.

وتقولُ في نفسها: كمْ أحبّ طلّة هذا الرجل، أذوبُ فيها، وكم أكره عقلَه الزّائد عن حدّه، والمنطق البغيضَ الذي يتحدّث به معي.

– تفضّل، ماذا كنت ستقول؟

– قولي أنتِ.

– لا، قلْ أنت.

ستبدأ بالتّأكيد مباراةٌ بينهما في العِناد، ولكن مراد لم يردْ أن يضيّع الوقت، يريد أن يرتوي بالحديث معها:

– كنتِ أجمل امرأةٍ في الحفل على الإطلاق.

تدفّقت الحمرةُ إلى وجهها، والتي تفاجأتْ بكلماته، لأوّل مرّة يتحرّك الجبلُ ليهمس بأرقّ وأجمل كلمة سمعتْها في حياتها.

ابتسم مراد، وقال:

– ماذا كنتِ ستقولين؟

– بعدَ ما قلتَه الآن، لا شيء يُقال يا سيدي.

ليلةُ علياء العاصفة، مسحَها صباحُ مها الودود، وجرى صدرُه بهدوء وسكينة، وسرى الكلام بينهما، كشربِ الماء البارد في هجير الصّيف، كالتّصالح بين حبيبيْن، ذوّبهما الخصام حزنًا وأرقًا.

– لم أدرِ أنّك أصبحت صديقةً لابنتي لوز وسكر، إلّا حين حدّثاني عنك من قريب.

– نعم، صادقتُهما منذ أوّل تعارفِنا، وأحببتهما، وأحبّاني، وصرنا نتبادل الاتّصالات، والمقابلات إذا سنحتِ الفرصة.

– كلّ هذا ولا أدري!

– يضايقك ذلك؟

– لا.

ساعدتْه في ارتداء سترته كما تعوّدت، ثمّ استقبلها قائلًا:

– أظنّ هذه آخرُ جلسة.

قالت بشجن:

– نعم، هي كذلك.

ابتسم لها:

– ولكنْ مازالت ركْبَتاي تؤلماني، هل يمكن تكرارُ الجلسات؟

ابتسمت:

– أتمنّى دائمًا أن نلتقي، ولكنْ ليس هنا، وعمومًا اطمئنّ؛ لقد أصبحتَ بعافية.

– ماذا كنتِ ستقولين لي؟

فاجأها السّؤال، ولكنّها لم تتردّد:

– كنت سأقول إنّني أحبّك يا مراد.

همّ بالرّد، فوضعت أصبعَها على شفتيه:

– أرجوك لا تتكلّم، كلّ ما ستقوله مؤلم وقاسٍ وواقعي، دعني أكملُ فقط، نعم أنا أحبّك، بل يمتلك عشقُك قلبي وروحي وكياني كلَّه، أنا تقريبًا لا أنام، ولا أتذوّق شيئًا في الحياة إلّا وجودك، وإذا نمتُ حلمتُ بك،

أستيقظُ لا أرى سواك، لا تسألني كيف يحدُث ذلك لأنّني بالفعل لا أعرف، وليس لديّ إجابة لكلّ الأسئلة المنطقيّة المثارة بداخلي، ولكنّ قلبي يقفز على كلّ ذلك لينبضَ بحبّك، يريدك، ويتمنّاك حبيبًا وزوجًا، ومستعدّ لأن يقضي العمرَ كلّه عازفًا عن الحياة حتّى تأتيه أنت، وتحْييه بلمسةٍ واحدة منك.

ليسَ لديه ما يقوله، فوقفَ خاشعًا في محرابِ نهْر الحبّ الذي يتدفّق أمامه، ويدعوه للاغتراف والارتواء.

– لم يخطرْ على بالي مرّةً أنّني سأبوح لرجلٍ كائنًا مَن كان بحبّي له، بل ويصلُ الأمر لعرض الزواج منّي، لكنّك في نظري رجلٌ تستحقّ ذلك وأكثر.

سكتتْ قليلًا، تستجمع باقي قوّتها لتغلب دموعًا توشكُ أن تنهمر، ابتلعت ريقها:

– حاول يا مراد أن تفكّر فيّ بطريقة مختلفة، لا تنظرْ إليّ كطفلة صغيرة، أو تفكّر بفارق العمر بيننا، ولكنْ تطلّع إلى تلك المرأة التي رأيتها أجملَ نساء الحفل، تلك لحظةٌ استثنائية، خرجت فيها مشاعرُك من الصّندوق المحْكَم الذي تعيش فيه لتراني ناضجة، كاملةَ الأنوثة، قلْ لي هل كنت تجاملني حينَ قلت ذلك؟

– لقد كنتِ كذلك بالفعل.

– لوْ رأيت عينيْك ساعتَها يا مراد وهي تنظر لي، لقد زلزلتني واكْتسحت كياني بطوفانِ الحبّ المطلّ منها، والذي تنكرُه طولَ الوقت، ما أظنّ امرأةً على وجه الأرض تتمنّى نظرةً من حبيب كتلك النّظرة من عينيك لي.

اتّسعت الابتسامةُ لموجةٍ من الحنان، وواصلت حديثها:

– ستذهب، وربّما تفكّر أنّنا لن نلتقي بعد الآن، ولكن اعلمْ أنّني سأنتظرك، طالَ الوقت أم قصر، سأنتظرُك وحدك، ولن يمسّني رجلٌ سواك حتّى آخر يومٍ في عمري، أرجوك يا مراد، فكّر بطريقة مختلفة في مها وحبِّها لك.

كان يقطع الطريقَ تاركًا مها خلفه بعد أنْ ودّعها دون أن تصدرَ منه أيّ إشارة لما سيحدث في المستقبل بينهما، تركها وقد اهتزّ كيانه لكلماتها لأوّلِ مرّة منذ أنِ التقيا، حتّى أنّه وجد نفسه وقد وقف على مفارقِ الحيرة، لا يدري في أيّ اتّجاه يسير.

***

لم يردْ أن يفوّت لقاءه بأصدقائه الليلة، فبعد زيارةٍ خاطفة لبناته أدركهم في منتصف السّهرة، كان في احتياج كبيرٍ لصحبتهم، رحّبوا به بحفاوةٍ بالغة، مع معاتبةٍ محبّبة لغيابه، غمرَه الحنينُ لدفءِ مجلسهم، لم يستطعْ وجهه أنْ يخفي عنهم لواعجَ قلبه، وأحسّ بحاجته لأنْ يُفرغ حملَه الثقيل، ولكن ظلّ التردّد يراوحه، فلم يستجبْ لتوسّلاتهم بأنْ يبوح بما يخفيه في قلبه.

انتهتِ السّهرة متأخّرة قليلًا، ولكنّه شعر ببعض الرّاحة، استكملَ بعدها سيْرَه المعتاد من المقهى إلى البيت، الطّريق هذه المرّة ليست خالية، وأجواءُ صيف القاهرة تخيّم على الهواء السّاكن، الشوارع مزدحمة بالنّاس والسّياراتِ والضوضاء، ولكنّ ذاكرته هربتْ من ذلك كلّه، واستدعت يوم الحادث،

وأخذت الصّورُ والأحداث تتوالى على رأسه، يطلّ منها وجْهُ مها وصوتها، اقترابُها، نزقها، طفولتها وأنوثتها، خصامُها وعنادها، همسُها وصراخها، كلّ الأحداثِ التي مرّت به منذ الحادثة، كان لمها الحضورُ الأقوى، ظاهرًا وباطنًا، جلي وخفي، ماذا يريد القدر أن يقول له؟!

حتّى هذه اللحظة، وهو يتقلّب في فراشه، لا وجود إلّا لها، لا يحول بينه وبينها إلّا تلك القضبان العالية، المحيطة بسِجْن العمر.

قرّر بعد تفكيرٍ طويل وحده، ودونَ استشارة أحدٍ ممّن حوله، إسدالَ السّتار نهائيًّا عن فكرة الزواج، خاصّة بعد مقابلة مها الأخيرة، ما أعجبَ القدرَ حين تطيش سهامُه، ولا يصيبه إلّا سهمُ الحبّ المستحيل، الأماني الجميلة حين تأتي في زمنٍ بلا أمنيات، المواصفات الكاملة في المرأة التي تحدث عنها هجرس، المرأةُ القطار التي تكتسحُ حياتي، جاءت فعلًا، ولكن لا يمكنُ أن يتزوّج امرأةً في عمر ابنته.

توقّعت مها بأنّ مراد سيتّصل بها من قريب، ولكنْ ليس لديها بديلٌ سوى الانتظار، وما أشقَى الوقوفَ على أرصفة الأمل الضّائع.

لا تعرف والدتها ما الذي يمنعُ مها من الموافقة على أحدِ طلبات الزّواج التي تتوالى عليها، وتضع يدَها على قلبها أنْ تمرّ الأيام سريعة، وتنضمّ ابنتها لطابورٍ طويل من الطبيبات المتوقّفة حياتهنّ، والمتقوقعات على مشاعرِ الوحدة الجارحة، الغارقة أعمارهنّ في استكمال الدّراسات، ثمّ لا تحصل في النهاية إلّا على مجموعةٍ من الشهادات تدفئ الجدران، بينما جدارُ حياتهنّ متشقّق من البرود والوحدة.

جذَبَها أبوها عدّةَ مرّات ليسمعها، يقرأ في عينيها شيئًا غير ما تراه الأمّ، شيء غريب لم يره قبْلًا مرسومًا على وجهها، ظلّ يضغط، وظلّت تعاند حتّى انْهارت باكية وحكتْ له كلّ شيء.

استمع الأبُ بمشاعر متناقضة، حائرة، عليه أن يحدّد كيف سيتعامل، وبماذا سينصح، ابنته لم تعدْ صغيرة للضّغط عليها، وإجبارها على أمرٍ لا تريده، عقلُه يدور بسرعة هائلة، يمنحها وقتًا أطول في البوح في محاولةٍ لالتقاط فكرة، أو طرفِ خيطٍ ليقنعها بعدم جدوى ما تفكّر فيه، في لحظةٍ كره مراد، وودّ لو عنّفه، ولكنّه عاد يقول لقد كان موقفُ الرجل ناضجًا متفهّمًا لمشاعر فتاةٍ صغيرة وقعتْ في حبّه.

كان ذلك طرف الخيط الذي التقطَه أبوها، سكتَتْ مها، وقد وضعت رأسَها في صدره، وضمّها وقبّل جبينَها، وابتسم لها وهو يرفع رأسَها ليمسح دموعها قائلًا:

– هذا الرّجل غبيّ ليرفض فتاةً حلوة مثلك.

ابتسامةُ مها لمجاملة أبيها وسطَ غابة الدّموع أعادتْها طفلةً صغيرة في لحظة، واصل أبوها:

– تريدين رأيي؟

سكتتْ بارتياب من ردّه المتوقّع، ولكنّه فاجأها:

– أنا شخصيًّا أوافق على هذه الزيجة.

اندهشتْ للحظات، هذا أمرٌ لم تتوقّعه من أبيها، ثمّ ارْتمت بين ذراعيه، وحضنته بعمقٍ وبشدّة:

– ولكن الآنَ الكرةُ في ملعبه، إنْ جاءني الآن فسوف أقابله بترحاب وأوافق، ولكن عليك ألّا تتحدّثي إليه أكثرَ من ذلك، حتّى لا تقلّ قيمتُكً في نظره.

هزّت رأسَها بالموافقة، وقالت:

– وأمّي وإخوتي.

– لا تنشغلي بهِم، دَعيهم لي، ولكنْ كما اتّفقنا لا تقتربي أكثرَ من ذلك، وإن كان خيرًا لك، سيأتيك الله به، وسنضربُ لذلك أجلًا إنْ لم يأتِ فيه عِديني أن تكوني في حلٍّ منه، وأن تفكّري جديًّا في عروض الزّواج التي تأتيك.

– أعدُك يا أبي، أعدُك.

الأبُ يسير على نصْل السّيف، أيّ تقدير خاطئ سيضطرّ لاستكمال موافقتِه لمراد، والتي يرفضها لابْنته، ولكنْ لم يبقَ له إلّا الاعتماد على رفض الرّجل لفارق السنّ بينهما.

شهرٌ واحد مدّةٌ كافية، فرصةُ مراد الأخيرة، مع عدم التّواصل معه، كان هذا رأي أبيها، وصمّم عليه بعدَ جدال طويل، كانت تدرك أنّ خروج مراد من سجنه سيحتاج وقتًا طويلًا، وصبرًا مريرًا، وأنّها مدّة غير كافية، ولكنّها رضختْ في النّهاية، واعْتبرت موافقةَ أبيها مكسبًا مهمًّا بالنّسبة لها.

***

قطعَ مراد الطّريقَ على الجميع، وأخبرهم بنبْذِه لفكرة الزّواج، وقراره الأخير بقضاء بقيّة حياته عازبًا، بل وأصرّ عدمَ فتح هذا البابِ للمناقشة، أو الخوض في تفاصيله، وأنّه غيرُ مستعدّ لسماع ترشيحات جديدة للزّواج.

اضطرّوا إلى احترام رغبته، فهُم يعرفون مراد، عنيد على طيبتِه المعهودة، وأنّ اختراقَ قراراته يعرّض مَن يفعل لخطٍّ أحمرَ سيحترق بناره.

وعادتِ الحياةُ لمجراها القديم، يلتقي بابنتيه وأحفاده يومي الجمعة والسبت، وتصنعُ البنات له طعامَ الأسبوع، الذي لا يأكل منه إلّا القليل.

يلتقي بأصدقائه مساءً في جلستِهم المعْتادة، يتبادلون أطرافَ الحديث في كلّ شيء، مجرّد قتلٍ للفراغ، وتمضية الوقتِ الباقي من العمر في دائرةٍ من الدّفء ليس إلّا.

يعودُ سيْرًا إلى بيته ككلّ ليلة، ووجْهُ مها الوحيد الذي يطلّ عليه، لم يستطعْ أن يزيحه من عقله وكيانه، أو لم يحاولْ أن يفعل، يحبّ ذلك ويكرهه، يحبّ طلّتها واهتمامَها، ويفتقدُ مساعدتها له في ارْتداء سترته، تلك اللّمسة الوحيدة بينهما، والتي كانت تمدّه بطاقةٍ من السّعادة لا حدّ لها، ويكرهه لأنّه يذكّره بفارق العمْر بينهما.

مرارُ الانتظار بأملٍ ضعيف يحاصرُ مها، والحزن والصّمتُ يغلّفان حياتها، وصورتُه لا تفارقها، وحصّة الدّموع الليلية تحوّلت إلى عادةٍ تريحها قبل النوم.

رأتْ في منامها أمس لوز وسكر، لا تتذكّر تفاصيلَ الحلم، ولكنّ رؤيتهما أوحتْ لها بفكرة، ظلّت تلحّ عليها طولَ اليوم، حتّى تشجّعت لتنفيذها، إذا لم تستطع التّواصل مع مراد مباشرة فليكنْ بطريق غير مباشر، ربّما شجّعته الأخبارُ الجديدَة عن موافقة أبيها.

في المساء، اتّصلت بهما في مكالمةٍ جماعية بحجّة السّؤال والاطمئنان، ثمّ قالت:

- تدْريان؟ تقدّم لي عريس ورفضتُه، وسبّب ذلك أزمةً مع أبي.

- وما سببُ رفضِك؟

- أحبّ شخصًا آخر.

- أووووه، الشّاويش مها وقعَ في الحبّ يا سكّر.

ضحكتْ سكّر على الجانب الآخر:

- لا تظلميها يا لوز، مها امرأةٌ جميلة وصغيرةٌ وفاتنة، وليست شاويشًا.

- آه، لو كانت أكبر بعدّةِ سنوات، كنت زوّجتُها لمرمر.

صعدتِ الدّماء لرأسها دفعةً واحدة، ما هذا الذي تقوله سكّر، وتوافق عليه لوز:

- مها، أين ذهبت؟!

- معكُما.

- ولماذا لم يتقدّم لكِ هذا الحبيب المجهول؟

شعرتْ مها أنّها وقعتْ في ورطة، تنحنحَتْ وقالت:

- لديْه ظروف تمنعُه الآن، ولكنّ أبي منحه فترةً لا تتجاوز شهرًا، لو لمْ يتقدّم فيها لطلب يدي سيسقطُ حقّه فيّ، ولن يبقى أمامي إلّا الموافقة على العريس الذي جاءت به أمّي.

قالتْ لوز ما أرادته مها بالضّبط:

- يمكننا أنْ نجعل مرمر يتوسّط لك عند والدك.

لم تجدْ سوى هذه الطّريقة السّاذجة وغير المضمونة، ولكن لم يكنْ أمامها غير ذلك.

***

أخيرًا تحطّم الصّمت الليليّ بجرس الهاتف يرنّ بإصرارٍ بعد منتصفِ ليل مراد، يستيقظ متضايقًا، ويمدّ يده فيغلقُ الجرس، يعاود الهاتفُ الرّنين، ويعاودُ إغلاقه، أكثر من خمْسِ مرّات حتّى اضطرّ إلى النّظر لشاشة الهاتف ليجدَ عليها جملة (رقمٌ غير معروف)، اعتدل جالسًا وفتح الخطّ ليجد على الطّرف الآخر صوتًا يصرخُ في وجهه:

– مازلتَ تنام مع الدّجاج يا مراد من المغرب؟!

ضحكَ رغمًا عنه:

– لا فائدة، ستظلّ وغْدًا ما حييت.

ضحكةٌ متجاوبة على الجانب الآخر:

– كيف حالُك مراد؟ وكيف التّوأمان؟ وكيف باقي شلّة الكراكيب؟

– كلّنا بخير، كيف حالك أنت؟

– الحمدُ لله، في رحلةٍ قصيرة إلى مصر، الوالدة مريضة.

– خيرًا يا ربّ، ما بها؟

– وعكةٌ صحيّة، اكتشفَ الأطبّاء من خلالها وجودَ مشكلةٍ في القلب.

– يا لطيف، أدْعو الله لها بالشّفاء، متى ستصل؟

– مساء الغدِ إنْ شاء الله.

– سنستقبلُك في المطار.

محمد أشرف، خامسُ أفراد الشّلة، الطائرُ المهاجر، وأجرأهم على الإطلاق، منذ شبابه وهو يحبّ المغامرة وممارسة تجارب مختلفة، يكره المنطقَ والتّرتيب والاستماعَ إلى النظريات ومناقشاتها، لا يؤمنُ إلّا بما يلمسه بيدِه، بالرغم من وقوعه الدّائم في مشكلات كثيرة بسبب ذلك، إلّا أنّه لم يتوقّف أبدًا عن روح المغامرة والنّزق، فاكهة الشّلة، لديه قدرةٌ غريبة على تحويل كلِّ لحظات الحزن إلى ضحكٍ هستيري، كانوا يتجنّبون الذّهاب معه إلى الجنائز، فقد تكرّر طردُهم عدّةَ مرّات بسببه، ولا ينْسون أبدًا حين مات والدُ محمد الدّيب، وقد دخلوا يقدّمون له واجبَ العزاء، وهو واقفٌ وسط عائلته، فسلّم عليه أشرف، وقال له بكلّ وقارٍ وجديّة: عقبى للباقي إنْ شاء الله، يموتوا جميعًا ونرتاحُ من وجوههم. فانْفَجروا ضاحكين، حتّى الدّيب نفسه لم يستطعْ أن يسيطرَ على نفسه؛ فضحِكَ معهم، وتمّ طردهم جميعًا من قِبَل أحدِ أعمامه.

يغيبُ ويظهر كلّ عدّة سنواتٍ ليكسر لونَ الحياة الواحد بأفكاره، وحكاياته، ويجدّد رداءَ مجلسهم، ثمّ لا يلبثُ أن يعود للطّيران مرّةً أخرى تاركًا لهم ذكريات جميلة.

سافرَ منذ ثلاثين عامًا إلى أوروبا، صالَ وجال، حتّى استقرّ به المقامُ في أسبانيا، يظهر كلّ عدّة سنوات مع زوجةٍ مختلفة، من كلّ الألوان والأجناس، طائر محلّق، يفرد جناحيه سابحًا في الهواء الطلق، وبنظره الحادّ يختار أجملَ الأغصان ليحطّ عليه، يعرف كيف يقتنصُ الجمال، ذوقُه رفيعٌ في اختيارهنّ، ثمّ لا يلبثُ أن يعاود الطّيرانَ ليحطّ على غصنٍ جديد.

في المطار، كان استقبالُه صاخبًا، قدرته على إعادتهم لتهوّر الشّباب غيرُ محدودة، يصرخ كالأطفال لمرآهم، يقفزُ جريًا، مُلقيًا نفسه بينَ أحضانهم، ملأتْ ضحكاتُهم أرضَ المطار، غيرَ مُبالين بالنّاظرين لهم وتعجّبهم.

في اللّيلة التّالية، كان أشرف نجمَ السّهرة بلا مُنازع، اجتمعوا على عشاءٍ فاخر في مطعم شهير على شرفِ وصوله، ثمّ تحلّقوا في مقْهاهم العتيق، ليتمتّعوا بدفءٍ صُحبته، لم يشأ أحدٌ منهم أن يسأله عن شيء قبل الاطمئنانِ على والدته:

– اليومَ أدخلتُها مستشفى خاصًّا، وبدأوا في مجموعة خطواتٍ مبدئيّة ليتسنى لهم التشخيص السّليم، وقد طلبوا إبقاءها في المستشفى لعدّةٍ أيام.

دعوا لها بالشّفاء العاجل، ثمّ قال هجرس:

– هل يمكننا زيارتها؟

– نعمْ أظنّ ذلك متاحًا، على العموم لقد تعرّفت على طبيبة شابّة، جذّابة، كأنها وردة بلدي حمراء قانية، فوّاحة تملأ الأجواءَ بالسّعادة، تقبِلُ كغزالٍ نافر، كأنّ أباها ظبي، أو أمّها مها.

خفقَ قلبُ مراد لذكر اسْمِ مها، وقبلَ أن يسأله عن المستشفى، قال أشرف:

– لقد حصلتُ على رقم هاتفها، يمكنني سؤالها عنْ مواعيد الزيارة.

قال هجرس:

– لا تفوّت الفرصة أبدًا!

– أجملُ ما في الحياةِ الفُرَص، حين تأتيك فجأةً كالبرق الخاطف، فتقتنصُها بنفس السرعة، التي أتتْ بها؛ متعةٌ لا تُدانيها متعة.

تنحنَحَ مراد:

– أين تلك المستشفى؟

– على طريق القاهرة الإسماعيلية الصّحراوي، المركز الطبّي، ألا تعرفها؟

هدأ قلبُه وتنفّس بعمق:

– نعمْ أعرفها.

قال الدّيب ساخرًا:

– وكيف اقتنصتَها أيّها الصّياد الماهر؟!

– كانت الوالدة تستندُ عليّ ونحنُ ندخلُ من بابِ المستشفى، فرأتنا الطّبيبة وكانت قريبة، فأسرعتْ بشهامة، وأمسكت بيدِها الأخرى، وأخذتْ معها عيني التي وقعت على وجهها الموشى بالجمال، وانْثناء جسدها اللّدن المطرّز بالعبير، فخفق قلبي مهتزًّا بالنّشوة.

قال عفيفي بانسجامٍ لعبَ بعقله:

– الله الله.

– ثمّ لم تدعْنا حتّى تعرّفت على الوالدة، وصارَ بينهما ودٌّ جميل، وطمأنتني أنّها ستكون قريبة منها في حالِ غيابي، فطلبت هاتفَها، فمنحتني إيّاه بسهولة.

في طريق العودة، حدّثه عقله: عليك أنْ تعترف أنَّ في قلبك شيئًا كبيرًا نحْو مها، وأنّ اضطرابه حين ذكر أشرف الطبيبةَ كان عَرَضًا كبيرًا لمرض الحبّ الذي يستوطنه، ويأبى الاعتراف به، ألم تره كيف هدأ بمجرد أنْ عرف أنّها طبيبة أخري في مستشفى مختلفة.

ابتسم مراد لنفسه، وقال بصوتٍ مسموع كأنّه يتكلّم مع شخص آخر يسير بجواره في الطريق: نعم عليّ أنْ أعترف وأقرّ، مشاعري تجاهها مختلفة، وأنّها تتربّع في قلبي وتحتلّه، وتشغل بالي طوال الوقت، وأشتهي أنْ أراها كلّ لحظة،

وأنّ شوقَ قلبي لها يغلبني، وهي نديمتي الوحيدة في أحلام يقظةٍ حلوة، وفي منامي لا تتركني ليلة، كأنّها افتقدت اهتمامها بي في صحْوي فتأتي إليّ في نعاسي لتمارس نفسَ الفعل، ونفس الدّفء، وأحيانًا بعض النّزق الأنثوي، ولكنْ ما فائدة ذلك كلّه وقد رماني الزّمان في طريق المستحيل؟!

قطعَ حبلَ أفكاره اتّصالُ أشرف:

– لقد اتّصلت بالطّبيبة الجميلة، وعرفتُ أنّ موعد الزيارة من الخامسة مساء وحتّى السابعة، أبلغ باقي الكراكيب، سأنتظركم.

في المساء، كان الأصدقاء الأربعة حاضرين في الموعد، وقد ابتاعوا طاقةَ وردٍ مبهجة.

وفي بهْو المستشفى كانا هناك، يقفان قربَ طاولة الاستقبال، يتحدّثان بهمس، ويتضاحكان.

أشرف ومها.

هما؟

نعمْ، هما بشحْمِهما ولحْمِهما، يا لهول المفاجأة!

وقفَ مراد كأنّه مصلوب، ومئاتُ الأسئلةِ كطيور جارحة تأكل من رأسه.

قال هجرس:

– أليستْ هذه الطبيبة مها؟!

قال عفيفي والدّيب في اللحظة نفسها:

– نعمْ هي.

قال هجرس متعجّبًا:

– كأنّ أباها ظبي، أو أمّها مها، يا لَهُ من ثعلب.

قال عفيفي:

– ما الذي جاء بها إلى هنا؟ وهل هي الطبيبة التي حدّثنا عنها أشرف أمس؟ وهل...

وظلّوا يتناوبون الأسئلةَ، ومراد مازال مستندًا على جدار الصّدمة، حتّى التفتَ لهم أشرف، فأسرع مرحّبًا بهم.

لا تقلّ المفاجأةُ التي وقعت على رأس مها عنْ مفاجأة مراد حين وقع بصرُه عليهما، التفت أشرف وبحركة مرحَة:

– أقدّم لكم الطّبيبة الحاذقة مها.

ثمّ أشار لهم ساخرًا:

– وهؤلاء الكراكيب أصدقاءُ العمر، رأيت كيفَ لشابّ مثلي أن يصادقَ هؤلاء العواجيز، يا لضيعةَ شبابي.

توقّع أنْ يضحك الجميع على مزاحِه، ولكنّه فوجئ بأنّهم يقفون مدهوشين، ينظرون لبعضهم البعض.

– إحم.. إحم.

تنحنَحَ أشرف، فتنبّه هجرس وقال:

– الطّبيبة مها، أخصائيّة العلاج الطبيعي، والتي كانت تشرفُ على علاج مراد بعد الحادث، ولكنّها لم تكنْ في تلك المستشفى.

ابتسمت مها أخيرًا:

– لقد تقدّمت لتوظيفي هنا منذُ فترة طويلة، ولم يتمّ قبولي إلّا منذ أيام قليلة، بعد أن كادَ اليأس يقتلني، وسبحان مَن يجمع الناس بعضهم ببعض بلا موعد.

لم تنزلْ عينا مراد عنها، وفي قلبه مرجلٌ يغلي بالمتناقضات، حتّى قال الدّيب لأشرف:

– هيّا لزيارة الوالدة.

لم تشأ مها أنْ تدخل معهم، فولّتهم ظهرها مُنصرفة، وعلى وجهها كلّ علامات الفرح، جاء حبيبُ العمر، أتى به قدَري وقدرُه، فرصة لن أفلتَها، سأتشبّث بأظافري وأسناني وكلّ ما أملك، ولكن كيف سيحدث دون أنْ أخلّ بوعدي لأبي؟!

بعدَ الزّيارة طلب الطبيب المعالج مقابلةَ أشرف ليخبره أنّ على الوالدة إجراء جراحة القلب المفتوح على وجه السّرعة، وسوف يتحدّد موعدُ العملية بعد اتّخاذ بعض الإجراءات الطبية.

كان وقعُ الخبر صعبًا، فالتفّ حوله أصدقاؤه يؤازرونه ويطمْئنونه.

التقط أشرف هاتفه واتّصل بمها، جاءتْ على عجل، فقد كان صوتُه مضطربًا قلقًا، وطلب منها برجاء أنْ تكون بجوار أمّه، فطمأنته أنّها ستكون موجودة أغلبَ أوقات اليوم، ولن تتركها أثناء إجراء الجراحة وبعدَها، وستكون رهنَ إشارتها في أيّ وقت.

مها لن تفوّت فرصتها فترسلَ رسائل واضحة أنّها موجودة وبقوّة، وحاضرة ومتهيئة، لم تخف على مراد، ولكنّ صدره الذي كان يموجُ بالغيرة والغيظ قرأها لأشرف، وليس له.

سهرَ الأصدقاء مع أشرف لتخفيفِ وقْع الأمر، والبقاء معه أطول فترةٍ ممكنة، أنهاها الديب كعادته بالأسئلة الصادمة:

– ما الذي دعاك يا دونجوان عصْرك للاتّصال بالطّبيبة مها في هذا الظرف، خاصّة ونحن معك ولن نتركك؟

كلّ سيرة تأتي على ذكرها خنجرٌ يطعن "مراد" بوحشيّة لا رحمة فيها، تنهّد منتظرًا إبداع صديقه أشرف في الإجابة:

– بغضّ النّظر عن كلّ حديثنا اليوم عن مها كأنثى، فهي امرأةٌ مختلفة، فيها شهامة ومروءة، ليستْ في كثير من الناس، على الرّغم من بُعد تخصّصها عن مرض الوالدة إلّا أنّها دائمًا رهنُ إشارةِ مَن يحتاج لمساعدة، عندها روحُ المبادرة، شعرت بذلك حين تلقّفت يد والدتي، حين أجلستها في حجرتها قبّلتها في خدّها قبلةً أودعتْ فيها حزمةً من الحنان تكفي كلّ الحزانى، كأنّها ابنتها.

رانَ صمتٌ على الجميع، قطعَه هجرس وقد مرّت على عينيه نظرة ثعلب إلى مراد:

– هي كذلك، شعرنا جميعًا بذلك في أزمة مراد، فقد كانت إلى جواره ولم تترکْه لحظة.

التفتَ أشرف إلى مراد بتعجّب:

– هل كانت كذلك فعلًا؟

ردّ عفيفي:

– اسألني أنا، فقد اصطحبتُه للكثير من جلسات العلاج الطبيعي، ورأيت كيف كانت تستقبله باهتمامٍ بالغ، وكيف تودّعه بنصائح لا حدّ لها.

– ولكنّ طريقة استقبالكما لبعضكما البعض لم توحِ بذلك، أنتَ حتّى لم تتكلّم معها بكلمة واحدة!

أجاب مراد بشيء ظاهرٍ من اللامبالاة:

– كان ذلك منذُ فترة، وكلّ الحكاية طبيبة ماهرة في عملها وفقط.

***

في ليلِ الوحدة القاسي، جاءه اتّصالٌ من هجرس، لم تكنْ له رغبة بالكلام مع أحد، ولكنّه فتح الخط:

– مراد، أنت صديقي المقرّب جدًّا، وأستطيع قراءةَ وجهك بوضوح، ربما لم نتحدّث معًا منفردين منذُ فترة، ولكنّي شككت في أمرٍ منذ فترةٍ طويلة، الليلة تأكّدت منه.

مراد بعصبيّة:

– هجرس، تجاوز مقدّماتك الطويلة، وقلْ ما تريد.

– ما الذي بينك وبين الطّبيبة مها؟

سكتَ قليلًا، يبتلع ريقَه من مفاجأة السؤال:

– لا شيء، ما الذي سيكون بيني وبين امرأةٍ أكبرها بأكثر من ربع قرن؟!

– الآن تأكّدت أنّ بينكما شيء.

قال بسخرية يخفي بها طاقةً من الاضطراب اكْتسحته:

– كلّ هذا يا هجرس، هل تظنّني بهذه التّفاهة حتّى أقع في حبّ فتاةٍ صغيرة؟

– الحبّ ليس تفاهة يا مراد، ومهْما كان شكله أو وصفه يظلّ له قيمته ومقامه.

– هجرس، أرجوك.

– أرجوك أنت، كلّ تفاصيل اللّيلة لا تقول غيرَ ذلك، لا تفعل ذلك بنفسك، أنت تحمل على كاهلِكَ جبلًا لن تصمد تحتَه طويلًا.

سكتَ مراد فواصل هجرس هجومه:

– لا تضيّع الوقت، أشرف سيختطفُها منْك بمنتهى السّهولة.

تصنّع الضّحك، وقلبه متّقد بالنار:

– حلالٌ عليه.

– لا، ليست كذلك، لا تفوّت الفرصة، لقد سبقَنا أشرف بسنواتٍ ضوئية في فهم الحياة.

– وهل تعجبُك حياته، تنقّل بين نساء كثيرات، ثمّ عاد وحيدًا!

– وأنتَ لم تتنقل في الحياة إلّا عبر امرأةٍ واحدة، وها أنت عدتَ وحيدًا!

– لي ابنتان وأحفاد وأصدقاء.

– وهو كذلك له ابنةٌ تعيش معه، وقريبًا ستتزوّج، وتنجب له أحفادًا، وله أصدقاء كذلك.

– مَن منّا عاش بطريقةٍ صحيحة إذًا؟

– سؤالٌ ليس له علاقة بمنطق الأشياء، ولا تقوم حياة كلّ منّا على المقارنات، ولكنّي سأجيبك بطريقةٍ أخرى، كلّما ازدادت مخاوفُنا قلّ تعاطينا مع الحياة بطريقة صحيحة، وكلّما كنّا أكثر قوةً وجرأة حقّقنا في أنفسنا ما نُريده ونتمنّاه، حتّى لو أخطأنا، وأنت يا مراد أسيرُ خوفك، تفتح لك الحياةُ ذراعيها وأنت متردّدٌ مُرْتعش.

سكتَ مراد، فواصل هجرس:

- أرجوك، لا تفوّت هذه الفرصة، ولا تضيّعها؛ قلّما جاءتنا مثلها.

لم يستطعْ مراد المقاومة أكثرَ من ذلك، فانْهارَ سدّ مقاومته تحت وطأة الدّموع، فتدفّقت رغماً عنه، شعر به هجرس فناداه برجاء:

- مراد..

أغلقَ الهاتف ولم يدعْ له فرصةً لاستكمال الحديث.

عدّة أيّام أخرى تنفرط من عقد الانتظار، تلظّى فيها بنار الغيرة التي تلتهمه كلّما رأى مها وأشرف متجاورين يتهامسان، حتّى قرّر الأطباء إجراء الجراحة.

في صباح اليوم التّالي، جلس الجميع خارجَ غرفة العمليات، كان وجهُه يبدو عليه السّهر والإرهاق، فجلس نائيًا، اقترب منه هجرس وجلس بجواره، ابتسم له، فهمس له بالاعتذار، فقال له:

- لا عليك يا صديقي، لقد كنت متعَبًا ومرهقًا بالفعل، فأغلقتُ الهاتف، معتمدًا على تقديرك للموقف.

لا يترك عنادَه، هكذا حدّث هجرسُ نفسَه، ولكنّه لم يشأ أنْ يفتح معه الموضوع مرّة أخرى، خاصّة وأنّ اللّحظة لا تسمح.

جاءت مها كعادتها بالابتسام المطمْئن، واتّجهت لأشرف فتجمّعوا حولها، فحدّثتهم بأنّ العملية على صعوبَتِها فهي تجري على خيرِ ما يُرام.

مازال مراد هناك، جالسًا واضعًا ساقًا على ساق، لم يرفع وجهَه ناحيتها، ولا أبدى اهتمامًا بحديثها، نظرتْ ناحيته وتمنّت أنْ تحين منه التفاتةٌ واحدة،

ولكنّه مازال مصرًّا على تركها واقفة على ناصية الحيرة، همّت بالانصراف، فلحقها أشرف، وتابعتْهما عينا مراد، يتهامسان قليلًا، يبتسمان، يكادان من اقترابهما أن يتلامَسَا، ثمّ تنصرف بعدَها بدقائق.

في اليوم التالي، كانت والدةُ أشرف في العناية المركزة، وفي حالة مستقرّة، جعلته هو الآخر هادئًا مطمئنًّا، مرّت مها لتطمئنّ عليها، فانتهزَ الفرصة ودعاها للجلوس والتحدّث معه قليلًا.

كان مراد أسبقَ الجميع بالحضور، شيء ما يدفعُه إلى المستشفى، بعد ليلة لم يذقْ فيها طعم النوم، القلق والغيرةُ يتصارعان في رأسه، هل ليلحقَ بفرصة ينفردُ فيها بمها، فيدركها قبل أن يأخذَها أشرف منه؟ أم ليراها فقط؟ أم ليقتلها قبل أن تلتقي بغريمه؟ أمْ للاطمئنان والتواجد مع صديقه؟

وصلَ متأخّرًا كالعادة، ليجدَهما متجاورين، يرتشفان قهوةً صباحية نزقة، في حالةِ اقتراب ووئام، ظلّ واقفًا من بعيدٍ يرقبهما، ويتأمّل وجهها، تتكلّم بسرعة كعادتها، ويجادلها أشرف مبتسمًا، ماذا قال لها جعلها تضحكُ ملء فيها هكذا؟ بماذا همَس؟ فيتلوّن وجهها وتتوه عيناها، ماذا يريها على هاتفه، فتتعجّب، وتنسجم، وتشرق؟!

في التفاتة عابرةٍ رأته، علتْ عينيها نظرةٌ متفاجئة سعيدة، جعلتْ أشرف يلتفت وراء ابتسامتها المنطلقة نحوَ الباب، فأقبلَ عليهما متصنّعًا ابتسامة، حيّته برأسها، منتظرةً أن يخصّها بتحيّة ولكنّه لم يفعل، وقفتْ قليلًا ترقب كلامَهما، ثمّ لم تجدْ بدًّا من الاستئذان والانصراف وهي تتساءل لم يعاملها مراد بهذا الجفاء؟!

لم يستطعِ الانتظارَ أكثر من ذلك، يكاد ينفجر، جلسَ قليلًا، ثمّ استأذن أشرف في الذَهاب لدورة المياه، تجوّل قليلًا في ردْهات المستشفى، حتّى وجد غرفةَ العلاج الطبيعي، ففتح الباب دونَ طرق أو استئذان، ليجد مها جالسةً واضعة وجهَها بين كفّيها، فزعتْ لفتح الباب المفاجئ فوقفت، ثمّ انشرح صدرُها، وتألّق وجهها بالفرح، فأقبلتْ عليه، تحاول أنْ تتجاوز المفاجأة لترتّب كلامها المضطرب:

– مراد، أخيرًا جئت، انتظرتُك كثيرًا، لو تعلم كيف كان بعادُك حارقًا، وجفاؤك قاتلًا، يكاد شهرُ المهْلة أنْ ينقضي، أرجوك أدركْ آخر فرصةٍ لكلينا، ألم يخبرك التّوأمان؟ ربما نسيتا، سأخبرك أنا.. فلتجلس أوّلًا، ثمّ نتحدّث، افتقدتك كثيرًا، وصارت حياتي في غيابك بلا معنى، تعال، سأعدّ لك قهوةً رائعة، مضبوطة كما تحبّها.

اقترب منها، وكأنّه تنّين، ينفث نارًا حارقة، وقد صُمّت أذناه فلم يسمع حرفًا مما قالته، وعلى عينيه جمر متّقدٌ يتطاير منه الشّرر في كلّ اتّجاه لا يأبه لمن سيحترق به:

– هكذا يا ستّ يا مها؟ تقتربين من الجميع، وتضحكين، وتُبْدين اهتمامك، وتوزّعين حنانك بلا حساب، ثمّ ماذا يا طبيبة؟ هل ستقولين له في آخرِ المطاف أحبّك، أنتظرك، لن يلمسني أحدٌ سواك؟ هل أنتِ مريضةٌ لتعبَثِينَ مع الرّجال الأكبر منْك سنًّا؟ وددتُ لو حطّمت رأسَك بمطرقة، وأراك تموتين أمامي كلّ لحظة، أنا أكرهُك من كلّ قلبي، أكرهك.. أكرهك، لا أريد أنْ أراك مرّةً أخرى في حياتي، ابتعدي عنّي بقدْر ما تسْتطيعين، بقدر كذبك وخداعِك، إيّاك أن تعترضي طريقي مرّة أخرى.. إيّاك.

كانت الدّموع الغزيرة تتدفّق من عينيها بلا حساب، من هوْل المفاجأة، وهي تتلقّى طعناته المتوالية، دون استطاعتها الردّ، فقد اختنقتْ بالحروف، وتدلّت الكلمات مشنوقةً على شفتيها.

نظرَ إليها بقسوة واحتقار، ثمّ استدارَ منصرفًا، فنادته:

– مراد، أرجوك لا تفعلْ هذا بي، أهذا ظنّك بي، وأنا لا أرى في الدّنيا سواك؟

– أرجوك أنْ تسكتي، لم أعدْ أستطيع حتّى سماع صوتك.

عادَ لمجلس أشرف، وقد هدأتْ نفسه ممّا كانت تمورُ به، شعر أنّ الصّفعة التي وجّهها لها أراحته كثيرًا، وأنّه الآن متهيّئ لنسيانها وإخراجها من عقله وتفكيره، قال له ممازحًا:

– أراكَ لا تفوّت فرصة تلوح لك أبدًا، خاصّة إذا كانت مع امراة.

ضحكَ أشرف:

– ولماذا أفوّتها؟ الحياة يا صديقي تمضي بسرعة فائقة، والعمرُ يجري نحو حتفه، هل سنظلّ قابعين في التّفكير والتّرتيب والبحث والمنطق؟

– ولكنّها صغيرةُ السّن!

– وأنا كذلك صغيرُ السّن، ومتدفّق، وأحبّ الحياة.

– لا تضحك على نفسك، وتعيش في مراهقة آخر العمر.

– لا تضحك أنتَ على نفسك يا مراد، الإحساسُ هو مَن يقودنا في الحياة، إنْ عشت تفكّر طوالَ الوقت في مشيبِ شعْرك، ستعيش بلا هدفٍ سوى أن تقضي أيّامك الباقية وروحك تستندُ علَى عكّاز.

قال ساخرًا:

– وأنتَ تعيش بروح الشّباب، فتنسى التّغيرات العقلية والنفسية والجسدية التي تطرأ عليك مع تقدّم العمر.

ضحكَ أشرف طويلًا:

– للأسف محيطُ معرفتك محدودٌ جدًّا، لقد عشت في خطوة تنظيم، تسير فيها كما قالت كتب الجغرافيا والتاريخ، وحصصُ العلوم، البداية والنهاية وسنن التّطور الطبيعي، هذا ينطبق على الجمادات والحيوانات، المستسلمة لقوانين الطّبيعة؛ الإنسانُ كائن مختلف.

– هل يعني ذلك أن التطورات لا تجري عليه؟

– بلا شكّ يا صديقي، ولكنّ الفارق الذي لا تريد أن تلتفت إليه أنّ إحساسك هو الذي يقودُك فيها، وهو ما يجبُ أن تعيدَ النّظر فيه.

– وتفكيرك هذا يجعلك تميلُ لفتاة في عمر ابنتك!؟

– لوْ رأيت ذلك في العالم كلّه شيئًا عاديًّا، فوارقُ العمر لا تعني شيئًا أمام الحبّ، لا قيمة لها أمامَ التّوافق الروحي والنفسي، لا عقد، لا رواسب، لا إشكاليات وموروثات تسيطر على التّفكير، يمكننا أن نلتقي كما نفترق، لا مشكلة في اللّقاء، ولا مأساة في الفراق.

قال مراد بحدّةٍ لا يقصدها:

– أفهمُ من ذلك أنّك والستّ مها متوافقان، ومتّفقان!

نظرَ أشرف إليه متعجّبًا، ثمّ ابتسم كأنّه يقرأ وجهه:

– نعم، يمكن أن يحدُث بيننا توافقٌ نفسي وعاطفي كبير، ولكنْ للأسف الشديد الستّ مها واقعةٌ في غرامِ شخصٍ آخر، يملك قلبَها بقبضةٍ من حديد، ولا تستطيع الفِكاك منه.

وقعتْ كلماتُ أشرف عليه كالصّاعقة:

– هل قالت لك ذلك؟!

– ليستْ في حاجة لأنْ تبوح، يمكنني قراءةُ المرأة من عينيها، هذه الفتاة محاطةٌ بأسوار عالية لا يمكن اختراقها، غارقةٌ في الحبّ حتّى أذنيها، ويبدو أنّه سبب مأساتها.

– وهل ترى أنّها تعيش مأساة؟

عاد أشرف للضّحك:

– الحبّ يا صديقي في حقيقته مأساة.

***

أصدقُ كلمة قالها أشرف عن الحبّ، ولكنّها مأساتي أنا، كيف جرؤت على فعل ذلك؟ كيف تدفّق كلّ هذا الغباء إلى عقلك، لتذهبَ إليها وتذبحها بدمٍ بارد، حتّى دموعها ورجاؤها لم تهزّ شعرة فيك.

تقلّب في فراشه أرقًا، ممسكًا بسوط اللّوم، يجلد به نفسه، ولكن ماذا يجدي النّدم؟ بعدما ترك أشرف مرّة أخرى عائدًا إلى حجرتها في محاولةٍ لتدارك الموقف، ولكنّه لم يجدها.

حين فتحَ غرفتها، شعر بأنّ أثرَ دموعها باقٍ على كلّ شيء فيها، وقف منكّسَ الرأس، وهمس للجدران، والأجهزة، والأوراق على مكتبها: أنا آسف.

أسرعَ إلى مكتب الاستقبال ليسأل عنها، قالوا انصرفت.

***

كعادتك، تكتشف كلّ الحقائق متأخّرًا، ذهبت مها في توقيتِها الصّحيح، بينما أنت تقف على ناصية المنطق، والتحليل، وإضاعة العمر في ترتيبِ وتفسير كلِّ التفاصيل المملّة القاتلة، الآن تقوم بالاتّصال بها عشرات المرّاتِ دونَ أن تعيرك اهتمامًا، حتّى أغلقت هاتفها في وجهك، حملت حقيبة انْكسارها، وجرجرتْ أذيال مهانتها واختفت.

ماذا ستقول لها لو ردّت عليك؟ أحبّك! بعض الكلمات العظيمة تفقد معناها وتهوي إلى الموت لوْ قيلت في غير موعدها، ومكانها الصحيح.

ستقول لها آسف؟ وماذا يجدي الاعتذار لقلب أقبل عليك سعيدًا يتقافز من الفرحة، يحملُ لك كلّ هذا الحبّ، فتمتدّ إليه يَدُك في لحظة عمياء لتصفعه صفعةً مدوّية على وجهه، بعض الاعتذارات أيّها الغبي لا تجدي حتّى لو غرفتَها من ماءِ المحيط.

لماذا تبحث عنها؟!

في موعد الزيارة، اصطحب مراد التّوأميْن لوز وسكر، مع جميع الأصدقاء، وكانت مفاجأة جميلةً لأشرف ووالدته، وأخذوا يتبادلون الأحاديث والذّكريات، ومراد يتلفّت هنا وهناك بحثًا عن مها، فقد قرّر منذ ليلة الأمس أنْ يأتي بابنتيه لتكون حجّةً منطقية في استعادتها.

سرحَ خياله وقلبُه يتقلّب على نارٍ لا يستطيع إطفاءها حتّى يلقاها، ويعتذر لها، لن يتركها حتّى ترضى، هو مستعدّ الآن- وأمامَ الجميع- أن يفعل ذلك، أفاق على سؤالِ سكر لأشرف:

- أين الطّبيبة مها، لقد قال أبي، ونحن في الطريق أنّها انتقلت للعمل هنا.

- جاءت هذا الصّباح، وودّعتنا قائلة إنّها ستترك العملَ بالمستشفى لظروف خاصّة، وربما تنتقل لمكان آخر، يبدو أنّها في أزمة كبيرة، فقد جاءت بوجهٍ يحمل همًّا كبيرًا، وحزنًا راعفًا، لا يتوقّف نزيفه.

وقعَ الخبر على مراد كبنايةٍ انْهارت من ثقل السّنين، فلم يحرْ جوابًا، بينما قالت لوز:

- أعرفُ ما هي الظّروف الخاصّة، ألا تذكرين يا سكر؟

- نعم، تذكّرت، قالت إنّها تحبّ رجلًا، وأنّ ظروفًا ما منعته من التقدّم لها، وأنّ والدها وافق عليه ومنحَه فرصةً لمدّة شهر، وإذا لم يتقدّم خلاله فهو في حلٍّ من موافقته، ولا نعلم هل الظّروف الخاصّة هذه متعلّقةٌ بحبيبها، أم برجلٍ آخر قالت إنّه تقدّم لها.

نظرَ هجرس إلى مراد، الذي كان صامتًا كتمثال مقطوع الذراعين من عصور النّهضة، بينما قالت لوز:

- تصوّروا، لقد قلنا لها لو أنّ لحبيبها مشكلة مع والدها يمكننا أن نوسّط أبي لديه.

وقفَ مراد منفعلًا:

- متى كان ذلك؟

- أظنّ من شهر تقريبًا.

قال بعصبيّة:

- وتوًّا تذكّرتما؟!

كان الجميع يرقبُ الحوار الدّائر بشيء من التعجّب، إلّا أنّه تحوّل لاندهاشٍ حين قال هجرس:

- يمكنُكَ إدراك الموقف إذا أسرعت.

مراد يفقد توازنه، وهو يتذكّر كلمات مها الأخيرة، والتي لم يعِرْها أيّ اهتمام، لقد تحدّثت عن التوأميْن، ومهلةِ شهر، وأنّها ستحكي شيئًا ما، يا إلهي، أعماني الغضب، قاتله الله. لم يعدْ قادرًا على الوقوف، يهْرَع إليه الجميع، يلتفّوا حوله ليجلسوه على أقرب كرسي، بينما يجري الديب لاستدعاء طبيب، جسده ينتفضُ برعشة مُخيفة، وهو يغالب دموعَه أمامهم، ثمّ لم يستطعْ حبسها، فانْهارَ باكيًا.

***

عادَ مراد إلى قارب حياته، تاركًا له المسيرَ متّئدًا بلا مجاديفَ على صفحة نهرها الحزين، ليأخذه حيث يشاء، منتظرًا الوصول إلى المصبّ، ليذوب ويتلاشى.

مرّت شهور منذُ فراق مها، وسفر أشرف، وعودة شلّة الكراكيب إلى لقائها اليومي، وأحاديثهم الليلية المعتادة، تمنحه بعضَ الدّفء، ليعود بعدها سيرًا على قدميه لمسافةٍ طويلة، ليصل إلى الصّحراء الكبرى، بيته، لينام نومه المتقطّع، الممتلئ بأحلامٍ ورؤى، ومشاهدَ لا يستطيع تذكّر شيء منها في الصباح.

يذهبُ لممارسة عمله كما الآلة، يحاول أنْ ينشغلَ في تفاصيل العمل حتّى الثّمالة، ليجد ما يقاوم به الحزنَ، ويلهّيه عنه.

مرّت شهور لا يتذكّر عددَها، ولكنّه حريصٌ على أن يضع أمامَ الجميع وجهه القديم، ليبدو بقوته المعهودة، وأنّ الأزمة قد ولّت، وانتهت، وأنّه تجاوزها، بينما كان يحاول جاهدًا أنْ يرمّم جداره المتهدّم، ليستطيع مواصلة الحياة.

يستقبلُ أحفاده بحفاوةٍ بالغة، هُم فقط مَن يمنحوه طاقة لمواصلة السّير، خاصّة عمرو حفيده الأكبر، الذي بدأ يلتصقُ به في الفترةِ الأخيرة بشكل ملحوظ، ويلحّ على النوم بجواره واحتضانه بعمق، كأنّه هو الآخر يبحثٌ عن شيء يفتقده فيه.

التّوأمان لوز وسكر تبالغان في إكرامه، يشعر بذلك ويمتنّ لهما، فيبتسم ويقول: مَن يملأ مكانَ أمّهما؟ يهشّ لهما ليطمئنهما أنّه قد عبر إلى برّ الأمان.

على المقهى هذه الليلة، عاد الديبُ لممارسة هوايته بالأسئلة الصّادمة:

– مراد، لديّ عروس كاملة الأوصاف، ما رأيُك أن تعيدَ التّفكير في الأمر؟

لا يدري لماذا انفجرَ بالضّحك، والذي انتقل للجميع بالعدوى كأنّ الديب قد ألقى بنكتةٍ ساخرة.

قال عفيفي:

– لا فائدة منك يا محمد يا ديب!

– على العكس الرّجلُ كلّه فوائد.

قطّب الديب جبينه وقال:

– دعْكَ منهم، وأنصتْ لكلامي، لا ينسى الرجلُ امرأةً إلّا بامرأةٍ أخرى.

سكتَ شاردًا، وقد كسا وجهَه الحزن، همَّ عفيفي بحصّة المعاتبة، ولكن هجرس قاطع الحديثَ بسؤال لمراد:

– قلْ لنا، ما أعجبَ عروسٍ تقدّمت لها في حفنة النّساء اللاتي رأيتهن؟!

شعرَ أنّ الدّماء تتدفّق إليه بتجدّد الحديث، يسكت قليلًا ليستعيدَ الذّكريات، ثمّ قال:

– امرأةٌ تقدّمت لها، لم تكنْ جميلة بالقدْر الكافي، ولكنِ ارتاحت نفسي لها، إلّا أنّها في آخر المطاف أبلغتني برفضِها لي وقد اقتربنا من إتمام مشروع الزّواج، صدمني رفضُها المفاجئ، قلت لها: ما الذي لم يعجبْك فيّ؟ قالت: بالنّسبة لك، لا شيء يعيبُك، لقد عشت حياتي ضعيفة، خائفة متردّدة، بلا شخصية، أريد أنْ أقول لا مرّةً واحدة في حياتي، أريد أنْ أشعر بالقوّة على فعْل شيء، وأرفضه مهْما كانت مغرياته.

التعجّب كسا وجوهَ الجميع، قال عفيفي ساخرًا:

– المرأة التي قالت لا..

شردَ مراد بعينيه بعيدًا كأنّما يرى شيئًا ما، فهزّ له رأسَه بأسى، وقال:

– نعمْ يا صديقي، المرأةُ التي قالت لا.

***

قال له الطّبيب:

– أستاذ مراد، تحاليلُ صور الدّم التي أجريناها كلّها سليمة، لا شيء فيها يذكر، وكلّ الأرقام الزّائدة بسيطة، وتتناسب مع سنّك، لا خطورة عليك، ولا تحتاج إلى دواء.

– وبالنّسبة لنبض قلبي المضطرب؟

نظرَ الطّبيب بعناية لخطوط رسم القلب:

– سليم، ليس فيه شيء، نعمْ هناك نبضاتٌ زائدة تقولها سماعة الكشف، ولكن كلّ ذلك ليس لعلّة في القلب.

سكتَ مراد، وقد غلبه الاطمئنان قليلًا:

– أظنّ أنّ هناك ما يُقلق بالك، ومشغول به لحدّ كبير.

– على العكس، حياتي تسيرُ بشكل اعتيادي، بناتي وأحفادي بخير، ولي أصدقاءٌ مقرّبون، وأمارسُ عملي بشكل طبيعي، وبنفس النشاط.

– ربّما تلك هي الصّورة التي تريد للجميع أنْ يراها، وهناك أخرى تُخْفيها، هي التي تسبّب لك ذلك الخلل.

ينظرُ مراد للّاشيء، كأنّه يوهِمُ الطّبيب أنّه يفكّر في هذا الأمر:

– على كلّ يا سيدي، ليس لزامًا أن تحكي لي ما يُزعجك، يمكنك أن تفرغَ حمولتك، عند صديق تثقُ فيه، أو لدى بناتك، أو تتقرّب من الله أكثرَ بالعبادة، على العموم سأصفُ لك أقراصًا خفيفة، قد تساعدُك في ضبط النّبض، ولكن هذا بالتّأكيد لن يعالجك.

جسدُه يهزل بصورةٍ واضحة، ممّا يزعج الجميع، ومازال يمارس نفسَ طقوسه، ولا يبدو عليه أنّ شيئًا ما يشغله أو يحزنه، يضحكُ بملء فيه حتّى على النكات السّخيفة، يذهب لأحفاده، ويجلس معهم بالسّاعات يلاعبُهم بلا كلل، لا ينسى المناسبات ولا يفوتها، ولا مواعيد الأصدقاء.

مراد يذبلُ كشجرةٍ اقترب انتهاءُ عصرها، ولكنّها تأبى أنْ تموت إلّا واقفة، تقاوم الانحناء، والضعف، وتبقى هكذا دونَ أوراق، ولا آمال.

مستسلمًا لهم، عادوا به للطّبيب عدّة مرّات، ثمّ غيّروه إلى أطباء آخرين، ومراكز صحية كبيرة، نفس النّتائج، ونفس التّشخيص، ولا أحد يعرف إلى أين يريد أن يذهب.

زاره هجرس في البيت محاولًا فتح الجرح مرّةً أخرى، لعلّ به تقيّحات تحتاج لتنظيف، ولكن مراد قلَبَ الكلامَ إلى الضّحك، وقال:

- هذا موضوعٌ وانتهى، ولم أعدْ أفكّر فيه.

وفي ليلِ الوحدة الجاثم على صدره، بكى بكاءً مريرًا لمجرّد أنْ عبر صديقُه على الجرحِ، وفتحه بذكْر اسمها، سامحكَ الله يا هجرس.. هكذا همس لنفسه، وهو يتشنّج بالبكاء.

كانتْ قاسية، بنفس قدْرِ حبّها، كأنّها تعدل الميزان، حتّى لا تنكسر، وتستطيع مواصلة الحياة، لمَ تختفِ أو تهرب كما توقّع، ولكنّها بعد عدّة أيّام من ذبحها استطاعت الصّمود، ولملمة دمائها المتناثرة على مذبح الحبّ لتعيدها لشرايين حياتها.

أعادتْ فتحَ هاتفها، وسرى صوتُ الجرس في أذنيه، كالرّوح حين تسري في جسدٍ أوشك على الموت، جاءه صوتُها مختلفًا جافًّا، كأنّه قطعةٌ باردة من الصّلب، حتّى أنّه شكّ أن يكون لها.

طلبَ أن يقابلها، فاعتذرتْ بجفاء لانْشغالها الكثير، وأنّها ستحدّد له موعدًا في أقرب وقت.

لم يستطعِ الانتظار، عاودَ الطّلب، لم تردّ. يوم.. يومان.. ثلاثة، ثمّ ذهب للمستشفىَ، فقالوا لم تعدْ تعملُ هنا، عاد للمشفى القديم، لا يعرفون عنها شيئًا، ردّت عليه أخيرًا بعد أسبوع:

- ماذا تريد؟

- أرجوك يا مها، امْنحيني فرصةً لأوضّح لك.

- لا عليك، لقد تجاوزتُ ذلك، ولا أرغب في الخوض فيه مرّة أخرى.

– ولكنّي أودّ أن تسمعيني، وأن أشرحَ لك الأمر.

– ليس لديّ وقت لذلك.

– هل يمكنني شرحُه الآن، وسأختصر كلماتي، أرجوك.

– أعتذر، لديّ مشاغل كثيرة.

ثمّ يطرق رأسَه صوتُ صافرة متقطّعة لإغلاق الهاتف، ليخلف صداعًا مؤلمًا.

جاءه هجرس بعنوانها الجديد، مركز الأمل للعلاج الطبيعي، حجز للكشف وانتظر دورَه، أخذ يتأمّلَ المرضى بعيونٍ غائمة، حتّى نادتْ عليه الممرضة.

تفاجأت بدخوله، تماسكتْ بسرعة، وتعمّدت أن تتعاملَ معه كأنّه مريض، وقالت وهي تشير بيدها:

– تفضّل.

ظلّ مراد واقفًا، ينظر إلى الوجْهِ الجديد الذي تقابله به، يبحثُ فيه عن مها التي يعرفها.

كانتْ قد جلست متطلّعة إليه بقوّة، منتظرةً الامتثالَ لأمرها، ثمّ لم يجدْ بدًّا من الجلوس:

– ممّ تشتكي يا سيد مراد؟

– مها، أرجوك، أريد أنْ تسمعيني، ثمّ قرّري ما شئت.

– اسمي الدّكتورة مها، هذا أوّلًا. وثانيًا، هذا مكانٌ للعمل، وهناك مرضى ينتظرون، وأنا أحتاج لهذا الوقت، فضلًا عن لياقتي الذّهنية لأستطيع أنْ أهتمّ بهم بشكل لائق.

- هل مِن الممكن أنْ نلتقي بالخارج في أيّ مكان؟

- بأيّ صفة يا سيّد مراد؟ ألتقي مع رجلٍ غريب، لا أعرفه ولا يعرفني!

- أرجوك يا مها، لا تفعلي ذلك معي، أعيشُ في معاناةٍ كبيرة منذُ آخر مرّة التقينا.

بنظرةٍ صلبة:

- اطمئنّ، إذا كنت تريدُ أن أسامحك فهذا أمرٌ قد تجاوزته، ولم يعدْ يشغلني، كأنّه لم يكن، ليس لديّ وقت أضيّعه في العتاب، أنت رجلٌ كبيرٌ في السّن، لا يليق أنْ تفعل هذا بنفسك.

يبتلعُ مراد غصّةَ إهانته، قائلًا لنفسه: ما فعلتُه بها كان رهيبًا وقاسيًا، وعليّ تحمّل كلّ ردود أفعالها مهما كانت.

كلّ الاتّصالات التي تلتْ لقاءهما لم تردّ عليها، وكلّما تلهّف أكثر يشعر أنّ شيئًا ما يطعنه بخنجر مسموم ليسري في جسده أثره.

أصبح لا يريدُ منها شيئًا سوى أنْ تسمعه، رغم أنّه لا يعرف ماذا سيقولُ لها، ولكنّه يريد أن يدخل مرّة أخرى في دائرة اهتمامها لحظة واحدة في العمر، ثمّ ينصرفُ عنها، هذا ليس بالكثير، ولكنّها لم تمنحه ثانيةً واحدة ليفعل ذلك.

مِن أين جاءت بتلك القسوة؟!

ألا تعرف حقًّا؟

ذهبَ إليها مرّةً أخرى في العيادة، وحجزَ، وجلس وسط المرضى يرقبهم، نادتْ عليه الممرضة، استقبلته بنفسِ الوجه البارد، هذه المرّة كانت ترتدي دبلةً في يدها اليمنى، نظرَ لها بانكسارٍ، ثمّ قال:

- ألفُ مبروك.

هل ردّ التّمثال الجالس أمامه؟ ربّما.

ألم تقلْ يومًا إنّه لنْ يلمسها رجل سواه، هكذا النّساء، يكذبنَ كما يتنفّسْن، هنّ أوّل مَن استخدمْنَ الألوانَ للخداع والتّمويه، وإظهار وجهٍ وإخفاء آخر.

لنْ يعرف مراد أبدًا أنّه بمجرّد خروجه خلعتِ الدّبلة الغريبة عنها، وألقتْها في الدّرج، وأنّها كذلك لا تنوي أنْ تظهر له أيَّ شفقة، مهْما بدا شاحبًا هزيلًا، منكسرًا حزينًا، فقد قاتلت نفسها بكلّ ضراوة حبّها له، لترتدي هذا الوجه الذي تقابله به.

لم تستطعْ مها مقاومةَ دموعها، فوضعت وجهها بين كفّيها، وبكت بكاءً مريرًا بعد انْصرافه.

كانت هذه آخرَ مرّة زارها مراد، قبل أنْ يتّخذ قرارًا بالتوقّف عن الذهاب إليها، أو الاتّصال بها ومحاولة العودة بحياته إلى سيرتها الأولى.

كان يحمل همًّا واحدًا قبل أن يلتقيها، فأصبحَ يعيش في الحياة يحملُ همّيْن أثقل من كلّ جبال العالم.

***

كما توقّعت مها، توقّف مراد عن زيارتها، فقد مثّل ردّ فعْلِها في التّعامل معه صدمةً قاسية، وأنّ كرامته لن تسمحَ له بالتذلّل إليها لتسمعه، حتّى الدقيقة التي طلبها برجاء ليختصر فيها كلّ ما في قلبه؛ رفضتها.

لعلّك ارتحتِ الآن، وأغلقتِ هذا الباب؟!

نعمْ ارتحت..

والدّموع التي ذرفتِها في مكتبك بعدَ آخر زيارةٍ له، ألم تكنْ لهذا الانكسار الذي أطلّ من عينيه؟

لا، لم يكنْ لذلك، كنت أبكي على الجرح الذي سبّبه لي.

وهذه الدّموع التي تغرق وسادتك كلّ ليلة منذ أنْ غادرك للأبد، لنفس السبب؟

ألا تريد أن تفهمَ أيّها الغبي، مراد لم يحبّني، لم تتحرّك عاطفته تجاهي لحظة، كنتُ في عينيه مجرّد طفلة، قضتْ بجواره أوقاتًا مسلية، ثمّ دهسني بلا رحمة، وتركني وانصرف، أنا الغبيّة التي أحبّته، ومنحتْه الفرصة تلوَ الأخرى، بلا جدوى.

أؤكّد لك أنّه أحبّك، وتعلّق بك من أوّل لحظةٍ سمع فيها صوتك وهو فاقدُ الذاكرة، وتعرفين جيدًا ما الذي كان يمنعُه من إعلان حبّه لك، هل عليّ أن أذكّرك بكلّ تفاصيل القصّة من بدايتها وحتى اللّحظة!؟

الصّمت يخيّم على رأس مها، وكأنّها تميلُ لكلمات قلبها وتطلبُ المزيد.

لقد دارى حبّه لك لفترةٍ طويلة، حتّى أطلّ من عينيه يوم الفرح، حين أقبلت عليه بكامل أنوثتك، تنكرين ذلك؟

لا، ولا يمكن أنْ أنسى تلك النّظرة أبدًا، لقد رفعتني إلى السماء.

ورأيت ذلك في أسوأ موقفٍ مرّ بكما، حين أحرقت الغيرةُ أحشاءه بنارها، فاقتحم مكتبك، وتعمّد إهانتك بقسوةٍ مُفْرطة، ورأيت ذروةَ الحبّ في عينيه، وهو يسعى إليك متذلّلًا لتسامحيه.

أكرهُه، ألا تريد أنْ تفهَم، أكرهه.

آه يا عنيدة، استعدّي إذًا للوفاء بوعْدِك لأبيك، فقد انتهتِ المهْلة التي منحها لك ولمراد، أنسيت؟

أبي؟!!

لحظةُ صمتٍ غامضة، اهتزّ كيانها، فيما واصل قلبُها هجومه الضّاري..

لم تصمتينَ الآن بعد أنْ كنتِ تردّين عليّ الكلمة بالكلمة؟!

وقبلَ أن تتهيّأ للردّ، كان صوتُ أبيها يأتيها مناديًا، قفزت من مكانها، وهي تقول بصوتٍ تردّد صداه في أرجاءِ حجرتها: يا إلهي! لقد وقعتُ في الفخ، وعليّ أن أجد مخرجًا من وعدي لأبي بأقصى سرعة.

وضحكَ القلب المتألم برغم الحزنِ الذي يغمره.

لم تجدْ بدًّا من الاستجابة لنداء أبيها، فخرجتْ من غرفتها باستسلام لكلّ ما يخبئه القدرُ لها.

استقبلها الأبُ فاتحًا ذراعيه ليتلقّفها في حضنه، وعلى وجهها ابتسامةٌ باهتة، فيما دخلت الأمّ وهي تحملُ مشروبًا ساخنًا مع بعض فطائر الحلوى، وعلى عينيها نظرةٌ تعرفها مها جيدًا.

جلسوا ثلاثتهم يتبادلون بعضَ الأحاديث، وكلّما طال الوقت يزداد توتّرُها من المجهول الذي ينتظرها، تحاول أن تندمجَ معهما حتّى لا يظهر على وجهها اضطرابُ وجدانها، حتّى قال أبوها:

– مها، لقد وفّيتُ بوعدي معك، أليس كذلك؟

نظرتْ إلى وجهه بنظرةٍ متسائلة، فقال:

– لقد حدّثت أمّك بكلّ التّفاصيل التي حدثتْ بيننا، وكان رأيي الشّخصي في البوح لها بذلك أنْ تكون متهيّئة لتقبّل فكرة زواجك من السيد مراد إذا تقدّم لطلب يدك، وبالرغم من معارضتِها الشّديدة لفارق السّن، إلّا أنّني أقنعتها بالانتظار حتّى نرى إلى أينَ ستسير الأمور.

زفرتْ مها وهي تحدّث نفسها: يا لكَ من غبيّ يا سيد مراد، لقد أفسدت كلّ شيء بانْدفاعك وغيرتك، وضاعتِ الفرصة التي انتظرتُها بفارغ الصّبر في لحظة، وقد تهيّأ كلّ شيء للموافقة عليك.

تدخّلت الأمّ بصوت ممتلئ بالحنان والرجاء:

– لقد اسْتجبنا لكلّ ما طلبتِه، والآن ننتظرُ أن توفّي بوعدك لأبيك، أليس كذلك؟

بإحساس فارغ:

– بلى يا أمّي، وجبَ الوفاءُ بالوعد.

كان الأب يتطلّع لنظرتها، يحاول أن يقرأ ما يمور داخلها، بينما دفعتْ فرحة الأمّ وسعادتها الكبيرة لأنْ تقومَ إليها، فحضنتْها وقبّلتها وقالت:

– ألفُ مبروك يا حبيبتي، لقد تقدّم لك شابٌّ من خيرة الرّجال، ومن عائلة نعرف أصلَها الطّيب، الدكتور أحمد رسلان، أظنّك تعرفينه؟

هزّت مها رأسها، وعلى وجهها ابتسامةٌ باهتة، وهي تقول لنفسها.. ذلك المتغطْرس المغرور، ابن أمّه، الذي لا يرى في الوجود سواها.

– تعرفين أنّه كان في بعثةٍ لإنجلترا للحصول على درجة الزّمالة، وقد عاد في أجازة، وقد رشّحتك له والدته، ما رأيك؟

– لا.. لا أريد الزّواج منه، فضلًا عن أنّني لا أتزوّج بهذه الطريقة التي ترشحني فيها أمّ لابنها، كأنّني مجرّد سلعة في محلّ معروضة للبيع لهذا أو ذاك.

– لماذا يا ابنتي كلّ هذه التّعقيدات! الدّكتور أحمد يعرفك منذُ سنوات وأنتِ تعرفينه، وترشيح أمّه ليس معناه ما تقصدين، ولكنّنا عادة نبحثُ في الدّوائر التي نعرفها، وفي النهاية سيظلّ القرارُ قرارَك وحدك.

– لا أستسيغ الحياةَ معه، أشعر أنّه بارد كالآلة.

التفتتِ الأمّ للأب تستحثّه على مساندتها، بينما كان الأب يحاول أن يتوقّع إلى ماذا ستنتهي هذه الجلسة:

– حازم، ما رأيُك في الدّكتور أحمد، ألا تظنّ أنّه مناسب لمها؟ شابّ تتمنّاه الكثير من العائلات زوجًا لبناتها، ومستقبله العلمي والماديّ واعد.

– نعمْ هو كذلك، ولكنْ في النهاية سيكون الرّأي لمها، وأنا أثقُ في نضجها وحسنِ تفكيرها في الاختيار.

ردّت بإصرار:

– أحمد هذا أعرفُه من سنوات، ولا أتصوّره زوجًا لي، طباعُه لا تناسبني مطلقًا.

– ألا تمنحي نفسَك فرصةً بالجلوس معه، ربّما ترين فيه وجهًا لا تعرفينَه.

– أرجوك يا أبي، لا أطيقه.

تدخّلت الأمّ:

– لا عليك يا حبيبتي، هناك عددٌ من التّرشيحات الأخرى الممتازة، كلّهم سألوا عنك، ويودون ولوْ أنْ تقبلي بالجلوس معهم.

طالتِ الجلسة لأكثر من ثلاثِ ساعات، ولم تفلح كلّ محاولات مها في تأجيل الكلام حول موضوع خطبتِها، فقد كان والداها عازميْن على قطع الطّريق عليها، وعدم منحها أيّ فرصة للمماطلة.

شعورٌ بالاختناق تسلّل إليها، كثعبان يتحرّك ببطء قاتل إلى فريسته، ليحيط بها ليعتصرَها قبل أن يبتلعها، فكلّما حاولت التملّص منً هذه الجلسة،

أو على الأقلّ تأجيلها، تشعر أنّ قيدَ النقاش يضيق أكثر، ولا يتركُ لها مجالًا لأيّ فرصة للهرب.

لن يتراجع أبواها إذًا عن اقتناص هذه الفرصة، غلب على وجهها التبرّم والضّيق فوقفت في مواجهتهما وقالتْ بإصرار، وجسدُها يرتعش:

- أرجوكما، كفى، لقد تعبتُ وأشعر أنّني سأنهار، لم تعدْ لديّ القدرة على مواصلة هذا النّقاش، وإن كنتما تصرّان على مسألة زواجي، فأنا لنْ أستطيع الزّواج من رجل آخر غير مراد.

حلّ صمتٌ مفاجئ وغاضبٌ على المجلس، الأمّ توشك على الانْفجار.

- وأين هو مراد يا مها؟!

قالها الأب بغضب.

خفضتْ رأسَها للأرض وهي تهمّ بالبكاء، وقالت مختنقة:

- لا أعرف.

التوتّر سيطر على أمّها، فتهمّ بالصّراخ في وجهها لوْلا أبيها الذي اتّفق معها على ضبط أعصابها لأقصى درجة، حتّى لا تزداد ابنتُه عنادًا، أمسك بيد زوجته حتّى تهدأ قليلًا، وسأل مها:

- هل يمكن أنْ تشرحي لنا كلمة لا أعرف؟!

اعتصمت مها بالصّمت، ولم تحرْ جوابًا، فقالت الأمّ وقد خرج غضبُها عن السّيطرة، وبصوت أقرب للصّراخ:

- ما الذي يُعجبك في رجل يكبرك بأكثرَ من ربع قرن، وأنت مازلتِ شابّة، وأمامك مستقبلك وحياتكَ!؟

سكتتْ قليلًا، ابتلعت ريقها، ثمّ نظرتْ إليهما وقالت:

- رجولته، نضجه، عقلُه المتزن، حنانُه الذي يوزّعه بلا حساب، اهتمامه بكلّ تفاصيل من يحبّ، وسامته، شياكتُه، وقاره، سخاؤه، كما أنّني أرى أنّ فارقَ السّن ليس مشكلة كبيرة.

أسكتَ ردّ مها المنطلق والديْها، حتّى قال الأب:

- عليّ إذًا أنْ أبحث عن السيد مراد الذي اختفى، ثمّ أتقدّم إليه وأطلب منه أنْ يوافق على الزّواج منك، وإلّا ستجلسين هكذا بلا زواج!

- لم أقلْ أن تفعل ذلك يا أبي.

تدخّلت الأمّ بعصبية:

- إذًا أجيبي على سؤال أبيك، أينَ هو السيد مراد يا مها الذي يأخذ عقلَك لهذه الدرجة؟

***

استقبل مراد صباحَ الجمعة ببعضٍ من سعادة تراوده، عائلته الصّغيرة أتت، لوز وسكر، وأحفاده الثّلاثة، ليقضوا معه السّويعات التي يستقبلُ فيها الحياة، ويتنفّسها جسده بالحيوية ليقتات عليها لباقي الأسبوع، غيرَ أنّ حفيده الأكبر عمرو باغتَه اليوم بحزنٍ يعلو وجهه، صمت يسجنُ الكلام في شفتيه.

بعدَ أنْ فرغ من احتضان الجميع، لم يجدْ عمرو، فسأل عنه، فقالت له لوز:

- عاد من المدرسة أمس في حالةِ غضب، لا يكلّمه أحدٌ إلّا ويصرخ في وجهه، فشلت كلّ محاولاتي معه، فاتّصلت بمعلّمته التي قالت إنّه دخل

في شجارٍ مع أحد زملائه في الفصل، وقد استطاعت تداركَ الأمر قبل أنْ يتفاقمَ، ولكنْ كلّ محاولات الصّلح بينهما باءت بالفشل لرفض عمرو الاستجابة، مع أنّ زميله اعتذرَ له، وظلّ لباقي اليوم صامتًا، حتّى الَطعام، لم يتناولْ منه شيئًا حتّى الآن.

التفت مراد إلى حفيده الذي مازال واقفًا عند الباب، حزينًا غاضبًا، مطرقًا إلى الأرض، فذهب إليه، ثمّ جذبَه إلى حضنِه وضمّه بعمق، ثمّ أمْطره بالقُبُلات، وقال:

– ما الذي يُغضب بطلي؟

تمنّع عمرو في البداية، ثمّ قال مختنقًا بالبكاء:

– لم أعُدْ بطلك يا جدّو، لقد ضربني الولدُ لأنّني أصبحت ضعيفًا.

أمسك مراد بذراعه يتحسّس ساعده، وقال:

– مازلتُ قويًّا، وتستطيع مصارعةَ عشرة أولاد.

جذبَ عمرو ذراعه، وقال صارخًا:

– قلتُ لك لقد أصبحت ضعيفًا، ولم أقوَ على ضرب الولد.

– ماذا حدث؟ لم تعدْ تشرب الحليب، أو امتنعت عن تناول فطورِك كلّه كما اتّفقنا؟

– ليسَ هذا هو السبب.

– ما السبب إذًا؟

– أنت.

صمتَ مراد قليلًا متفاجئًا من ردّ حفيده:

– أنا؟!!

بعنادٍ أكثر:

- نعمْ أنت.

حارَ مراد من إجابة عمرو، لا يستطيع أنْ يستوعبها، نظر إلى ابنتيه متسائلًا، فاقتربت لوز من ابنها وقالت:

- ماذا فعل جدُّك يا حبيبي؟

- لقد أصبح مريضًا ضعيفًا، ولا يهتمّ بي، ولا يُحادثني، ولا يأتيني في المدرسة.

نزلتْ كلمات الطّفل على مراد كالصّاعقة، بينما جذبتْه أمّه بعنف، وقالت صارخة:

- أنتَ ولدٌ قليل أدب، وتستحقّ الضرب.

ثمّ رفعَتْ يدها لتضربه فانتبَه مراد فجذبَه إلى حضنه بعيدًا عنها، وقال متهدّجًا:

- لا أحد يضربُ حفيدي وحبيبي وبطلي.

ثمّ أمسك وجهَه بين كفّيه، ونظر إلى بريق عينيه، كأنّه يستمدّ منهما بعضَ الحياة ليتنفّس بها، وقال:

- نعمْ يا أعزّ النّاس، لقد كنت مريضًا ضعيفًا، ولم أعدْ أهتمّ بك، ولا حتّى بنفسي.

ثمّ وقف وبحركةٍ مسرحية، استدارَ حول نفسه، وبصوتٍ جَهْوَري ضاحك، رفع يدَه للسّماء وقال:

- ومِن الآن سأعود قويًّا من أجل حفيدي البطل عمرو.

علا الفرحُ وجْهَ الطفولة:

– تعدُني بذلك؟

ارتجّ جسدُ مراد، وهمّت الدّموع، ولكنّه تماسك وقال:

– أعِدُك يا حبيبي.

ابتسم عمرو أخيرًا، وتعلّق برقبة جدّه الذي واصل حديثه:

– ما رأيُك أنْ نتناول الآن فطورنا كلّه لنعود أقوياء شجعان لا نخشى أحدًا، ولا يستطيع أحدٌ أن يهزمنا!؟

جاء عمرو في لحظته المناسبة، كما تأتي فراشةٌ بألوانها المبهجة، ترفّ بجناحيها، لتملأ الحياة بالحبور والأمل لقلبٍ مكْلوم لم يعدْ يرى في الدّنيا سوى انتظار الموت.

قضى مراد مع أسرته الصّغيرة يومًا استثنائيًّا، لم يتوقّف عن مداعبة الصّغار واللعب معهم، وقوفًا أو على الأرض، أو الجري خلفَهم حتّى أشفقت التّوأمان عليه، وكلّما حاولتا سحب الأولاد ليستريح قليلًا أصرّ على الالتصاق بِهِم أكثر.

***

هل قالت إنّ الحبّ نوعٌ من المغامرة؟ أم هو المغامرة، لا أتذكّر جيدًا، لقد قالت شيئًا مثل هذا، آه لقد تذكّرت، قالت: الحبّ مغامرةٌ كبرى، وهذا سرّ مُتعته، وأجلُّ أسراره، والذي لا يغامر في عاطفته، مثله مثل الموتى الذين تنقلهم الحياةُ من قبرٍ إلى قبر، حتّى يضمّهم قبرُ الموت.

ما أجملَ أن أستطيع تذكرَ ما قالته لي، وما أخوفَني منذُ ذلك التذكّر، الذي بدأ يدفعني للتّفكير بقوّة لارْتكاب حماقة لا تحمدُ عقباها.

حماقة؟! لماذا تسمّها هكذا! سمّها مغامرة كبرى كما قالت، ذلك أفضلُ بكثير، وأرْوَحُ للبال، لقد أحسنتِ التّعبير، ووصفتْه بدقّة، فقد تنقّلت طوالَ عمري من قبرٍ إلى قبر، دفنتُ نفسي وأنا أتصوّر أنني أعيشُ بين الأحياء، وكدتُ أهْلَكَ لَوْلا لمسة سبطي عمرو، والتي بعثتْ في شراييني الحياة، وفي وجداني الأمل.

كان مراد يحدّث نفسه، وهو يتقلّب في فراشه، كأنّ مسَّ سحرٍ أصابه فبدّل حاله، فيقرّر أن يجدّد حياته، طالما فيه عينٌ تطْرُف، وقلبٌ ينبضً.

استعاد في الأيّام التالية نشاطَه السّابق بقوّة، اهتمّ بصحّته، عاود الطبيب بوجهٍ متلهّف ومقبلٍ على الحياة، اشترى ملابسَ جديدة ذات ألوانٍ مُشرقة، يستقبل الصّباح كلّ يوم بأنفاس عميقة يستنشقها وهو يمارسُ رياضة المشي، قامَ على أعماله بهمّة ونشاط، واهتمام أكثر بالتّفاصيل كما كان يفعل في السابق، دخلَ دائرة التّوأميْن وأحفاده مرّة أخرى، بالاهتمام والسّؤال والزيارات والاتّصالات اليومية الجماعية، وأخيرًا عاد لصحبته بحيويّة شابٍّ في الثّلاثين، بحكاياته الصّاخبة، وضحكاته التي تملأ المكان بالحبور، ولاحظَ أصدقاؤه ذلك فأقبلوا عليه بمودّةٍ صادقة، حتّى تجرّأ الديب ذاتَ مساء كعادته وعرض عليه فكرة الزّواج من جديد، ليعود عفيفي كالعادة لمعاتبتِه على طباعه المندفعة، بينما هجرس ينفثُ شيشته مبتسماً.

جاء ذكرُ المرأة على هوى جسدِ مراد ليستعيد هو الآخر شوقَ الأرمل المحروم للحياة بين أحضان امرأة غزيرةِ الحبّ والحنان والرغبة.

تنهّد، ثمّ لمعت عيناه وقال:

– أوافق.

مثّل ردّه مفاجأةً جعلت الثلاثة يتحلّقون حوله مُندهشين متَسائلين، بينما قال مبتسماً:

– لماذا تتعجّبون، أليس من حقّي؟ هيّا يا ديب، رشّح لي.

تدخّل عفيفي:

– عروسُك عندي.

وضعَ هجرس مبسَمَ الشّيشة، وقال بصوت آمر:

– لا أنت ولا هو، أنا الذي سأزوّجه.

– وأنا جاهز، مَن سعيدة الحظّ يا تُرى؟!

قالوا في نفَسٍ واحد، ودونَ اتّفاق مُسبَق:

– مها.

خيّم صمتٌ وذهول على الجميع من وقع التّوافق، ثمّ انفجروا ضاحكين ملء قلوبهم، ثمّ سكتوا وعيونُهم متعلّقة بمراد منتظرين إجابته، والذي نظرَ إليهم ومازالت بقايا ضحكتِه عالقةً على عينيه، ثمّ قال:

– مجانين، مجانين، تظنّون أنّها ستوافق؟!

– وما الذي يمنعها؟

– ربّما اكتشفتْ أنّ فارق السنّ بيننا لا يسمح، ثمّ إنّني تذكّرت شيئًا، لقد كانت تلبسُ دبلة في يدها اليُمنى في آخر مرّةٍ التقينا، معنى ذلك أنّه قد تمّت خطبتُها.

– أو ربّما ارْتدتها لتبعدَك عنها!

– في كلّ الأحوال أصبحتُ مرفوضًا لديها.

سكتَ الجميع باستسلام، فقال:

– لم يعدْ هذا ما يشغلني الآن، هناك أمرٌ بداخلي يجب أنْ أتجاوزه أوّلًا، حاجز أكبر من فكرة الزّواج من مها أو غيرها، أتمنّى أن أتحرّر منه، الآن استعدتُ حياتي، وأنقذتها من براثن القتل البطيء، ولكنْ ليس هذا ما أرجوه، ما يشغلني أكبر من ذلك.

***

عاد سيرًا على قدميْه من سهرته كعادته، لم يكنْ يفكّر في شيء محدّد، غير أنّ نسمات ليلية لطيفة عابرة، والطّريق الخالي، يبعثان في نفسِه ذكريات وصورًا غير مرتّبة، ولكنّها غُمرت ببعضٍ من صفاء.

وقفَ في مكان الحادث الذي بدّل حياته، ونظر إلى الطّريق الطويل المفروش بأعمدة الإنارة الخافتة، كأنه يتمنّى لو انشقّت الأرض عن سيارتها المسْرعة، وصوتُ المكابح الذي يصمّ أذنيه وهي تصرخُ قبل أن تصدمه، وقفَ قليلًا ثمّ عاودَ المسير حتّى وصل إلى الشّارع المؤدّي إلى بيته، اقترب منه وهو يتطلّع إلى شرفته، رغبة عارمة تجذبه لعدم الصّعود، وقوّة غريبة تدفعه لشيء مجهول، نظرَ إلى سيارته، ثمّ إلى ساعته، العاشرة تمامًا، تنفّس بعمق قبل أن يجلسَ فيها ويدير المحرّك، وينطلق.

***

كانت مها تلملِمُ أوراقها متهيّئة للانْصراف داخل غرفتها، ومازالت أصداءُ نقاشها الأخير مع أبويها تسيطرُ على عقلها، لقد تعقّد الأمر بإصرارها ورفضهما، كسيارتيْن تقابلا وجهًا لوجه في طريق ضيق، وعلى أحدِهما أن يتراجع للخلف، حتّى يعاود نهرُ الطّريق مسيره، مَن الذي دخل فيه بالخطأ،

ومَن يسير في الوجْهة الصّحيحة؟ سؤال له ألفُ إجابة، غير أنّها متمسّكة بإجابةٍ واحدة، مراد، ولكن أين هو؟

طرقٌ خفيف على الباب انْتشلها من صداع التفكير:

– تفضّل.

وقفتْ مبهوتة، فقدْ جاءت الإجابة بأسرع ممّا تتصوّر، حين فتح مرادُ البابَ، وقابلها بابتسامة:

– مساءُ الخير.

اضطرابٌ وحيرة وخوفٌ وفرح ويأسٌ ورجاء وضحكٌ ودموع وهدوءٌ وصراخ وصفعةٌ وقبْلة، يا إلهي! ماذا يفعلُ بي هذا الرجل؟ كلّ ذرّة في كيانها ترتعش، هل هذا حقيقي؟ ظلّت واقفة تنظر إليه، ثمّ اقتربت منه ومدّت يدها ببطء إلى وجهه حتّى لمست كفّها خدَّه، تيقّنت من كيانِ وجوده، فانزلقت دمعةُ تبعتها أخرى، فقال مراد مبتسماً وهو يشير إلى عينها:

– لماذا نزلت الدّموع من هذه العينِ ولم تنزل من الأخرى!؟ هل هذه مشتاقةٌ والأخرى لا تريد أنْ تراني؟

ضحكتْ مها رغماً عنها، وقالت متصنّعة الغضب:

– ما الذي جاءَ بك؟ وكيف تركتك الممرّضة تدخل هكذا دونَ استئذان؟!

– تسلّلت دون أنْ تدري، كانت العيادةُ بالخارج فارغة، دخلتُ بهدوء فرأيتها مشغولةً ومولية ظهرَها للباب، فسرْتُ على أطراف أصابعي وجئتك.

– أراكَ تحوّلت إلى مغامر كالمراهقين.

– تعبتُ من القبور التي تنقّلت فيها طوالَ حياتي، فقلتُ لعلّي لوْ غامرت مرّةً أتحرّر منها وأتذوّق معنى جديدًا للحياة.

– للأسف، لقد جئت متأخرًا كعادتك.

نظرَ إلى يدها الخالية وقال:

– لا أظنّني تأخّرت كثيرًا، ولكنْ على الأقلّ تحرّرت.

– يسعدني سماعُ ذلك كثيرًا، ثمّ؟!

أخرجَ يده التي كان يضعها خلفَ ظهره ومدّها بوردةٍ متدرّجة الألوان ذات ساقٍ طويلة وقال:

– شعرتُ أنّك جائعة، بالتّأكيد لم تأكلي شيئًا منذُ الصّباح، فقلت لعلّها تستجيب لدعوتي على العَشاء.

تناولتِ الوردة، تأمّلتها قليلًا، ثمّ تنفّستها بعمق، وقالت:

– نعمْ بالفعل أنا جائعةٌ جدًّا، ويُسعدني قبولُ دعوة على العَشاء الآن، ولكن ربما يرفض أبي أن أسهرَ مع رجلٍ غريب في ساعةٍ متأخّرة من الليل دونَ أن يكون بيني وبينه شيء.

– أستطيعُ أن أتّصل به، وأقنعه بقبولِ دعوتي، ويمكنُني الذّهاب إليه وإيقاظه إذا كان نائمًا وأطلبُ منه ذلك.

كانت مها تمتلئ بكلّ كلمة يقولها مراد، كنبتةٍ خضراء انْحنت للذّبول، حتّى لمسها النّدى فاهتزّت له وسرتْ في أوردتها الحياة، قالت بسعادة:

– ستفعلُ ذلك حقًّا من أجلي؟

– الأمرُ يستحقّ أكثر مما تتخيّلين.

– وماذا لو رفض؟

تحرّك مراد بهدوء، وهو ينظر للأعلى مفكّرًا، وهو يحكّ رأسه:

– سيكون لديّ عدّة بدائل، أنْ ألحّ عليه حتّى يملّ منّي ويوافق، أو أسوقُ له وسطاء لا يرفض لهمْ طلبًا كالمحافظ مثلًا، أو أدْعوه معنا للعّشاء، أو.. أو.. أو أنْ أختطفك منه بالإكراه، لا بديل لديّ عنك يا مها، ولم تعد للحياة معنى من دونك.

ضحكتْ بطفولةٍ مبتهجة، ورضا أنثويّ يغمر مشاعرها، ونادته بدلال:

– مراد.

– عيون مراد.

قالتْ وهي تجذبُه من يده:

– لقد بلغَ منّي الجوع مبلَغَه، هيّا للعَشاء، ثمّ نتباحثُ ونحن نلتهمُ الطّعام كيف سنخبرُ أبي.

تمّت

القاهرة

١٢/١١/٢٠١٩